رَوَائِعُ الْبَيَانِ

فِي تَدَبُّرِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تفسير سورة البقرة من آية: ٢١٦ إلى آية: ٢٨٦

لأم تميم

عزَّة بنت محمد

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن
تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ
قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا
يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ
مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ
رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ
فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ
وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ ﴾

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ} أي فُرِض عليكم؛ والجهاد فرض من فروض الكفاية كما قرر هذه المسألة العلماء؛ لأنه إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

- ومن أدلة أنه فرض كفاية أن الله تبارك وتعالى قال: { فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ.... ﴿٩٥﴾} [النساء] فإذا كان القاعد عن الجهاد آثمًا أو ارتكب محظورًا لَتَرتَّب على ذلك عقوبة! وما ترتب على ذلك جزاء الجنة في الآخرة! لكن المجاهد درجته أعلى كما أخبرتنا الآية.

{وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ} الكُرْه هو نفرة الطبع. والغالبية من الناس عندها غفلة عن العاقبة؛ وعلى العلماء والحكماء والدعاة أن يُعلِّموا الناس أنَّ الفعل والترك له غايات وعواقب!!

- فالعاقل لا يجب أن يكون معياره فيما يضره أو ينفعه أو الميل والحب والهوى ولا النفرة والبُغض والكره، لكن يكون معياره ما أمر الله به وإن شقّ ذلك على النفس، وما نهى الله عنه وإن كان به لذة للنفس.

- قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ**»(١)، فكل ما تكرهه النفس مما كُلِّفت به هو سبب دخول الجنة، وكل شيء تحبه النفس من المحرمات هو طريقها للنار.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٢٢).

{وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ} فقد يُكرَه القتال خوفًا من الموت أو الجرح أو السفر والمشقة وترك الأهل والأولاد والتجارة، فهو أمر يشق على النفس لكن مع ذلك كله {وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ} ومن الخير: نصر الإسلام والمسلمين، قد ينال العبد الشهادة، وما بين الدرجة والدرجة في الجنة ما بين السماء والأرض، والشهيد يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويُؤمَّنُ من الفزع الأكبر، ويُزوَّجُ باثنتين وسبعين زوجة من الحورِ العينِ، ويُشفَّعُ في سبعين من أهله.... فله بذلك مناقب عظيمة جدًّا.

- فهذا الجهاد الذي تبغضه فيه النصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على البلاد والأموال؛ لأنه بدون ذلك سيكون لأعداء الدين الغلبة، وسيقتلون المسلمين ويستولون على الديار والأموال، ولن تكون للمسلمين اليد العليا، ويشهد التاريخ على هذا الكلام.

{وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ} فهذا الذي تحبه من الكسل والراحة وترك الجهاد، فيه الشر كله من ضياع بلاد المسلمين وسقوطها في أيدي الأعداء، والحرمان من الدرجة العالية العظيمة التي ينالها المجاهد في سبيل الله.

{وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ} الله يعلم عواقب الأمور؛ هو الذي يعلم ما يصلحنا في دنيانا وأخرانا، فعلى العاقل أن يستجيب لأمر الله وينقاد له سبحانه، ولو أنه فعل هذا لنال خيري الدنيا والآخرة.

وهذا يُعد منهج حياة، فلا ينبغي المرور على هذا المعنى سريعًا، فلو رسخ في القلب والعقل هذا المُعْتَقَدُ لاستسلم العبد استسلامًا كاملًا لأمر الله؛ لأنه هو الذي يعلم ونحن لا نعلم(١).

قوله تعالى: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾}.

قال بعض أهل العلم وكثير من المفسرين إن سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ أرسل عبد الله بن جحش على سَرِيّة كي يتتبَّعوا أخبار قريش، لكن مرّت بهم عِيرٌ لقريش وفيها عمرو بن الحضرمي، فقتلوه ولم يَدْرُوا أنَّ ذلك اليوم من رَجَبٍ؛ ورجب من الأشهر الحرم، وقيل: إنها كانت في آخر يوم من جمادى الثاني. فَعيّر الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ قائلين: قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ!

وكأنه نوع من التهكم على النبي ﷺ وأصحابه أنهم قتلوا في الشهر الحرام، فَأَنْزَلَ اللَّهُ {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ}.

{ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ} المقصود به الأشهر الحرم.

---

(١) وللمزيد عن هذا المعنى في الآية الثلاثين من هذه السورة.

{قِتَالٍ فِيهِ} قيل: هناك خبر لمبتدأ محذوف مع همزة استفهام والتقدير (أجائز قتال فيه؟).

{قُلۡ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} نعم، لا يصح القتال في الأشهر الحرم، لكن من المعلوم عند العرب أن النكرة لو تكررت فتُعَدّ معرفة؛ وجاءت كلمة (قتال) هنا نكرة لتوضح معنى: أنه وإن كان القتال في الشهر الحرام ممنوعًا لكن ليس هذا على الإطلاق؛ فالنهي عن القتال ابتداءً في الأشهر الحرم لا يجوز، لكن دفاعًا عن النفس فجائز، ونقل هذا الإجماع أكثر من واحد من أهل العلم.

{وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي صَدٌّ عن دين الله؛ والصَّدّ معناه الصرف بالإكراه؛ فقد صرفوا المسلمين عن الوصول لبيت الله الحرام.

{وَكُفۡرُۢ بِهِ} أي كفر بالدين أو بالله.

{وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ} عطف على سبيل الله؛ أي (وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام).

{وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِ} أخرجوا أهل المسجد الحرام؛ وهم النبي ﷺ وأصحابه.

كل هذا الذي فعلتموه أكبر جُرمًا، وأعظم إثمًا، وأقبح ذنبًا عند الله من القتال في الأشهر الحرم التي تعايرون بها المسلمين!! أي وإن كانوا قد فعلوا شيئًا كبيرًا فقد فعلتم شيئًا أكبر!

{وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ} أكثر أهل العلم على أن المراد بـ (الفتنة) هنا: الشرك. والشرك أكبر من القتل لأنهم حملوا المسلمين على ترك الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم، وعبادة الأوثان والأصنام وترك الدين الحق، وهذا عند الله أكبر من القتل في الشهر الحرام.

{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ} لم تُبيّن الآية هنا هل استطاع مشركو العرب أن يَحْمِلوا المسلمين على ترك دينهم أم لم يستطيعوا؟! لكن لدينا آية أخرى في سورة المائدة وضحت هذا الأمر وهي: {ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ} وضحت الآية أنهم لم يستطيعوا أن يردّوا المسلمين عن دينهم الحق، كما جاءت آيات أخر وضحت أن الله أظهر هذا الدين {هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ..٣٣} [التوبة].

{وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ} وضحت الآية حكم مَن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر بأن: يُحبط عمله، ويُخلّد في النار.

سؤال: هل هذا الحكم مقيد؟ أي هل لا بد أن يموت ليُحبَط عمله أم أن مجرد الرِّدة تحبط العمل؟! الجواب: للعلماء قولان:

القول الأول: يحبط عمله بقيد الموت؛ فإذا ارتدّ ومات على الرِّدة فقد مات على الكفر، ومَن مات على الكفر فهو مخلّد في النار.

القول الثاني: يُحبَط العمل مطلقًا حتى وإن عاد إلى الإسلام؛ فكل العبادات التي فعلها وإن كانت أعمالًا كالجبال فقد حبطت، ويبدأ من جديد، وحُجتهم قوله تعالى ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ.. ﴿٥﴾ ﴾ [المائدة]، وقوله تعالى للنبي ﷺ ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ.. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر].

أما الإمام مالك فأخذ بالنصوص المطلقة (التي ذُكرت في القول الثاني) وقال يُحبط عمله حتى لو رجع للإسلام.

لكن الرأي الراجح ما ذهب إليه الشافعي ومَن وافقه بأن (يحمل المطلق على المقيد) وهذه قاعدة في أصول الفقه؛ لأن الحادثة واحدة والسبب واحد فيُحمل المطلق على المقيد.

فالمعنى إذًا أن مَن ارتد ومات على الرِّدة فهو مخلد في النار ويحبط عمله، لكن إذا ارتد فترة من حياته ثم عاد مرة أخرى إلى الإسلام فإن عمله لا يُحبط (وهذا قول الشافعي).

سؤال: كيف تُحبَط الأعمال في الدنيا والآخرة؟

***في الدنيا:** مثلًا في الزواج: كأن يُفارق المرتد (الزوجُ) الزوجةَ أو العكس، وفي الميراث: فلا يرث من المسلمين، وكذلك في الحب الذي يضعه الله له في قلوب المؤمنين.....كل هذا يذهب

عنه بارتداده.

***أما في الآخرة**: فيذهب ثواب كل الأعمال التي فعلها فلا يجد إلا النار خالدًا مخلدًا فيها، نسأل الله أن يرزقنا الثبات على الإيمان حتى نلقاه.

قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨}.

أخبرتنا الآية بثلاثة أعمال هم عمود السعادة، والتي يعرف من خلالها الإنسان هل يربح أم يخسر:

١- {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} (الإيمان) قول وعمل وهو يفصل بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وبين أهل الجنة والنار، فبدون الإيمان لا تُقبل الأعمال.

٢- {وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ} وأما (الهجرة) فشأنها عظيم جدًّا؛ لأن فيها مفارقة الأمور المحبوبة للنفوس من الأهل والولد والأوطان والأموال، فلا يفعلها أحد إلا إذا تمكّن الإيمان من قلبه.

٣-{وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} (الجهاد) مشتق من الجهد، ففيه مشقة كبيرة على النفس وهو أمرٌ عظيم من مراغمة الأعداء وتوسيع رقعة الإسلام، فلولا الجهاد لا تقوم دولة الإسلام.

*ودلّ قوله تعالى {فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} على أنهم فعلوا ذلك ابتغاء مرضات الله ونصر دين الله وليس لغرض دنيوي.

{أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ} كل هذه الأسباب التي فعلوها يرجون بها رحمة الله.

الرجاء له معنيان:

- ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما؛ أي قدمت أسباب معينة فأترقب أن يأتي لي نفع.

- أو ترقب الخير مع تغليب الظن للحصول.

فيجب الانتباه أنه لا بُد للرجاء من بذل وجهد وعطاء، وليس الأمر مجرد رجاءً دون الأخذ بالأسباب كما يظن البعض، وقد بيّن الله عز وجل هذا المعنى في الآية، فقد آمنوا وهاجروا وجاهدوا وعملوا كل هذه الأعمال وهم يرجون رحمة الله؛ فالرجاء لا بُد له من شغل وسعي وبذل، ولا ينبغي للعبد عند البذل والسعي أن يقطع لنفسه بالقبول والرحمة! نعم يحسن الظن بربه، لكن لا يَغتَرّ.

{رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ} رحمة الله واسعة جدًّا، عَمَّ جوده وإحسانه وكَثُر خيره للعباد، يغفر للمذنب والظالم إن تاب وأناب ورجع ويقبل توبتهم.

{وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} ختام الآية بـ {غفور رحيم} على الرغم من وجود أعمال صالحة وردت بالآية من الإيمان والهجرة والجهاد، فلماذا؟ لأن العبد مهما أتى بالعمل وهو يظن أنه أتى به على الوجه الأكمل إلا أنه في حق الله فيه نقص؛ فأعمالنا ما بين

التقصير والتفريط ولا بُد، فكل منا يحتاج إلى رحمة الله ومغفرته حتى مع الإيمان والتقوى.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

الآية من آيات الأحكام، وهي استئناف لإبطال عملين من أعمال الجاهلية؛ شرب الخمر والميسر.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ يسأل أصحاب النبي ﷺ عن حكم الخمر والميسر.

﴿ٱلْخَمْرِ﴾ كل شراب خمَّر العقل وستره؛ وَالْخَمْرُ مَأْخُوذَةٌ مِنْ خَمَرَ بمعنى ستر وغطّى؛ وسُميت بذلك لأنها تُذهب العقل.

- والخمر وكل ما يعمل عمل الخمر (مخدرات، حشيش، وما شابه ذلك) سواء كان كثيرًا أو قليلًا فهو حرام.

قد يحتج البعض بعدم وجود نص في القرآن بتحريم المخدرات!! ولكن حديث النبي ﷺ في الصحيحين واضح وصريح، بل يندرج تحت ذلك بعض الأدوية التي تُباع في الصيدليات والتي تؤدي لنفس نتيجة الخمر والمخدرات.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ، ومَن شَرِبَ الخَمْرَ في الدُّنْيا فَمَاتَ وهو**

يُدْمِنُها لَمْ يَتُبْ، لَمْ يَشْرَبْها في الآخِرَةِ»[١]. فالحديث واضح وصريح؛ فكلّ ما يُسكِرُ ويُذهِبُ العقلَ فهو خمرٌ، وإنَّ كلَّ ما يُسكِرُ ويُذهِبُ العقلَ فهو حرامٌ، ويشمل ذلك كل من شَرِب أيَّ نوعٍ مِن أنواع تلك المُسْكراتِ الَّتي تُذهِبُ العقلَ، فلم يقل الحديث: خمر من عنب! أو تفاح! بل كل ما يسكر!

- وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»**[٢].

﴿ٱلۡمَيۡسِرِ﴾ هو قِمار العرب؛ وهو اسم جنس مشتق من العسر والشدة، وقيل: هو من اليسار الذي هو ضد الإعسار، وقيل: مشتق من اليسر لأنه يجلب المال ويجمعه بسهولة ويسر دون تعب.

﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ قل يا محمد مجيبًا إياهم: فيهما مضار ومفاسد دينية ودنيوية كثيرة. ﴿فِيهِمَآ﴾ ظرفية تدل على تعلق الإثم بهذا العمل (الخمر،الميسر) كما تدل أيضًا على التعلق بالمنفعة، لكن المفاسد والمضار أكبر من المنفعة، ونسمع اليوم عن الكثير من الحوادث التي تحدث بسبب المخدرات وذهاب العقل بتلك المسكرات.

والإثم: الإبطاء عن الخير. وفي الشريعة: الفعل المذموم في

---

(١) متفق عليه.
(٢) مسند أحمد (٦٥٥٨).

الشرع، والإثم في الميسر يؤدي إلى العداوة والبغضاء كما قال تعالى في سورة المائدة {إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾} وهذه الآية حاسمة لتحريم الخمر والميسر! والميسر ما لا يخلو فيه أحد الطرفين أو الأطراف من (غُنم) أو (غُرم)، فمتى حدث المغنم أو المغرم فقد أصبح (ميسرًا).

*وللأسف له أشكال متنوعة ومتعددة في عصرنا هذا خاصة بعض الألعاب على مواقع التواصل الاجتماعي، فينبغي الانتباه لأي منها إن كان سيغنم منها الشخص أو يغرم!

{وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ} فيهما منافع قليلة؛ فـ (الخمر) قد يتاجر فيها ويحصل على بعض المكاسب المالية، وقد تؤدي لنوع من الطرب واللذة الوقتية، أما (الميسر) فقد يجمع بعض المال دون تعب ولا جَهد من مجازفة بالمال في التجارة أو غيره.

{وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} وفي وصف (الإثم) بالكبر، وتقديمه على (النفع) دليل على أن الإثم هو الغالب يقينًا؛ فالمنافع لا توازي أبدًا المفاسد الراجحة بذهاب العقل وذهاب الدين نتيجة هذين الفعلين.

والآية فيها تنفير؛ فالعاقل عندما يعلم عن شيء أن به الضرر أكبر سيمتنع فورًا عن فعل هذا الشيء.

والآية فيها تمهيد لتحريم الخمر؛ فجماهير العلماء على أن هذه الآية لم يكن بها تحريم صريح على تحريم الخمر، لكن تدرّج تحريم الخمر فجاء بعد ذلك في سورة النساء: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}، ثم جاء في سورة المائدة التحريم الكامل {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١}. ومن العلماء من قال إن آية البقرة بها التحريم الكامل لكنه (قول مرجوح).

{وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ} ويسأل الصحابة النبي ﷺ عن ماذا ينفقون من أموالهم.

{قُلِ ٱلۡعَفۡوَ} قل أنفقوا من أموالكم الذي يزيد عن حاجتكم؛ من العلماء مَن قال إن هذه الآية نُسخت بآية الزكاة؛ ففي أول الأمر كان الواجب إخراج الزيادة والفائض عن الحاجة، ثم نسخت بآيات الزكاة (وهذا قول ضعيف). فجماهير العلماء على أن هذه الآية محكمة وفي صدقة التطوع.

قال النبي ﷺ: «**خَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كانَ عن ظَهْرِ غِنًى، وابْدَأْ بمَن**

تَعُولُ»[١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فإنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ، فإنْ فَضَلَ عن أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فإنْ فَضَلَ عن ذِي قَرَابَتِكَ شيءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا**»[٢].

{كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} كذلك: قيل إشارة راجعة لبيان القول {قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ} وقرن اسم الإشارة بعلامة البعد (كذلك) تعظيمًا لشأن المشار إليه، وكمال البيان في الحكم مع بيان علته حتى تتلقّى الأمة الحُكم بالقبول وبنفس طيبة؛ فعندما يعرف الشخص الحِكمة من حكم التحريم يتلقّى الأمر بنفس طيبة، وهذه مِنّة من الله على العباد.

ولذلك قال {لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} واللام هنا للتعليل. وفيها اهتمام وامتنان وتشريف للأمة؛ فقد أعطاهم الله سبحانه وتعالى التكاليف مع بيان السبب حتى يكونوا على بصيرة واضحة وعلم بعواقب الأمور؛ فنتفكر فيما ينفعنا في ديننا ودنيانا ونُقبل عليه، وما يضرنا في ديننا ودنيانا نبتعد عنه.

---

(١) صحيح البخاري (١٤٢٦).
(٢) صحيح مسلم (٩٩٧).

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ
إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ
ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ
ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ
أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ
وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ
بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ
يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ
وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ
لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا
تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

لو نظرنا في هذه الآية والتي سبقتها سنجد أن (واو) العطف قد تكررت فيهما؛ فقال سبحانه {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ}، وقال الحق سبحانه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى}.

واو العطف تُشعِر أن هناك ارتباطًا، فهل بالفعل هناك ارتباط؟ نعم هناك ارتباط؛ **أولًا**: ارتباط بين السؤالين {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ}، {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} لأن السؤال عن الخمر والميسر المقصود من ورائه السؤال عن أموال ستُتلف لكن هذا الإتلاف للمال بدون فائدة، أما الإنفاق في سبيل الله ففيه إتلاف للمال، ولكن سيعود ذلك بفائدة على المُنْفِق، وشتان بين هذا وذاك.

ثانيًا: ارتباط بين {وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ} بالأسئلة السابقة لأن السؤال عن اليتامى يتضمن السؤال عن أموالهم وكيفية التصرف والتعامل مع تلك الأموال.

{وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ} (اليتامى) جمع يتيم، واليتيم هو: مَن مات عنه أبوه وهو صغير لم يبلُغ الحلم؛ أي قبل البلوغ، واليُتم هو: الانفراد، واليتيم يحتاج إلى الرعاية والعناية، ولذلك حثّ الله سبحانه وتعالى على العناية به ورعايته في أكثر من آية.

أما سبب نزول تلك الآية فهو:

حين نزل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا

إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾} [النساء] وقوله سبحانه: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.. ﴿١٥٢﴾} [الأنعام] شق ذلك جداًّ على الصحابة رضي الله عنهم، فكان الواحد منهم إذا كان عنده يتيم يفصل بين طعامه وطعام هذا اليتيم، وإذا بقي من الطعام شيء وفسد شعر بالذنب لأنه مال يتيمٍ، فأصبحت هناك إشكالية في كيفية التصرف في هذا المال! إذا خلطوا أموالهم خافوا.. وإذا انفصلت الأموال صعُب الأمر، كما أن أموال اليتيم نفسها إذا لم يُتاجر القائم على أمواله له فيها فسوف تأكلها زكاة المال (لأن أموال اليتيم عليها زكاة مال) وبالتالي فعليه أن يُتاجر له فيها حتى تنمو، فكان من رحمة الله تعالى نزول هذه الآية {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} وكان الجواب:

{قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ} فكان الجواب غاية في البلاغة والاختصار والروعة.

- لكن ماذا تعني كلمة (إصلاح)؟ تعني إصلاح جميع الشئون الخاصة بهم (الدين، الدنيا).

{خَيْرٌ} هل التفضيل مطلق أم أنه مقيد؟ أي هل المقصود الخير المطلق أم أنه خير من الإفساد؟

الجواب: الخير المطلق؛ لأن الإصلاح خير من كل وجه؛ قال الحق سبحانه: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)} [النساء]. الخيرية في الصُّلح مُطلقة، ولهذا نجد أن الجملة شملت معاني: الوضوح والعموم والشمول.

{وَإِن تُخَالِطُوهُمْ} وهذا يعني أنكم إذا خالطتموهم فلا داعي لكل تلك المشقة وذاك الحرج.

{فَإِخْوَانُكُمْ} ففيمَ تكون الأُخوة؟ الأخوة تكون إما في الدين (كفالة الأيتام) أو النسب (بينهما صلة قرابة). وكفالة اليتيم تعني: رعايته والاهتمام بشئونه والمتاجرة له في أمواله إذا كانت له أموال حتى لا تأكلها الزكاة.

{وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ} قال الحق سبحانه {يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} ولم يقل (يعلم المفسد والمصلح) فلماذا؟ لأنه حين قال {يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} ضمَّن العلم معنى التمييز؛ فهذا العلم يقتضي القدرة على التمييز بين المصلح والمفسد فيُجازي المحسن على إحسانه ويُجازي المُسيء على عمله السيئ (تمييز في الثواب والجزاء)، والعلم بالفساد والصلاح يشمل ما يخص أمر الدين وأمر الدنيا.

سؤال: هل المقصود بـ {وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ} عِلْم الله سبحانه بسابق حال العبد من أعمال صلاح أو فساد أم المقصود

غير ذلك؟

الجواب: المقصود أن الله سبحانه يعلم حتى النوايا سواء (إفساد، إصلاح) وكم من إنسان تمنى الخير ولم يستطع القيام به! وكم من إنسان تمنى الفساد وخاب مسعاه فلم يصل إلى مراده! فالله عزَّ وجل يعلم النوايا ويُجازي عليها إن كانت خيرًا فخير.. وإن كانت شرًّا فشر.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} هل يشمل هذا التمييز شئون اليتامى فقط أم كل شيء؟

قاعدة هامة بيَّنها جمهور علماء الأصول: (السبب نصٌّ في المراد)؛ أي قطعية الدخول فيه.. لقد اقتصر قول الحق سبحانه على {يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} ولكن المقصود أنه يعلم المفسد من المصلح في جميع الشئون لا في هذه الجزئية فقط، وإن كانت على رأس الأمر لأن السؤال جاء بشأنها.

{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ} (لو) شرطية، والجواب {لَأَعْنَتَكُمْ}.

سؤال: هل اقتران اللام بجواب الشرط واجب (لا بُد أن تأتي مع جواب الشرط) أم غالب {لَأَعْنَتَكُمْ}؟

الجواب: اقتران جواب الشرط باللام غالب لا واجب، ففي أكثر الأحيان عندما تأتي (لو) الشرطية فإن جوابها يأتي مُتصلًا باللام، ولكن من الجائز أن لا تتصل مثل قوله تعالى: {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ

أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)} [الواقعة] قال سبحانه (جعلناه) ولم يقل (لجعلناه).

{إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} جملة تعليلية لما سبق؛ فيُبين الله سبحانه وتعالى في ختام الآية أنه (عَزِيزٌ) غالِبٌ قادرٌ فلو شاء لكلَّفكمُ المشقة والعنت، لكنَّهُ (حَكِيمٌ) يضع الأشياء مواضعها؛ فلو لم تنزل هذه الآية لظل كل شخص يرعى يتيمًا أو يكفله في هذا العنت والشقاء الذي قد يصدُّ الناس عن طرق هذا الباب من أبواب الخير (رعاية اليتامى).

فبالرغم من عِزته وقدرته وقهره إلا أنه يُراعي أحوال العباد، ولا يُقدِّر العنت ولا المشقة عليهم إلا على وجه الاختبار والامتحان، بل إنه أراد بهم الخير والتيسير.

*(عزيز) اسم الله العزيز يشمل: عِزَّة القدر، القهر، القدرة، علو الشأن، الغلبة، عزة الامتناع (فلا عيب ولا نقص ولا نيل من جَنَابِهِ سبحانه)، أفعاله وأقواله لا يعتريها النقص بل إن له الكمال في الأسماء والصفات والأفعال والأقوال.

*(حَكِيمٌ) والحكمة تعني: وضع الشيء في موضعه الذي لا ينبغي أن يكون إلا فيه، واسم (الحكيم) من الأسماء العظيمة الجليلة التي تُدخِل على النفوس الطمأنينة، فتطمأن النفس حين تسمع هذا الاسم وترتاح، وتؤمن بالقدر، فيستقر حالها ويهدأ القلب.

قوله تعالى: { وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ

خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾}.

- في الآية بيان لأحكام الزواج من المشركات والمشركين.

{وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ} النهي هنا نهي تحريم، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز للمسلم أن يتزوج من امرأة مشركة، ولا للمسلمة أن تتزوج من مشرك.

ظاهر الآية يدل على شمول كل المشركات بما في ذلك الكتابيات (يهودية، نصرانية) ولكن هناك تخصيص في موضع آخر من الكتاب، قال الحق سبحانه:

{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)} [المائدة].

*فدلت الآية على أن هناك استثناء (للكتابية)، أما المُشركة التي ليس لها كتاب فقد حُرِّم نكاحها (نهي تحريم).

- وقد يقول البعض: إن هناك نصًّا في كتاب الله يوضح أن الله

سبحانه قال على اليهود والنصارى أنهم مشركون: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)} [التوبة].

فقد أوضحت الآية أن اليهود والنصارى مشركون، وبالفعل يجوز القول على اليهود والنصارى أنهم مشركون، ولكن استُثني منهم مَن ورد ذكره في آية المائدة لماذا؟ لأن الاقتصار في مقام بيان التشريع دليل؛ فقد بيَّن الحق سبحانه وشرَّع للعباد حكم مسألة من المسائل العظيمة؛ فحرَّم على المسلم الزواج من مشركة كما حرَّم على المسلمة الزواج من مشرك، هذا النص عام يشمل كل المشركين ثم استُثني منهم أهل الكتاب؛ فجاز للرجل المسلم أن يتزوج من كتابية (يهودية، نصرانية) أما المسلمة فليس لها هذا الحق فلماذا؟ لأنه عز وجل قال {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} وهذا مقام تشريع وبالتالي لا يجوز فيه تأجيل أو تأخير البيان عن وقت الحاجة.

وقفة: بعض الشباب يُسافرون هنا وهناك ويتزوجون من يهوديات أو نصرانيات ويحتجّون بأن الدين قد أباح لهم فعل هذا!!

الرد: عليكم أن تنتبهوا لأن هناك قيد في الآية وهو

{وَالْمُحْصَنَاتُ} فلا بُد أن يتوفر شرط الإحصان، فليس من حق الشاب أن يتزوج من امرأة نصرانية (تسير شبه عارية، لها صديق،... وغير ذلك من الأفعال التي تُسقِط شرط الإحصان عنها).

-والتغاضي عن هذا الشرط يجلب الويل للرجل؛ لأن هذه المرأة يمكن أن يصدُر منها أي فعل مُشين؛ فهي لا تعرف شرعًا ولا حُكمًا، فإذا كان أساس دينها مُحرَّفًا فهل ستُضيف إلى هذا الفساد فسادًا آخر بعدم الإحصان؟!!

- ولن يجلب مَن يفعل ذلك الويل على نفسه فقط بل سيجلبه أيضًا على أبنائه الذين يأتون من امرأة كهذه.

{وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ} تنبيه على دناءة المشركة وتحذير من الزواج منهن، لماذا؟ لأن المشركة قد يكون لديها شيء من الأمور التي تدفع الرجل إلى الإعجاب بها (مال، جمال، ثقافة ،مكانة) فقال سبحانه {وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ}.

- بالفعل هذه المرأة ستنال إعجاب الرجل نظرًا لمَا تملكه من مقومات.. ولكنه في المُقابل يخسر دينه ودين أبنائه وتلك مشكلة كبيرة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﭬ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**الدُّنْيَا**

مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ»(٢).

حكم شرعي: لا يمكن للمرأة أن تتزوج بغير ولي (بكر أو ثيب)، فالولي شرط في صحة النكاح والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا: {فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ.. ﴿٢٥﴾}[النساء]، {وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴿٣٢﴾} [النور]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»(٣)، وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهَا، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «فَإِنْ دَخَلَ بِهَا فَالْمَهْرُ لَهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، فَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»(٤).

{وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ} الخطاب هنا موجّه للمرأة لبيان أنه لا يجوز لها أن تتزوج من رجل مشرك.

{وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} نفس الأمور السابق ذكرها بالنسبة للرجل تنطبق على المرأة، فالخادم المؤمن

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم(١٤٦٦).
(٣) سنن ابن ماجه (١٨٨٠)، سنن الدارمي (٢٢٢٨).
(٤) سنن أبي داود (٢٠٨٣).

خير وأفضل عند الله من المشرك ولو كان صاحب شأن.

{أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ} وهنا ذُكِرت العلة في التحريم كي تطمئن النفوس وترتاح القلوب، فهؤلاء يقينًا يدعون إلى النار، ولكم أن تتخيلوا كيف تكون حياة الكافر أو الكافرة!! هؤلاء يدعون غيرهم إلى النار بأفعالهم.

{وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ} يُبين الله سبحانه هذه الآيات ويُوضح أن العبرة منها تكمن في ضرورة التذكر والتفكُّر والتأمل في الأمر الذي سيُقدم عليه المرء قبل فعله.

قوله تعالى: {وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾}.

سبب نزول الآية: عَنْ أَنَسٍ ؓ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ

كَذَا وَكَذَا، فَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا[(١)].

*واعلموا أننا مأمورون بمخالفة اليهود والنصارى في كل شيء فلا نتشبّه بهم في الظاهر حتى لا نقع في التشبُّه بهم في الباطن (الاعتقاد).

{قُلْ هُوَ أَذًى} إذا جامع الرجل زوجته وهي حائض فسيحدث ضرر، ولذلك لا ينبغي لعاقل أن يُقدم على أمرٍ كهذا، فهو شيء مكروه ومستقذر، تنفر منه النفس السليمة التي تُسَيِّرُهَا الفطرة السليمة.

{فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ} الفاء إما للتفريع أو للسببية:

*التفريع: فنظرًا لكون الأمر فيه أذى فيتوجه الأمر إليكم باعتزال النساء.

*السببية: بسبب هذا الأذى اعتزلوا النساء في المحيض.

{فِى ٱلْمَحِيضِ} تعني مكان الحيض وزمانه.

سؤال: هل اعتزال النساء في المحيض يكون من كل وجه أم أنه خاص بمنطقة الفرج؟ هناك قولان للعلماء:

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢).

١ـ **القول الأول:** يجوز الاستمتاع بكل شيء إلا الفرج، وأدلة أصحاب هذا الرأي:

* قول رَسُول اللهِ ﷺ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**»(١).

* عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ مِنَ الْحَائِضِ شَيْئًا أَلْقَى عَلَى فَرْجِهَا ثَوْبًا»(٢).

*ورد في تفسير الطبري رحمه الله تعالى بسند صحيح، عن عائشة رضي الله عنها أنه جاءها مسروق فدخل عليها فقال: السلام على النبي وعلى أهل بيته، فقالت عائشة: أبو عائشة؟ ـأي: أنت أبو عائشة، فمسروق له بنت اسمها: عائشة ـ مرحبًا، فأذنوا له فدخل فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحي، فقالت: إنما أنا أمك ـ تعني أن الله قال: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب:٦] وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ قالت: له كل شيء إلا الفرج.

٢ـ **القول الثاني:** المراد بالاعتزال في المحيض هو تغطية الجزء (من بداية السُّرة إلى الرُّكبة) وحجتهم في ذلك:

*كَانَتْ مَيْمُونَةُ رضي الله عنها تَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَاشِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَمَرَهَا، فَاتَّزَرَتْ وَهِيَ حَائِضٌ»(٣). والإزار:

---

(١) صحيح مسلم (٣٠٢).
(٢) سنن أبي داود (٢٧٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣).

يُغطي الجزء الذي يبدأ من السرة إلى الركبة.

*عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «وَكَانَ يَأْمُرُنِي فَأَتَّزِرُ، فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائِضٌ»(١).

سؤال: أصحاب القولين: الأول والثاني استند كل منهما إلى أحاديث صحيحة فكيف يتسنى لنا أن نجمع بينهما؟

الجواب: القولان متفقان على عدم جواز مس الفرج، ولكن الاختلاف بينهما انصبّ على الجزء المراد تغطيته:

فالقول الأول (تغطية الفرج فقط). والقول الثاني (من السرة إلى الركبة).

وللجمع بينهما نقول: إن الأقرب للتقوى هو الأخذ بالرأي الثاني، وهذا من باب الاحتياط أيضًا؛ لأن مَن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

سؤال: ما هو حكم المرأة التي أتاها زوجها وهي حائض ولم تكن تعرف حُرمة هذا الأمر؟ هل هناك كفارة؟

الجواب: لا كفارة لهذا الأمر، بالفعل هذا إثم كبير، ولكن ليس على أيٍّ منهما إلا الاستغفار والتوبة.

أما الحديث: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا وَقَعَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠).

الرَّجُلُ بِأَهْلِهِ وَهِيَ حَائِضٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِنِصْفِ دِينَارٍ») فهذا الحديث معلول، ولا يصح عن ابن عباس (مرفوعًا ولا موقوفًا)، بالرغم من أن بعض أهل العلم قد بنوا عليه أحكامًا.

سؤال: هل يجوز للرجل وامرأته حائض أن ينام معها في مكانٍ واحد وتحت لحافٍ واحد؟

نعم. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂ قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، مُضْطَجِعَةٌ فِي خَمِيصَةٍ، إِذْ حِضْتُ، فَانْسَلَلْتُ، فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِي، قَالَ: «**أَنُفِسْتِ**». قُلْتُ: نَعَمْ، فَدَعَانِي، فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الخَمِيلَةِ[(١)].

*(خميصة) ثوب مربع من خز أو صوف. (فانسللت) ذهبت في خفية. (ثياب حيضتي) الثياب التي أعددتها لألبسها حالة الحيض. (الخميلة) هي الخميصة أو هي ثوب له خَمْل وهُدْب.

استدل العلماء من هذا الحديث أنه يجوز للرجل أن ينام ومعه زوجته الحائض في نفس المكان، وهذا على عكس ما كان يفعله اليهود مع المرأة إذا حاضت.

سؤال: هل يجوز للمرأة أن تأكل وتشرب مع زوجها وأن تقوم بقضاء حوائجه ورعايته وهي حائض؟

نعم. لها كل الحق في ذلك، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كُنْتُ أَشْرَبُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٢٩٦).

وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ»[(١)].

هناك حديث صححه الحافظ في الفتح: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّقِي سَوْرَةَ الدَّمِ ثَلَاثًا، ثُمَّ يُبَاشِرُ بَعْدَ ذَلِكَ»؛ هذا الحديث نص على ترك النبي ﷺ مباشرة إحدى زوجاته إذا حاضت ثلاثة أيام، ولكن الأحاديث التي سبق ذكرها ورد فيها أنهن كُن يتّزرن إذا أراد مباشرة إحداهن دون أن ينتظر هذه الفترة، وللجمع بين هذا وذاك:

١- من العلماء مَن قال: أنَّ هذا يكون حسب حال المرأة، فهناك امرأة لا تستطيع أن تتحمل مباشرة زوجها لها (خارج الفرج) في أول أيام الحيض (مُتعبة)، هذه المرأة لا بُد من تركها أول أيام الحيض، فإذا مرّت فله بعد ذلك أن يباشرها (بعيدًا عن الفرج)، وهناك امرأة لا إشكالية بالنسبة لها؛ فلا فرق بين أول أيام الحيض أو آخرها..(إذن الأمر متوقف على حال المرأة).

٢- ومن العلماء مَن قال: من المستحب ترك الثلاثة أيام الأول من الحيض فإذا أراد الزوج أن يُباشر بعد ذلك فليفعل.

٣- ومنهم مَن قال: تتّزر ويباشرها دون انتظار لمرور هذه

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠).

الأيام الثلاث استنادًا لما جاء في الأحاديث.

{وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ} أي ولا تجامعوهن.

{حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ} هل المقصود بـ (حتى يطهرن): انقطاع الدم أم الاغتسال؟

المقصود هو: انقطاع الدم وظهور علامة الطُّهر (قصّة بيضاء،جفاف).

- أما {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} فالمقصود به الاغتسال بالماء.

سؤال: هل يجوز للزوج أن يُجامع زوجته بمجرد رؤية علامة الطُّهر؟

- لا يجوز له فعل ذلك؛ فلا بُد أن (تطهّر) وتغتسل أولًا {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ}.

سؤال: هل يجوز للمسلم المتزوج من كتابية أن يُجامعها إذا طَهُرت من الحيض ولكنها لم تتطهر منه بعد؟

- لا يجوز، بل عليها أن تغتسل أولًا؛ لأن هذا هو أمر الله سبحانه، فالمسلم عليه أن يُنفذ شريعة ربه على أهل بيته حتى لو كان أهل البيت غير مسلمين.

سؤال: في حالة انعدام وجود الماء هل يجوز التيمم بدلًا من الاغتسال إذا أراد الرجل أن يُجامع زوجته؟

نعم. يجوز لها أن تتيمم {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا}.

{فَأْتُوهُنَّ} **هل الأمر هنا للوجوب؟**

لا. ليس للوجوب؛ لأن القاعدة عند علماء الأصول: أن الأمر بعد الحظر يكون للإباحة، مثل قوله تعالى {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} الأمر للإباحة.

{فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ} **بأي شيء أُمِرَ العباد في هذا الموضع؟** أمر الله الزوج بأن يأتي زوجته في الفرج وليس أي مكانٍ آخر.

{مِنْ حَيْثُ} (من) هنا المقصود بها (في)؛ قال ربنا سبحانه {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ} أي في الأرض، وقال الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ..(٩)} [الجمعة] أي في يوم الجمعة.

{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ} {التوابين} هم الذي يُكثرون التوبة، فحال التواب أنه كلما سقط في الخطأ سارع إلى التوبة، فهو كثير التوبة والأوبة والرجوع إلى الله (هذا العبد من أحباب الله).

- ويُحب أيضًا المتطهرين: والطهارة تشمل الظاهر والباطن:

*فالظاهر يكون من (الحدث الأكبر، الحدث الأصغر، النجاسات).

*أما الباطن فبالتوبة من (الشرك، المعاصي، أمراض القلوب، آفات النفس).

قال ابن القيم: (ويحك لا تحقر نفسك؛ فالتائب حبيب، والمنكر صحيح، إقرارك بالإفلاس عين الغنى، تنكيس رأسك بالندم هو الرفعة، اعترافك بالخطأ نفس الإصابة عرضت سلعة العبودية في سوق البيع فبذلت الملائكة نقد {ونحن نسبح بحمدك} فقال آدم ما عندي إلا فلوس الإفلاس نقشها {ربنا ظلمنا أنفسنا}، فقيل هذا الذي ينفق على خزانة الخاص؛ أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين).

فالحق سبحانه يحب العبد الذي يشعر بذنوبه وعيوبه فلا يُكابِر ولا يُجادِل، والعاقل يعرف أنه يتقلّب بين التفريط والتقصير، وأن القيام بحق العبودية على الوجه الذي يُرضي الله لم يصل إليه أحد، ومَن يتصور أنه وصل إلى ذلك فليعلم أنه على مشارف طريق الخسران والنزول.

انتبهوا: فلا بُد أن يكون للإنسان عقل واعٍ، وفكر دائم، وتأمل مستمر، ليعتبر من أحوال السلف، ومن كل هذا يُبصِر أين يقف.

قوله تعالى: { نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣}.

سبب نزول هذه الآية كما جاء في البخاري ومسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، أَنَّ يَهُودَ كَانَتْ تَقُولُ: إِذَا أُتِيَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا، ثُمَّ حَمَلَتْ، كَانَ وَلَدُهَا أَحْوَلَ فَأُنْزِلَتْ:{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}(١).

*كان لدى اليهود معتقد وهو (أنَّه إذا جامعَ الرَّجُلُ امرأتَه مِن ورائِها في مَوضِعِ الحَرثِ (القُبُل)، جاء الولدُ أحوَلَ)، فأراد الله عز وجل أن يُبطِل هذه العقيدة الفاسدة فأنزل {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}.

{حَرْثٌ لَّكُمْ} المكان الذي فيه البذر، الذي يأتي منه الولد (مكان النطفة)، يعني القُبُل دون الدُّبُر.

{فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} المقصود: فأتوا نساءكم بأي وضع ترغبون فيه، وليس المقصود الإتيان من الدبر، فالآية واضحة، وللزوج أن يسلك أي مسلك للوصول إلى الفرج، المهم أن يكون الجماع في الفرج لا غيره.

- قال الحق سبحانه: {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} قال بعض أهل العلم: ابتغوا الولد، ومن المعلوم أن الولد لا يأتي إلا من الجماع في الفرج.

إشكال:

---

(١) متفق عليه.

عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ، إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ لَمْ يَتَكَلَّمْ، قَالَ: فَقَرَأْتُ ذَاتَ يَوْمٍ هَذِهِ الْآيَةَ:{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} [البقرة: ٢٢٣] فَقَالَ: أَتَدْرِي فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: نَزَلَتْ فِي إِتْيَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ(١).

وهذا كان اجتهاد من ابن عمر رضي الله عنهما خالف فيه علماء الصحابة جميعًا الذين لم يروا هذا، كما أن زوجات النبي ﷺ لم يروا هذا، ولم يتفق أي عالم من علماء الصحابة مع ابن عمر فيما قال.

- وقد قال بعض أهل العلم في توجيه هذا الأثر: إنه لا يصح.

- ومنهم مَن قال: عندما عَلِمَ ابن عمر أن اجتهاده خطأ وأن الصحابة الكرام قد خالفوه في هذا رجع عن قوله.

- أيًّا كان: سواء أن الأثر صحيح وقد عدل عن قوله، أو غير صحيح، فإن جماهير العلماء من الصحابة الكبار ومَن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا يُحرِّمون جِماع المرأة في الدُّبر لأن هذا الفعل يُشبه فعل قوم لوط.

{وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ} أقوال العلماء:

١- قدموا الخير والبر والإحسان والاجتهاد في الوصول إلى الحق والبُعد عن المتشابه والأخذ بالمحكم وصنوف الأعمال

(١) تفسير الطبري (٣/٧٥١).

الصالحة التي تلقوا بها الله أيًّا كانت تلك الأعمال {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا}.

٢- ومن العلماء مَن قال: إن المقصود مِن {وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ} التسمية عند الجماع.

٣- ومنهم مَن قال: إن المقصود هو طلب الولد الصالح.

أما الراجح من تلك الأقوال فهو: الرأي الأول، وقد سبق القول أن اللفظ إن كان يحمل معنًى عامًّا ومعنًى خاصًّا فالأَولى أن نأخذ بالمعنى العام إذا لم يكن هناك دليل للتخصيص.

{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} تنبيه على التقوى، فيا عبد الله لا تقع في المعاصي من أجل شهوة عاجلة ستدفع ثمنها عذابًا مؤجلًا إن لم تتُب منها.

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ} ذاك تهديدٌ شديد ووعيدٌ أكيد لمَن لا يتقي الله.

{وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} المؤمن التقي الطاهر النقي المقبل على الله بكليته، البعيد عن كل ما يُغْضِب الله، له البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

*والذي يُبشِر المؤمنين هو رب العالمين، والمؤمن مُستبشر مطمئن مُرتاح؛ لأنه يعلم أن كل تقوى وكل عمل صالح وكل إقبال على الله سوف يجده طمأنينة وسكينة وراحة نفس في الدنيا، أما في الآخرة فسيجد النعيم المقيم (في داره وجواره سبحانه وتعالى).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾.

﴿عُرْضَةً﴾ العرضة هي المانع، وهي مشتقة من الشيء الذي يُوضع في عرض الطريق فيمنع الناس من السير فيه، ويُقال: فلان اعترض على فلان، إذا تكلم بكلام فاعترض عليه (مُعْتَرِض). وقيل: إن العرضة هي: القوة والشدة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي لا تجعل خوفك من الله بقسمك باليمين يمنعك من أن تبر وتتقي وتُصلح.

- فكيف الجمع بين الخوف من الرجوع في اليمين وبين الأمر بأن لا يكون هذا اليمين مانعًا من البر والتقوى والإصلاح بين الناس؟!!

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ نَسْتَحْمِلُهُ، فَقَالَ: «**وَاللهِ لَا أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**»، قَالَ: فَلَبِثْنَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِإِبِلٍ، فَأَمَرَ لَنَا بِثَلَاثِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى، فَلَمَّا انْطَلَقْنَا قُلْنَا - أَوْ قَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ-: لَا يُبَارِكُ اللهُ لَنَا، أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ، فَحَلَفَ أَنْ لَا يَحْمِلَنَا، ثُمَّ حَمَلَنَا، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَمَلَكُمْ، وَإِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ أَرَى خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ**

يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»(١).

*فهناك أحاديث كثيرة تُشير إلى أن مَن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليُكفر عن يمينه وليفعل.

{لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ} اللام لام التعليل.

سؤال: ما كفارة اليمين؟

الجواب: (إما تحرير رقبة، إما كسوة عشرة مساكين أو إطعامهم، إن لم يستطع فعليه الصيام).

*فأما تحرير الرقبة فهو غير موجود الآن، وكسوة عشرة مساكين إن كان قادرًا، فإن لم يستطع - وهذا حال الغالب من الناس - فعليه إطعام عشرة مساكين، فإذا انعدمت هذه الأمور الثلاثة انتقل الحالف إلى الصيام، أما اختيار الصيام مباشرة من البداية كما يفعل كثير من الناس اليوم فلا يجوز وهو حرام.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧١٨)، ومسلم (١٦٤٩).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم
بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ
أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن
يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ
أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ
أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن
يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا
فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠ ﴾

هذه الآية استئناف بياني لبيان أحكام الأيمان؛ فقد بيّن الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة أنه لا ينبغي على الإنسان أن يمنعه اليمين من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وأما هذه الآية فتوضح حكمًا آخر وهو (يمين اللغو)، فما هو حكمه؟

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ} المؤاخذة من الأَخْذ بمعنى العَدّ والمحاسبة؛ وهذه المحاسبة قد يترتب عليها عقوبة فتكون المحاسبة للعقاب، أو تكون محاسبة من جهة العتاب.

{بِٱللَّغْوِ} (اللغو) الكلام الساقط الذي لا يُعتد به وليس له قيمة.

{فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ} الأيمان أي الحلف والقَسَم.

{بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ} أي اللغو حال الحلف، والمعنى أن الله نفى المؤاخذة في يمين اللغو؛ فلا يؤاخذكم الله بسبب الأيمان التي تجري على ألسنتكم من غير قصد.

سؤال: لماذا لا يؤاخذنا الله في يمين اللغو؟

الجواب: لأن الإنسان إذا عَقَد اليمين يجب أن ينفذّه ويوفّي به ولا يحنث، ولو حنث في يمينه ترتب على ذلك إثم وعقوبة (إلا إذا حنث عن يمين له كفارة؛ فلو حلف على شيء ووجد أفضل منه يأتي بالأفضل وله كفارة) لكن الأيمان التي ليس لها كفّارات إذا حنث صاحبها فهو آثم، لكن الله سبحانه وتعالى بكرمه وإحسانه يعلم أن الألسنة اعتادت على الكلام، واعتادت على الحلف الذي يجري على

اللسان من غير قصد، فرفعه الله عز وجل عن العباد برحمته وبكرمه وإحسانه حتى لا يسبب لهم العنت والمشقة في تنفيذ يمين اللغو.

الفرق بين يمين اللغو واليمين المنعقدة: يمين اللغو لا ينعقد عليه القلب ولا يقصده ولا يتعمده، فهذا لا يؤاخَذ عليه.

*مثال: اعتاد بعض الناس إذا أتى إليهم ضيفٌ أن يقسم ويحلف عليه أنه سيأكل، ولن يذهب إلا أن يأكل ثم لا يأكل الضيف! فهل سيُحاسب على هذا القسم؟!! لا؛ لأنه يمين لغو؛ قاله فقط لأنه أراد أن يحث الضيف على الطعام ويكرمه، ولم ينعقد قلبه عليه.

*فالله سبحانه لا يحاسبه عليه، ولكن من الأولى والأفضل والأقرب للتقوى أن لا نحلف مثل هذه الأيمانات؛ لأن الله سبحانه قال {وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ.. ﴿٨٩﴾} [المائدة] فهو أمر للعباد بحفظ الأيمان؛ لأنها تعظيم لله تبارك تعالى، كما أن كثرة الحلف شيء غير طيب.

{وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ} يعني بما تعمدت قلوبكم؛ فالمؤاخذة والعقوبة ستترتب على انعقاد القلب.

- إذًا فالذي يَنوي ويعقد بقلبه اليمين وينطقه بلسانه لفعل أمر، أو عدم فعل أمر في المستقبل يَلزمه الوفاء، وإن حنث فعليه كفارة، وسيؤاخذ ويحاسب على ذلك، ولم تذكر الكفارة على اليمين المنعقدة

في هذه الآية، ولكن ذُكرت في سورة المائدة: { لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ.. ﴿٨٩﴾}.

{وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} قال (حليم) لتسكين قلوب الخائفين المحبين؛ فالقلوب النقية الصافية عندما تسمع العقوبة من الله تخاف وتخشى.. فذكر اسم الله (الغفور) لذنوب عباده أولًا، ثم (الحليم) الذي لا يعاجلهم بالعقوبة، بل جعل لهم الكفارة عن هذا الذنب الذي هو الحلف بالله وأسمائه تبارك وتعالى، ثم الحنث في هذا الحلف بعد انعقاد القلب عليه.

عندما تختم الآيات باسم الله (الحليم) فهذا دليل على أن الآية بها شيء يترتب عليه إثم.

فوائد:

الفائدة الأولى: للأيمان ثلاثة أنواع:

١- يمين اللغو. ٢- اليمين المنعقدة. ٣- يمين الغموس.

- فصّلنا القول في يمين اللغو، واليمين المنعقدة (التي ينعقد عليها القلب).

- وأما (اليمين الغموس) فهو عظيم جدًّا لأنه ليس له كفارة!!

فصاحبه كاذب يحلف بالله العظيم وهو كاذب، وسمي غموسًا؛ لأنه يغمس صاحبه في النار!

- واليمين الغموس من الكبائر: قال النبي ﷺ: «**الكَبائِرُ: الإشْراكُ باللَّهِ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ، وقَتْلُ النَّفْسِ، واليَمِينُ الغَمُوسُ**»[(١)]. وقال النبي ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بيَمِينِهِ فقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**» فَقالَ له رَجُلٌ: وإنْ كانَ شيئًا يَسِيرًا يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَإِنْ كَانَ قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ**»[(٢)].

*(قَضِيبًا مِن أَرَاكٍ) أي عُودًا صغيرًا من شَجرِ الأراكِ الذي يُؤخَذُ منه السِّواكُ.

- وترجع خطورة اليمين الغموس أنه ليس له كفارة؛ فلو كان له كفارة لكان أهون، فالحدود كَفَّارات، إلا أن يتوب صاحب هذا اليمين ويعود إلى الله ويستغفر؛ لأن الأمر عظيم.

الفائدة الثانية: إذا تأملنا الآية سنجد أن عُمدة المسألة هي أعمال القلب!! فهل سيؤاخذ المرء بعمل قلبه؟!! هناك تفسير في هذا الأمر؛ فعمل القلب إن كان مجرد وساوس تأتي للنفس - كالشك في وجود الله أو ذاته - فالله رفعها عن عباده كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ تَجاوَزَ**

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٧٥).

(٢) صحيح مسلم (١٣٧).

لي عَنْ أُمَّتي مَا وسْوَسَتْ به صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»[١].

فهذه وساوس شيطانية لا يُحاسب عليها العبد طالما لم يعمل أو يتكلم.

لكن هناك أعمال قلوب ينعقد عليها القلب ونحاسب عليها؛ ومنها:

الظن السوء: فعندما يظن العبد في المسلم ظن سوء بدون بيّنة، فهذا إثم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ.. ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات]، وذلك كمَن يظنون بالمشايخ والعلماء أنهم يخرجون للدعوة في الإعلام بغرض مادي!! وما خرجوا إلا لمواجهة الحرب على الدين والدفاع عنه.. فهذا ظن سوء؛ فليس لي أن أظنّ بمن ظاهره الصلاح سوءًا.

حب إشاعة الفاحشة: كما قال تعالى في سورة النور ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾. فإذا أحبَّ بقلبه فقط أن تقوم الفتنة، أو يُحارِب الدين، أو أحب التشكيك في أهل العلم الربَّانيين..... كل ذلك من أعمال القلوب التي يُحاسب عليها العبد.

حديث القاتل والمقتول في النار: عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»** فَقُلْتُ: يا

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٢٨).

رَسولَ اللَّهِ، هَذَا القَاتِلُ فَما بَالُ المَقْتُولِ؟ قالَ: «**إنَّه كانَ حَرِيصًا علَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[(١)]. أي أنه كان يُريدُ قتْلَ صاحبِه، ولو سنَحَتْ له الفُرصةُ لَقتل أخاه.

حديث: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[(٢)]: فمَن أحَبَّ الله ورسوله والدين وأهل الصلاح مع العمل - وإنْ كان مُقصِّرًا عنْهُمْ في فِعلِ الخَيراتِ- أُلحِقَ بهم في المكانِ، لكنَّه ليس مِثلَهم في المكانة. فلننتبه إلى أعمال القلوب التي ينعقد القلب عليها.

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

الآية فيها بيان حكم الإيلاء، وما يترتب عليه.

﴿يُؤْلُونَ﴾ الإيلاء لغة: الحَلِف. وشرعًا: الامتناع باليمين عن وطء الزوجة.

ولذلك عدّي الفعل ﴿يُؤْلُونَ﴾ بحرف الجر (مِن) أي: يحلف يمينًا يمنعه من وطء الزوجة.

مدة الإيلاء: للعلماء قولان:

- منهم من قال: أربعة أشهر فصاعدًا.

---

(١) صحيح البخاري (٣١).
(٢) صحيح البخاري (٦١٦٨).

- ومنهم من قال: أكثر من أربعة أشهر.

والراجح: أربعة أشهر فصاعدًا؛ لأن الآية ذكر فيها {أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖ}.

إشكال: وقد يشكل على البعض حديث النبي ﷺ الذي ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه في صحيح البخاري: «آلَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ مِن نِسَائِهِ شَهْرًا» فكيف ذلك؟

الرد: المقصود بالإيلاء في هذا الحديث هو الإيلاء بالمعنى العُرفي أو اللغوي أي بمعنى الحلف، وليس المقصود به المعنى الشرعي الموجود عند الفقهاء.

{لِّلَّذِينَ} قيل اللام هنا للاستحقاق؛ أي يستحقون تربص أربعة أشهر. وقيل: اللام هنا للإباحة؛ أي يباح لهم تربص أربعة أشهر.

{فَإِن فَآءُو} فاء: أي رجع إلى الجماع وتوقف عن الامتناع عنها بعد حلفه على تركه في مدة الأربعة أشهر؛ فلا يجوز تركها دون جماع بعد هذه المدة، وإن لم يرجع إلى ذلك فعليه أن يطلقها {وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ}، وهذا من جمال الشريعة التي تعطي للمرأة حقها، فلا يجوز ولا يحلّ للرجل إمساكها بعد تجاوز هذه المدة دون جماع أو طلاق، وإن لم يفعل ذهبت إلى القاضي ليطلقها إن أرادت ذلك.

ملحوظة: إن أراد أن يقربها قبل انتهاء مدة الأربع أشهر فله

ذلك وعليه كفارة، لقول النبي ﷺ: «**مَن حَلَفَ علَى يَمِينٍ فَرَأَى غيْرَها خَيْرًا مِنْها، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، ولْيُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ**». وفي رواية: «**فَلْيُكَفِّرْ يَمِينَهُ، ولْيَفْعَلِ الذي هو خَيْرٌ**»(١). بل إن ذلك عند الله أفضل.

- بعض العلماء استدل على أن الرجل - حتى وإن فاء- فعليه كفارة، وحُجتهم في ذلك أن الله سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله {فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فدلّ هذا على أنه ذنب ولكنه غفور رحيم.

{وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ} أي إن لم يفئ وأراد أن يطلقها.

{فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} السمع إدراك الأصوات، والسمع صفة ذاتية لله عز وجل نثبتها له من غير تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا تشبيه، وصفة السمع في حق الله يأتي معناها حسب سياق الآية، وهنا بمعنى التهديد والوعيد الشديد لهذا الشخص الذي يظلم زوجته، فهو سميع عليم بالنوايا ويعلم ما في قلبك؛ إن كنت قد أردت من هذا الحلف إلحاق الضرر والعَنت والمشقة بالزوجة وظلمها فقط!

- وقد يأتي السمع أيضًا بمعنى (الإحاطة)؛ كقوله تعالى {قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۝١}[المجادلة].

- وقد يأتي بمعنى (التأييد)؛ قال تعالى { قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦} [طـه] مع موسى وهارون.

(١) صحيح مسلم (١٦٥٠).

قوله تعالى: { وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾}.

استئناف لأحكام النكاح بصورة جميلة رائعة وتعليمية، لا يمكن أن تشعر فيها بالسآمة أو الملل، بل السامع دائمًا في انسجام! فالناظر في سورة البقرة وتركيب الآيات والأحكام (حج، بناء البيوت،...) عظمة ما بعدها عظمة، وكذلك كل القرآن، فتكون العقول دائمًا في حالة انبهار من عظيم كلام الله! سبحان الله!

{وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ} جملة خبرية مراد بها الأمر؛ فهذا خبر مراد به الإنشاء. وفي ذلك تشبيه (ما هو مطلوب الوقوع) بـ (شيء محقق الوقوع في الماضي).

*مثال للتوضيح: قولنا على شخص مات (رحمه الله) هذه الجملة خبر وجاءت بصورة الماضي، أو قولنا (المرحوم) - كما أجاز ذلك بعض العلماء- لكن هذا الخبر استعمل في الإنشاء؛ لأن الغرض منه كان الدعاء لهذا الميت أن يرحمه الله، فهذا معنى (خبر أريد به الإنشاء).

{قُرُوٓءٍ} جمع قُرء؛ وتنازع العلماء: هل المقصود بالقرء: الطهر أم الحيض؟

هذا النزاع من زمن الصحابة الكرام.

- فريق من الصحابة قال: القُرء هو الطُّهر.

- وفريق آخر قال: القرء هو الحيض.

وبناء على هذا النزاع كان نزاع الفقهاء الأربعة وغيرهم، والفرق بينهما أمرٌ هام وخطير جدًّا لأن الأحكام المترتبة على القرء بمعنى الطُّهر ستختلف عن الأحكام المترتبة على القرء بمعنى الحيض.

- فإن كان القُرء بمعنى (الطُّهر): فإن ذلك معناه أن المرأة مع نزول أول قطرة دم من الحيض للمرة الثالثة بعد الطلاق فقد بانت من الزوج (أي أصبحت امرأة غريبة عنه وتنتهي الأحكام الزوجية بينهما فلا يرثها ولا ترثه وتستطيع أن تتزوج من غيره).

- أما إن كان القرء بمعنى (الحيض): فمعناه أن تنتظر المرأة بعد الطلاق مدة الحيض الثالثة كاملة (سبع أيام أو ستة حسب أيام حيضتها) فلا تنقضي الْعِدَّةُ حتَّى ترى القصة البيضاء (علامة الطهر)، وزاد آخرون: وتغتسل منها.

* فإن لم يكن هناك أمر قوي يرجح قولًا عن قول فينبغي الأخذ بالأحوط؛ فينبغي النظر للأقرب للتقوى، فلا يجب على المرأة أن تتعجل مع مجيء حيضتها الثالثة بعد الطلاق بل تنتظر حتى تطهر.

ملحوظة: إذا طلق الرجل زوجته أثناء الحيض فهذا طلاق

بدعي، ولا تحسب هذه الحيضة من مدة العدة سواء أخذنا بالقول الأول أو الثاني.

سؤال: هل كل امرأة مطلقة تتربص ثلاثة قروء؟

الجواب: لا. ليست كل امرأة مطلقة تتربص ثلاثة قروء؛ لأن هذا الحكم (عام مخصوص مخصص بمنفصل).

***لأن هناك بعضًا من النساء خصصت بأحكام أخرى:**

- شخص عقد على امرأة ولم يدخل بها ثم طلقها هذه ليس لها عِدّة، والدليل قول الله تعالى {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾} [الأحزاب].

- **(أولات الأحمال)** فالمرأة الحامل لا تعتد بثلاثة قروء بل عدتها بوضع حملها، والدليل قوله تعالى {وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ} [الطلاق].

- **(اللائي يَئِسن من المحيض)** لكبر سنّهن (واللائي لم يحضن)؛ { وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ ﴿٤﴾} [الطلاق].

- إذًا فقد خرج من آية البقرة أربعة أصناف من النساء:

المرأة الحامل، المرأة التي لم تحض، المرأة الكبيرة التي يئست

من المحيض، المرأة التي عُقد عليها ولم يدخل بها.

*خصصت تلك النساء بتلك الأحكام، لذلك نقول عن آية البقرة أنها آية (عام مخصوص مخصص بمنفصل).

{يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ} أي ينتظرن فلا يتزوجن خلال هذه المدة؛ ما الحكمة في ذلك؟ وهل الأمر تعبدي أم تعللي؟

*الأمر تعللي؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر العلة والحكمة في الجملة التي تليها مباشرة {وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ} فبيّن رب العالمين أن الأمر له عِلة ألا وهو (استبراء الرحم) أي حتى تتأكد أنها ليست بحامل.

- **وأما عِدة المرأة المختلعة:** فهي حيضة واحدة أيضًا لاستبراء الرحم.

ولو تفكرنا في أحكام الله سنجد فيها حكمة بليغة وعظيمة تجعل العبد في إذعان دائم لأحكام الله سواء عَلِم الحكمة منها أو لم يعلمها؛ فقد جعل للمختلعة التي لا تطيق العيش حيضة واحدة تستبرئ بها الرحم، كما نرى عظمة الشرع في المطلقة وقد جعل سبحانه عدتها ثلاث حيضات لاتساع حق الزوج في الرجعة؛ أي لعل الزوج في هذه المدة أن يراجعها، فلا تخرج من بيتها ولا يحق لزوجها أن يخرجها من بيتها إلا إذا فعلت الفاحشة؛ يقول تعالى:{ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ

وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١} [الطلاق] فبيّن الله عز وجل الحكمة من ذلك {لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا} فقد يحدث شيء تحصل به المودة أو يصلح بينهما بعض أهل الخير. فما أجمل هذا الشرع الحكيم!

{وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ} لا يحل لامرأة أبدًا أن تكتم ما خلقه الله في الرحم، سواء الحمل أو الحيض؛ فبعض النساء يفعلن ذلك، لذلك علق هذا الأمر على التقوى فقال {إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ} فصاحبة الإيمان والتقوى هي التي لن تكتم ما في رحمها.

فإن لم تكن المرأة صاحبة تقوى فماذا يمكنها أن تفعل؟

هناك أغراض وحِيَل شيطانية تأتي في خاطر المرأة الغير مؤمنة؛ فقد تخفي حملها لتنتهي عدتها سريعًا، وقد تتزوج غيره وتنسب له الولد!! وقد تكتم الحيض حتى يكون لها فرصة أخرى في الرجوع، أو العكس تقول: إنها حاضت، وهي لم تحض؛ حتى تتخلص منه سريعًا!! كل هذه حيل وأمور شيطانية نهى الله عنها.

{وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا} أي يحق لأزواجهن المُطَلِّقين لهن بمراجعتهن في مدة العدة -هذا للمطلقة طلاقًا رجعيًّا (الأولى والثانية)- فللرجل أن يراجعها قبل أن تنتهي مدة العدة، ويحل له ذلك دون أن يستأذنها -إلا إن كانت لا تريد

العيش معه فجائز لها أن تختلع- لكن المطلقة الرجعية التي تقيم شرع الله، ولم تخرج من بيتها فترة العدة، فمن حق الزوج في أي وقت أن يراجعها سواء بالقول (يقول لها: راجعتك)، أو بالفعل (الجماع).

- ثم قال {إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا} علّق سبحانه هذا الرجوع على شرط (حكم معلق على شرط) فإن كان بغرض الإصلاح كالأُلفة وإزالة ما وقع بسبب الطلاق فيكون ذلك خيرًا، وأما إن كان يقصد بهذا إذلالها أو إيذائها فإنه يأثم بذلك.

{وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِى عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ} وللزوجات من الحقوق والواجبات مثل الذي لأزواجهن عليهن.

من حق الزوجة على الزوج:

يأتِ المتشدقون بحقوق المرأة في العالم يتهمون الإسلام أنه أهان المرأة!!! فالإسلام أعز المرأة وصان لها حقوقها وأزال عنها الأعباء، بل أوجب على الزوج أن ينفق عليها، ولو كانت من بيت فيه خدم أن يأتي لها بخادمة واثنتين، أمر الله الزوج أن يعاملها بالمعروف ويحسن إليها، وأوجب على الرجل أن يتزين للمرأة كما أمرها أن تتزين له،... أعطى الإسلام للمرأة حقوقًا كثيرة جدًّا، ويظهر ذلك جليًّا إذا نظرنا في الشرائع الأخرى؛ فنجد أن المرأة حقها مهضوم، بخلاف الإسلام فقد أعطى المرأة كثيرًا من الحقوق.

ومن حق الزوج على الزوجة:

أن تتقي الله فيه، وتصون ماله وعرضه، ولا تتحدث مع الرجال، ولا يجوز لها الخلوة بأجنبي؛ قال النبي ﷺ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمعهَا ذُو مَحْرَمٍ**»(١)، حتى وإن كانوا إخوة الزوج أو أقارب الزوج فهذا جُرم كبير؛ قال النبي ﷺ: «**الحَمْوُ المَوْتُ**»(٢).

- ولا تُدخِل أحدًا بيته إلا بإذنه حتى وإن كان من محارمها (مثل: أخوها، أبوها،...) إلا برضا الزوج.

{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} المرأة متساوية مع الرجل في العبادات البدنية وأمور كثيرة؛ ففي العبادات مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والصدقة.. لها الأجر ولا فارق في ذلك بين الرجل والمرأة، إلا أن بعض الأمور القليلة جدًّا هي التي يوجد بها فرق في الشرع بين المرأة والرجل وذلك لحِكَم بليغة.

فمثلًا: في بعض الأحوال يأخذ الرجل ضعف المرأة في الميراث؛ وذلك لأنه ينفق على الأولاد، وقد يحتاج إلى أن يتزوج ويجهز بيتًا وهو من سيعول أسرته، أما المرأة ستأخذ ميراثها كاملًا وليس عليها أي نفقة إلى أن تموت.

- بل في بعض أحوال الميراث قد تأخذ هي أكثر من الرجل،

---

(١) صحيح مسلم (١٣٤١).
(٢) صحيح البخاري (٥٢٣٢).

وفي أحوال أخرى قد تحجب عنه الميراث فلا يرث، وأحوال أخرى قد يتساوون.

*أما الـ (درجة) المقصودة في الآية: القِوامة؛ فالرجل له القوامة؛ وهذا هو الأصلح وليس ظلمًا للمرأة أبدًا، ولا تفضيلًا للرجل على المرأة كما يدّعي البعض، بل إن أي كيان يجب أن يكون له رئيس واحد وإلا لن يستقيم البيت، والله عز وجل جعله هو الحاكم في البيت لقوته البدنية فيخرج ويتحمل مشاق العمل وكسب الرزق، فالرجل كُتب عليه الجهاد فيعرض نفسه للقتل وسيوف الأعداء، والمرأة ليس عليها ذلك بل تجلس في البيت وهو في ساحة القتال! والرجل ينزل خمس مرات لصلاة الجماعة - والعلماء على وجوب صلاة الجماعة للرجال- وأيضًا ينزل الجمعة والجماعات وعليه الإنفاق.

- لكن عندما قلدنا الغرب تحولت المرأة لرجل!! وهذا خراب من كل جهة، فسبحان الله! ربنا أعطى للرجل حقوقًا وواجبات، وللمرأة حقوقًا وواجبات. منتهى العدل والحكمة وكمال المصلحة للعباد، لذلك ختم الله عز وجل الآية بـ {وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} سبحانه عزيز في حكمته حكيم في عزته، والله عزيز لا يغلبه شيء، حكيم في شرعه وتدبيره.

قوله تعالى: {ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا

حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩}.

{ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ} التعريف هنا للجنس؛ فمعلوم في الأذهان عند أي مسلم أن الطلاق الجائز معه الرجعة أثناء العدة مرتان، أما في الثالثة فتكون قد بانت منه؛ فالتعريف للجنس: أي معنى الطلاق المعروف في شريعة المسلمين.

- وكون طلاق الرجعة مرتان فهذا من عناية الشريعة ورحمة الله سبحانه وتعالى بالمرأة؛ وذلك لأن الطلاق في الجاهلية كان غير مقيد بعدد!! وجاء الإسلام لنسخ هذا الحكم الجائر الباطل الذي يظلم المرأة ويسبب إلحاق الضرر بها، فجعل الله لها من الحقوق ما يحفظ كرامتها ويصون لها حقها.

{فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ} جملة مفرعة عن جملة (الطلاق مرتان)، والفاء للتعقيب لمجرد الذكر وليس لبيان الحكم، وهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره (إن كان الشأن كذلك وطلقها مرتين فإمساك بمعروف).

*والمعنى: أنه إذا طلقها ثم بدا له أن يراجعها بعد الطلقة الثانية فيجب عليه أن يعاشرها معاشرة حسنة كما ورد في الشرع من أداء الحقوق وحُسن الصحبة وعدم إلحاق الضرر بها.

{أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ} أعطى الله للرجل رخصة إن كان يرى من الزوجة النشوز وسوء العِشرة أن يطلقها الثالثة، ولم يعطِه الرخصة لإضرارها أو إهانتها أو تسخيرها لخدمته وسوء عشرتها ومنعها حقوقها التي جعلها الله لها، كأن يحرمها أولادها أو يمنعها النفقة.

لكن للأسف قد نرى كثيرًا من الأزواج بعد الطلاق يخوضون في أعراض وعورات زوجاتهم وعورات البيوت، وتُذكَر المساوئ الحقيقية والغير حقيقية أمام القريب والبعيد وغير ذلك من الأشياء التي إن دلّت فإنها تدلّ على نفس خبيثة!! كل هذا من الظلم والجور الذي سيحاسب العبد عليه أمام الله يوم القيامة، والكلام أيضًا للمرأة فلا يحل لها أن تتكلم عنه بذكر مساوئ في حقه، فالدين كله أدب وصيانة للألسن وحفظ للأعراض.

{وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا} (ولا يحل): قيل الواو اعتراضية بين متعاطفين هما {فَإِمۡسَاكُۢ} و {فَإِن طَلَّقَهَا}. وقيل: معطوفة على {أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ} أي لا يحل له أن يأخذ عوضًا في الطلاق أو يهين المرأة أو يسيء عشرتها، وهذا من بدائع التشريع أن جمع الله التشريعات الخاصة بأحكام الطلاق في جمل قصيرة حتى يعيش الناس في أمان وسلام.

{إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ} ثم ذكر سبحانه في الموضع الثاني من الآية حكمًا جديدًا وهو الخُلع فلو حصل أن الطرفين خافا

ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به.

{فَإِنْ خِفْتُمْ} أي إن ظنَّ ألا يطيع الله فيها أو ظنّت ألا تطيع الله فيه (فعبر عن الظن بالخوف) وذلك تحذير من عذاب الله.

{وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ} الاستثناء هنا قريب من الصريح؛ أي أن الخُلع لا بُد أن يكون له سبب: كالنشوز أو الشقاق من جانب المرأة أو الرجل.

حكم الخلع:

بعض أهل العلم على أن الخلع أمر أباحه الله للمرأة، وذهب آخرون على أنه مكروه لغير سبب، وقال بعضهم: يحرم لغير سبب.

ولكن الخلع مشروع في الكتاب والسنة: وهو افتداء الزوجة نفسها بمال تدفعه لزوجها مقابل فراقه لها، ودليله من الكتاب الآية التي بين أيدينا، أما دليله من السُّنة حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بنِ قَيْسٍ أتَتِ النبيَّ ﷺ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، مَا أعْتِبُ عليه في خُلُقٍ ولَا دِينٍ، ولَكِنِّي أكْرَهُ الكُفْرَ في الإسْلَامِ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟**» قالَتْ: نَعَمْ، قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «**اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً**»[(١)]. المراد بالكفر هنا: كفران العشير أو التقصير في حق الزوج.

---

(١) صحيح البخاري (٥٢٧٣).

* (ثابت بن قيس) من الصحابة الذين بشّرهم الرسول ﷺ بالجنة، وذكرت زوجته أنها لا تعيب عليه في خلق ولا دين، وقد كان غنيًّا لأنه أهداها حديقة، ومع ذلك أباح النبي ﷺ لها أن تختلع.

ولكن هنا وقفة: امرأة ثابت صحابية رأت رسول الله ﷺ وعاشت في زمن نزول الوحي فهي تتمتع بالتقوى فخافت ألا تؤدي حق الله في زوجها، فأباح لها النبي ﷺ الخلع في هذه الحالة؛ لأن السنة بيّنت أن كفران العشير من أسباب دخول النار، فوصلت لمرحلة أنها لم تستطع أن تطيع الله فيه، أما ما نعيشه نحن في هذه الآونة فإما إفراط وإما تفريط!! إما أن تُهان المرأة وتُحتقَر ولا تقوم لها قائمة في بيت زوجها وتُلاقِي من الآلام النفسية والبدنية ما لا يُحتمَل، بل قد تصبر من أجل البيت والأولاد!! وإما أن تتمتع المرأة بعدم التقوى وعدم مراعاة حقوق الزوج فلا تخاف الله فيه، بل وتتصيد له الأخطاء وتطلب الطلاق بدون أي وجه حق!!

وكِلا الأمرين لا يجوز ولا يصح؛ ولكن إن شعرت المرأة بالنشوز أو شعر الرجل منها بذلك فلها أن تختلع كما ورد في حديث امرأة ثابت بن قيس كما ذكرنا من قبل.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ} في الآية رفع الإثم عن الطرفين؛ عن المرأة وأنها ليست آثمة فيما افتدت به مقابل أن تختلع، وكذلك الزوج ليس عليه جناح أن يأخذ المال مقابل الخلع، فسبحانه رفع الحرج عن الباذل والمبذول له، وإن أرادت أن تدفع فوق المهر

لتفتدي فهذا جائز.

{تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} بيّن سبحانه أن هذه الأحكام الشرعية التي شرعها لعباده لا ينبغي لهم أن يتعدوها، فقد بيّن لهم الحلال، وأن الشرع يسعنا جميعًا، فلا نَتعدَّاه إلى الحرام، ومن يَتَعَدَّهُ إلى الحرام {فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} ؛ أي ظلم نفسه بتعدي حدود الله.

والظلم ثلاثة أنواع:

١ـالظلم الأكبر ألا وهو الشرك.

٢ـظلم بين العبد وربه.

٣ـ ظلم العباد بعضهم البعض.

وهذا النوع الأخير إن لم يُستسمح صاحبه في الدنيا فلا بُد أن يُؤدّى هذا الحق عندما تجتمع الخصوم.

وتكرار اسم الجلالة في الآية {تلك حدود الله} {ومن يتعد حدود الله} بيان لعظم المقام، وأن هذه الأحكام عظيمة يجب مراعاتها؛ فهدم البيت بالطلاق ليس بالأمر الهين لا سيما أن ضرره يعود على الأولاد.

وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ:**

فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: وَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ - أَوْ قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ - وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ أَنْتَ»[(١)]. فدل ذلك على العواقب الوخيمة والأضرار الجسيمة للطلاق بالنسبة للزوج والزوجة والأولاد.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي فإن طلقها الطلقة الثالثة فقد بانت منه، ولا يجوز له أن يراجعها لا أثناء العدة ولا بعدها إلا بالشروط المذكورة في الآية.

أنواع الطلاق:

الطلاق السني: وهو أن يطلق زوجته في طُهر لم يجامعها فيه.

الطلاق البدعي: وهو أن يطلق زوجته وهي حائض أو يطلقها في طُهر جامعها فيه.

وجماهير العلماء على أن الطلاق البدعي يقع وإن كان مخالفًا للسنة، فإذا بانت المرأة من زوجها وأصبحت لا تحل له بات البعض

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١٣)، مسند أحمد (١٤٣٧٧) واللفظ له.

يبحث عن فتاوى وحيل حتى يرجعها له!! وقد تُوقعه هذه الفتاوى عياذًا بالله في الزنا.. مثل أن يجد شيخًا يفتي له ويقول: إن كنت قد طلقت امرأتك وهي حائض فلا يقع الطلاق! فيظن بذلك أنها ما زالت زوجته فيقع في الزنا تحت هذه الرخصة التي أجازها له الشيخ! وفي الحقيقة أن الطلاق وقع، ولا تحل له حتى تتزوج زوجًا آخر نكاحًا صحيحًا، وليس مجرد العقد فحسب، بل لا بُد أن يدخل بها، فلا يكون الزواج بنية التحليل.

- ودليل ذلك ما جاء في صحيح البخاري: عن عائشة ﭬ أَنَّ امْرَأَةَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ جَاءَتْ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي، وإنِّي نَكَحْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ الزَّبِيرِ القُرَظِيَّ، وإنَّما مَعَهُ مِثْلُ الهُدْبَةِ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أنْ تَرْجِعِي إلى رِفَاعَةَ؟ لَا، حتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ وتَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ**»[١].

*وفي هذا دليل على أنه يجب أن ينكحها نكاحًا صحيحًا يطأها فيه.

{وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي أن هذه هي شرائع الله الواضحة الجليّة التي حدّها لنلتزم بها.

وفي قوله {يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} تنويه إلى أن المنتفعين

---

(١) صحيح البخاري (٥٢٦٠).

بالمواعظ هم أهل العلم؛ قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر] ولأنه كلما زاد العلم زادت التقوى والخشية فزاد الالتزام بحدود الله، فلا ينتفع بالموعظة مَن لا يعلم عن الله.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ
بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ
ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ
عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ
بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ
أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا
تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ
وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم
مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣ ﴾

حكم بعد حكم وتشريع بعد تشريع، والمقصود من ذلك: الوصايا بحسن المعاملة وحسن معاشرة النساء سواء حصل استمرار للحياة الزوجية أو لم تستمر، وكل ذلك من الاهتمام بحقوق المرأة.

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} لما أضاف (الأجل) إلى ضمير نون النسوة (أجلهن) عُلم أنه الأجل المعهود المعروف وهي العدة التي تعلمها المرأة.

- والمقصود بـ {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} اقتراب انتهاء العدة؛ وذلك لأنها إذا انقضت عدتها زال التخيير للرجل بين الإمساك والتسريح.

{فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} الكلام في سياق الطلاق الرجعي إذا أراد أن يراجعها بعد انقضاء عدتها سواء بعد الطلقة الأولى أو الثانية فيكون ذلك بعقد جديد ومهر جديد؛ فيمسكها بمعروف لكن بأسباب مشروعة كأن يكون ما زال عنده رغبة فيها ولا يريد فراقها وليس لإلحاق الضرر بها.

{أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} أي إذا لم تستطع إقامة شرع الله فيها فسرّحها.

{وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ} بعد أن أباح الله للرجل أن يمسكها بمعروف أو أن يسرحها بمعروف نهاه أن يمسكها بغرض الإضرار بها والإساءة إليها ومعاملتها معاملة سيئة، فإذا انتهت الألفة بينكم واستحالت المعاشرة بالمعروف ففارقها بمعروف.

وقوله {لِّتَعۡتَدُواْۚ} اللام للعاقبة وللتعليل؛ للعاقبة: أي لا تمسكها لتكون النهاية أن تعتدي عليها وتظلمها. وللتعليل: أي تمسكها وتضيق عليها عِلة الإضرار بها؛ فتظلمها ولا تعطيها حقوقها حتى تُلجأها للافتداء بنفسها فتتنازل عن كل شيء كما يفعل بعض الأزواج.

{وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ} أي عرّض نفسه لسخط الله بسبب إضراره لها حتى تفتدي بنفسها؛ قال تعالى { وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾} [طـه].

{وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا} والعضل: المنع والحبس؛ فلا يجوز عضل المرأة؛ قال تعالى: { وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ.. ﴿١٩﴾} [النساء].

قال أهل العلم: لو أن امرأة أتت بفاحشة مبينة ففي هذه الحالة يجوز للزوج أن يعضلها بأن يضيق عليها حتى يجعلها تلجأ للافتداء بنفسها فتترك حقوقها التي جعلها الله لها، أما عدا ذلك فلا يجوز للرجل أن يعضل امرأته.

{وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ} أي لا تتخذوا أوامر الله ونواهيه هزوًا. لكن ما معنى (هزوًا)؟ الهُزُءُ: مصدر هَزَأ به أي سَخِرَ ولَعِبَ. والمؤمن لا يجوز له بالطبع الاستهزاء بآيات الله، ولكن ليس هذا مقصود الآية، وإنما المقصود من الآية عدم الاستخفاف بأوامر الله

وبعقوبته.

{وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ} أي نعمة الإسلام، وكيف أخرج الله المسلمين من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهداية وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

{وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ} الكتاب: القرآن. والحكمة: السُّنة.

{يَعِظُكُم بِهِۦ} ليبين لكم الحلال والحرام والأوامر والنواهي، وما يعرضنا لثواب الله وما يعرضنا لسخطه وعذابه.

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} تأكيد وتهديد أن الله بكل شيء عليم؛ فلا يغفل عن أفعال البشر ولا عن تدابيرهم.

قوله تعالى: {وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾}.

الخطاب هنا لـ (وليّ المرأة) وذلك بأن لا يمنعها أن ترجع لزوجها إذا طلقها وانقضت عدتها وذلك إن أرادت أن ترجع له بعد ما حدث بينهما تراضٍ.

فقد كان من عادات الجاهلية أن أولياء المرأة كان لديهم الأَنَفَةُ من أصهارهم إذا حدث بينهم شقاق، فيرون أن في الطلاق استخفافًا

بهم ومهانة لهم، فتأخذهم الحمية لينتقموا ويمنعوا المرأة أن ترجع لزوجها إذا حدث بينهما تراض وتوافق بعد ذلك، فنهى الله الأولياء عن مثل هذا الفعل.

سبب نزول الآية: ما أخرجه البخاري في الحديث عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لي مِن رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حتَّى إذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلتُ له: زَوَّجْتُكَ وفَرَشْتُكَ وأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا! لَا واللَّهِ لا تَعُودُ إلَيْكَ أبَدًا، وكانَ رَجُلًا لا بَأْسَ به، وكَانَتِ المَرْأَةُ تُرِيدُ أنْ تَرْجِعَ إلَيْهِ، فأنْزَلَ اللَّهُ هذِه الآيَةَ: {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} [البقرة: ٢٣٢]، فَقُلْتُ: الآنَ أفْعَلُ يا رَسولَ اللَّهِ، قَالَ: فَزَوَّجَهَا إيَّاهُ[١].

{فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} الأجل هنا يختلف عن الأجل في الآية السابقة. فالمقصود بالأجل في الآية السابقة (اقتراب انتهاء العدة) ودليل ذلك أنه يجوز له أن يمسكها. أما المقصود بالأجل في هذه الآية (أن العدة انقضت بالفعل) ودليل ذلك أن لوليّ المرأة أن يمنع الرجل أن يتزوجها مرة أخرى، فدل ذلك على أن العدة انقضت وأن الأمر لولي المرأة.

وأيضًا في الآية دليل قوي يستدل به جماهير أهل العلم على (عدم جواز نكاح المرأة الثيب إلا بولي) فالله سبحانه منع الوليّ أن

---

(١) صحيح البخاري (٥١٣٠).

يعضلها أي يمنعها من الرجوع لزوجها، فدل ذلك على أن الأمر بيد الولي في نكاح الثيب، وذلك خلاف ما ذهب إليه أبو حنيفة من جوازه للمرأة الثيب أن تزوج نفسها.

وفي حديث معقل بن يسار أنه قال (كان رجلًا لا بأس به) فدل ذلك على أنه إذا علم الولي أن هذا الرجل سيحسن المعاشرة بالمعروف ويحافظ عليها فله أن يراجعها، وأما إذا وجد أنه ليس من مصلحة وليته أن يُرجعها لهذا الرجل فلا يُرجعها له.

{ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ} أي أن الذي يتعظ بالموعظة وبشرع الله ويترك إعضال المرأة التي تريد الرجوع إلى زوجها هو الذي يؤمن بالله واليوم الآخر.

{ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ} إشارة إلى أن رجوعها لزوجها أزكى وأطهر، فالله يعلم السر وخبايا الأمور، وإعضال المرأة مع رغبتها في الرجوع لزوجها قد يوقعها في الحرام عياذاً بالله.

{وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ} فهو سبحانه يعلم أن رجوعها في هذا الحال أزكى للنفس من أن تقع في محرم، وتزكية للقلب وأطهر من أن يتعلق بحرام؛ لأنه لو بان منها وبانت منه أصبحت محرمة عليه، فسبحانه يعلم ونحن لا نعلم؛ يعلم كيف تُزكى النفوس وكيف تطهر القلوب ودلّنا على كل خير.. فالأمر كله لله.

قوله تعالى: {وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ

أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾}.

{وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ} جملة خبرية بمعنى الأمر ولكن هل الأمر للاستحباب أم للوجوب؟ قال علماء الأصول: إن الأصل في الأمر الوجوب إلا أن يأتي صارف يصرفه من الوجوب للاستحباب.. فهل يوجد في هذا الموضع ما يصرفه من الوجوب للاستحباب، وبالتالي يُمكن القول بأن رضاعة الأم للولد على الاستحباب لا على الوجوب؟ الجواب: نعم؛ يُفهم هذا من سياق الكلام فقد جاء في الجملة التي تليها قوله سبحانه {لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} فدل ذلك على أن الأم ليست مُجبرة على الرضاعة إلا في حالة واحدة فقط وهي الخوف على الطفل من الهلاك إن لم ترضعه الأم (مثل عدم رغبته في لبن بديل،عدم وجود مرضعة أخرى).

{حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ} مدة الرضاعة التي يَثبُت بها التحريم والتي وردت في القرآن والسنة (سنتين كاملتين)؛ قال الحق سبحانه:{ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ.. ﴿١٤﴾} [لقمان]، وقال تعالى: { وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ

ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ ١٥﴾ [الأحقاف]، واستدل العلماء بهذه الآية على أن مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ**»[١]. *(فتق الأمعاء): أي وصلها ونما منه اللحم والعظم (هذا هو الذي يُحرِّم).

وَعَنْ مَسْرُوقٍ، أَنَّ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدِي رَجُلٌ، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ مَنْ هَذَا؟**»، قُلْتُ: أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ، فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ**»[٢].

*(انظرن) تأملن وتفكرن. * (فإنما الرضاعة) التي تثبت بها الحرمة. * (المجاعة) جوع الرضيع الذي يسده اللبن، ولا يكون ذلك إلا في الصغر، ومدته عامان لا أكثر.

وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ مَعِي امْرَأَتِي، فَحُصِرَ لَبَنُهَا فِي ثَدْيِهَا، فَجَعَلْتُ أَمَصُّهُ ثُمَّ أَمُجُّهُ، فَأَتَيْتُ أَبَا مُوسَى فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: حَرُمَتْ عَلَيْكَ. قَالَ: فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: مَا أَفْتَيْتَ هَذَا، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي أَفْتَاهُ. فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَخَذَ بِيَدِ الرَّجُلِ: «أَرَضِيعًا تَرَى هَذَا إِنَّمَا الرَّضَاعُ مَا أَنْبَتَ

---

(١) السنن الكبرى للنسائي(٥٤٤١)، صحيح ابن حبان(٤٢٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤٧).

اللَّحْمَ وَالدَّمَ». فَقَالَ أَبُو مُوسَى: لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ مَا كَانَ هَذَا الْحَبْرُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ(١).

الشاهد: أن كل الآيات والأحاديث السابق ذكرها تدل على أن مدة الرضاع هي عامان فقط.

مسألة إرضاع الكبير: جماهير العلماء من الصحابة وكبرائهم بما في ذلك جميع زوجات النبي ﷺ - ما عدا (أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها)- والفقهاء السبعة والأئمة الأربعة على أن الرضاع لا يحرم إلا ما دون السنتين (فلو أن امرأة أخذت طفلًا بلغ الثلاثة أعوام وأرضعته فإن هذا لا يُحرمه عليها)، فبعد السنتين لا يُحرم.

لم يقل بهذه الفتوى إلا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان ذلك في قصة سالم مولى أبي حذيفة: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: جَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ إِلَى النبي ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ دُخُولِ سَالِمٍ وَهُوَ حَلِيفُهُ، فَقَالَ النبي ﷺ: «**أَرْضِعِيهِ**»، قَالَتْ: وَكَيْفَ أُرْضِعُهُ؟ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ**». زَادَ عَمْرٌو فِي حَدِيثِهِ: وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي عُمَرَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ(٢).

{وَٱلْوَٰلِدَٰتُ} هل المقصود بالوالدات الزوجة أم المطلقة؟ ذهب

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٣٨٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥٣).

بعض أهل العلم إلى أن المراد في الآية الزوجة والمطلقة (وهذا القول مرجوح).

أما الراجح فهو: أن المقصود في الآية هي المرأة المطلقة التي لها ولد؛ لأنها هي التي يجب أن يُنفق عليها الزوج مدة الرضاعة؛ فالخطاب هنا مُوجه للمطلقات وذلك استنادًا لعدة أشياء منها:

- أن سياق الكلام كان يدور حول الطلاق (الآيات السابقة) فجاءت هذه الآية تتمة لما سبق، ثم جاء قوله سبحانه {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنّ} فلو كانت زوجة لما جاءت الآيات تحُثُّ الرجل على الكسوة والرزق وإعطاء الأجر على الرضاعة، فالزوجة لا تأخذ أجرًا على الرضاعة إذا كانت في حبال الزوجية، فلما عَيَّن لها في هذا الموضع من (أجر، رزق، كسوة بالمعروف) دلَّ هذا على أنها ليست زوجة؛ لأن هذه الأمور واجبة على الزوج حال قيام الزوجية (الإنفاق على الزوجة من قِبل الزوج واجب).

{حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} لماذا قُيدت لفظة (حولين) بكلمة (كاملين) وما دلالتها؟

- قد يقع التنازع بين الرجل والمرأة خاصةً في حال الطلاق فيُحدد الرجل للمرأة مدة الإنفاق على الطفل بعام مثلًا (حتى يتنصل من الإنفاق على الولد ورزقها وكسوتها) ومن ثمَّ عليها أن تفطمه بعد هذا العام، فلا ترضى المرأة بذلك.

- ومن أجل حسم هذا الصراع الذي يمكن أن يقع بينهما تدخل الشرع فنص على المدة بالتحديد {حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} فجاءت هذه الكلمة لتحسم تلك القضية التي قد تنشأ بسبب مدة الرضاعة.

{بِٱلْمَعْرُوفِ} فما المقصود؟ أي ما جرت عليه العادة؛ كمثيلاتها أو بما يجب لمثلها على مثله، ومن المعروف أن مسألة الإنفاق مسألة عُرفية، فكلٌّ بحسب (المستوى الذي يعيش فيه، بلده الذي يُقيم فيه، طريقة حياته) فلا إسراف ولا تقتير. قال الحق سبحانه: { لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧} [الطلاق].

{لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا} أي لا يضُر الرجل مطلقته بالرضيع؛ وذلك يكون بالضغط عليها وتهديدها بحرمانها من رضيعها (رؤية، إرضاع)، وهذا مما لا يجوز شرعًا، والله رقيب على العباد.

- وفي نفس الوقت {وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ} وكذا الحال بالنسبة للمرأة، فلا يجوز لها أن تضُر الرجل بالولد؛ فقد تُهدده بالامتناع عن إرضاع الطفل وذلك حتى تُضيق عليه وتُصعِب عليه الأمر، وهذا مما لا يجوز شرعًا أيضًا.

{وَعَلَى ٱلْوَارِثِ} فمَن هو الوارث؟ للعلماء فيما يخُص ذلك أقوال:

١- **قيل**: إن الوارث هو مَن يرث الأب.

٢- **وقيل**: إنه المولود نفسه.

٣- **وقيل**: إن الوارث هم العصبة.

والراجح من الأقوال هو: وارث الأب، فإذا مات أبو الرضيع فمَن الذي سيرِثُه؟ مَن يرثه هو الذي يجب عليه الإنفاق على الرضيع حتى تنتهي مدة الفطام، ولكن لماذا قيل إن هذا هو الراجح؟ لأن سياق الآية يقول {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} فبيَّن أن الوالد هو المُطالب بالرزق والكسوة. فإذا مات حل محله الورثة فيما كان مُطالبًا به (ومنها الإنفاق على الرضيع).

{مِثْلُ ذَٰلِكَ} علامَ تعود مثل ذلك؟ هل تعود على كل ما سبق ذكره من (رزق، وكسوة بالمعروف، وعدم الإضرار) أم أنها عائدة على الإضرار فقط؟ قول العلماء: إذا كان المقصود بالوارث هو وارث المولود له فإنه من المفروض أن يقوم مقامه؛ وهذا يعني أن (مثل ذلك) يُقصد بها كل ما كان على الوالد أن يقوم به فيتوجب على الوارث القيام به.

{فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا} وهذا يعني اتفاق الوالد والوالدة على فطام الولد قبل الحولين (قد يكون لبن الأم قليلًا، صحتها ضعيفة، أي سبب آخر) المهم أن مصلحة الرضيع تتطلب وقف الرضاعة، وهذا الاتفاق يكون في حدود عدم الإضرار بالرضيع.

سؤال: ماذا يحدث لو أن أحدهما تشبث برأيه؟

الجواب: لا يجوز للوالد أو الوالدة أن يفعلا شيئًا من شأنه الإضرار بالولد، فقد حجَّر الله سبحانه عليهما فعل ذلك، خاصة فيما يخُص الرضاعة؛ لأنها أمر واجب وحق للولد، فالواجب على الأم أن تُرضعه بالمعروف وبما ينفعه أو تبحث له عن مُرضعة تُرضعه بنفس الطريقة، فإذا خشي من وقوع ضرر عليه فعلى الأم جبرًا أن تُرضعه، كل هذا من قبيل التحجير على الوالدين حتى يقوما بتربية الولد أفضل تربية.

{وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} فإذا أراد الأب أن يأتي بمرضعة للولد غير الأم لأي سببٍ كان فعليه أن يُعطي لهذه المرضعة أجرها بالمعروف (كما هو مُتعارف عليه بين الناس) ويُمتنع عليه التفريط في حقها؛ لأنه لا تساهُل في حقوق العباد وفي نفس الوقت لا تفريط في أمر الرضيع.

{إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ} أي تسليم المرضعة الأجر الذي تستحقه.

{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} أمر بالتقوى.

{وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} تنبيه وتحذير فالأمر خطير، والبصير يعلم أحوال العباد ولا يخفى عليه شيء وسيُجازي عباده ويُحاسبهم يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ
بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ
فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ
عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن
تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ
أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ
تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ
مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن
تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ
أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ
ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

{وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ} التوفِّي بمعنى قبض الحق وافيًا، يقال: تَوفَّيت حقي منه؛ أي: قضيته وافيًا، والإنسان مُتوفًّى؛ لأنه يقضي أجله في الدنيا ثم تُقبض روحه، والبناء للمجهول لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يأمر بالتوفي قال سبحانه: {ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾} [الزمر]، ولكن الذي يقبض الروح هو ملك الموت والأعوان قال الحق سبحانه: {قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾} [السجدة].

{وَيَذَرُونَ} أي يتركون.

{أَزْوَٰجًا} جاءت بصيغة النكرة حتى تشمل الصغيرة والكبيرة؛ فالعدة تشمل كل امرأة صغيرةً كانت أم كبيرة.

{يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ} ينتظرن.

{أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} أي تمكُث أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: إن عشرة أُنِثَتْ مراعاةً لليالي؛ فالليلة لا تكتمل إلا باليوم، كما أن اليوم لا يكتمل إلا بالليلة، وقيل: إن العرب تُجري أحكام التذكير والتأنيث في أسماء الأيام.

سؤال: هل مدة العدة المنصوص عليها في الآية تشمل كل امرأة يموت عنها زوجها؟

لا. عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الشَّأْمِ، دَعَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ ﵂ بِصُفْرَةٍ فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ، فَمَسَحَتْ عَارِضَيْهَا، وَذِرَاعَيْهَا، وَقَالَتْ: إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا لَغَنِيَّةً، لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**»[(١)].

هذا دليل من الكتاب والسنة على تحديد تلك المدة، ولكن لدينا استثناء فلمَن هذا الاستثناء؟ وذلك للمرأة الحامل؛ فعدتها تنقضي عند وضع هذا المولود.. ودليل ذلك من القرآن: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق].

- وأما الدليل من السُّنة: عَنْ يَحْيَى، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ جَالِسٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ الأَجَلَيْنِ، قُلْتُ أَنَا: {وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: ٤]، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي - يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلاَمَهُ كُرَيْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا، فَقَالَتْ: «قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخُطِبَتْ فَأَنْكَحَهَا

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٠).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا»[١].

فبعد أن سمع ابن عباس قول أبي هريرة وابن أخيه أراد أن يتأكد فأرسل إلى أم المؤمنين أم سلمة فأكدت صحة قول أبي هريرة. فدلَّ على أن عدة المرأة الحامل تنقضي بالوضع طالت المدة أم قصُرت.

سؤال: المرأة التي طُلِقت طلاقًا رجعيًّا إذا تُوفي زوجها في فترة العدة هل تُعَد زوجة أم لا؟ وتلك الفترة هل تُحتسب عدة؟

الجواب: هي بالفعل زوجة وترثه، ومن الواجب عليها أن تقضي عدتها في بيت زوجها، ولكن عدتها تبدأ من تاريخ وفاته فلا يُحسب ما مر من وقت.

ولقد نقل ابن المنذر الإجماع على أن: الرجعية زوجة يلحقها الطلاق وينالها الميراث وبالتالي عليها العدة كغيرها من المطلقات. وكذا نقل القرطبي الإجماع على أن: الزوجة التي طلقها زوجها ولكنه ما زال يملك مراجعتها فتُوفي أثناء تلك العدة فعلى هذه الزوجة العدة ولها أن ترثه.

سؤال: المرأة التي توفي عنها زوجها ما الذي ينبغي عليها أن تقوم به شرعًا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٩).

الجواب: الواجب على المرأة أن تمكث في حالة حداد أربعة أشهر وعشرة أيام حسب (التقويم الهجري)، عليها أن تغتسل بـ (الصابون، الماء) من غير استخدام لأي عطور، وتمتنع عن الزينة بما في ذلك الكحل واستخدام الحنة والصبغة وارتداء الحلي والثياب الملونة (المُزركشة) داخل المنزل؛ وليس معنى هذا أن ترتدي السواد داخل المنزل، بل قد منع العلماء ارتداء السواد لأنه مصبوغ؛ ودليل ذلك: (عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ، قَالَتْ: «كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلاَ نَكْتَحِلَ، وَلاَ نَطَّيَّبَ، وَلاَ نَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْبُوغًا إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ، وَقَدْ رُخِّصَ لَنَا عِنْدَ الطُّهْرِ، إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا، فِي نُبْذَةٍ مِنْ كُسْتِ أَظْفَارٍ، وَكُنَّا نُنْهَى عَنِ اتِّبَاعِ الجَنَائِزِ»[١]. *ثَوْب عَصْبٍ: ما صُبِغ قبل نسيجه.

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} فإذا بَلَغَت الأجل؛ أي انقضت عدتها.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ} لمَن الخطاب هنا؟ الخطاب موجه لولي الأمر، فلا إثم عليك إذا ما خرجت من حالة الحداد بعد انقضاء الأجل.

بمفهوم المخالفة: أنه لولي أمر المرأة (بالرغم من أنها ثيب) أن يمنعها من الخروج من إحدادها أو ارتكاب محظور شرعي من محظورات الإحداد إذا لم تكن قد بلغت الأجل بعد؛ لأنه إن لم يمنعها

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٤١).

فسوف يطاله الحرج نتيجة فعلها.

{وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ} الله سبحانه يعلم كل شيء، وما من شيء إلا ويعلمه الله سبحانه.

قوله تعالى: { وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥}.

الآية تتحدث عن المرأة في فترة العدة؛ هذه العدة إما أن تكون:

١- عدة مَن توفي عنها زوجها. ٢-أو عدة المطلقة طلاقًا بائنًا.

فهاتان الحالتان هما فقط اللتان يمكن للرجل فيهما التعريض بالخطبة.

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ} رُفع الإثم والمؤاخذة عن الشخص الذي يُعرِّض لامرأة من أجل خطبتها أو الزواج منها وهي في فترة عدتها.

{عَرَّضۡتُم بِهِۦ} التعريض في الأصل يعني: إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه وجانب (وهو ضرب من ضروب المعاني) والتعريض ضد التصريح.

سؤال: ما الذي يمكن أن يُقال في شأنٍ كهذا؟

الجواب: هناك أثر لابن عباس أورده البخاري في قوله {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء} قال: التعريض أن يقول: (إني أريد التزويج)، أو (إني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها؛ يعرض لها بالقول بالمعروف) أو (وددت أن الله رزقني امرأة صالحة) كلام من هذا القبيل.. لكن لا يصرّح.

- قال بعض أهل العلم: من التعريض أن يقول (إنَّكِ عليَّ كرِيمَةٌ، وإنّي فِيكِ لَرَاغِبٌ، وإنَّ اللَّه لَسَائِقٌ إليك خيْرًا، أو نحو هذا)، هذه الكلمات وردت عن القاسم بن محمد، وهو من الفقهاء السبعة، ولكن في النفس شيء من هذا الكلام؛ لأن هذه الكلمات كلمات صريحة، وهو بذلك يُعارض نص الآية.

- أما كلمات ابن عباس فهي أولى وأقوى وأقرب لمعنى التعريض.

أدلة التعريض:

١- من الكتاب: هذه الآية التي نحن بصددها.

٢- أما الدليل من السنة فهو: كما جاء في صحيح مسلم: قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت (ابن أم مكتوم) وقال لها: «**فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي**»، فلما حلت خطب لها أسامة بن زيد مولاه

فزوجها إياه.

- وابن أم مكتوم هو ابن عم فاطمة بنت قيس، وكان رجلًا كبيرًا في السن وأعمى.

سؤال: هل تعتد المرأة في بيت الزوجية أم لها أن تعتد في أي مكان؟

المسألة فيها نزاع بين الصحابة رضوان الله عليهم محله كتب الفقه، ولكن:

١- جماهير العلماء (الفقهاء الأربعة) قالوا: إن عليها أن تعتد في بيت الزوجية.

٢- قول آخر: إنه يجوز لها أن تعتد في أي مكان؛ وذلك لعدم ثبوت حديث الفُرَيعَة.

{أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ} ما أضمرتم في أنفسكم، الكلام يتناول الحديث عن الرجل إذا كان من داخله يرغب في هذه المرأة ويُريدها (الزواج منها)، هذه الأمور الخفية يعلمها الله عز وجل؛ لأنه سبحانه يقول: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾} [النمل] وقال تعالى: {وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ.. ﴿١﴾} [الممتحنة].

{عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا} العطف هنا فيه نظم بديع مُعجِز فلماذا؟ لأن فيه استدراكًا دلَّ عليه الكلام؛ فالحق سبحانه يعلم أن العبد حين يعزم على شيء لا بُد أنه

سيتكلم عن هذا العزم إما تصريحًا أو تعريضًا، فانعقاد القلب على شيء (أي ليست خاطرة) والعزم عليه (وهذا يُحاسب عليه العبد) لا بُد أن يخرج، والله سبحانه علم أنه سيذكرها في نفسه، وهذا الذكر سيخرج إما تصريحًا أو تعريضًا، فلذلك أذن الله سبحانه وتعالى بالتعريض دون التصريح.

ولكن ما النُّكتة في ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾؟ أن الله علم من نفوس العباد أنه سيكون فيها هذا المعنى؛ أي ذِكْر المرأة المطلقة التي يرغب فيها، وهذا العزم سيكون بالتعريض أو التصريح. فأذِن بالتعريض دون التصريح لأنه حين قال ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ ثم عطف ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ كأنه أَذِن له نتيجة علمه به أن يُفصح عن عزمه الداخلي، فله أن يُعَرِّض دون أن يُصرِّح، فكانَ ذِكْرُ العِلْمِ في مِثْل هذا المَوْضع كِنايةً عن الإذْنِ.

﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ ما المقصود بذلك؟ أي لا تتزوجها سرًّا، أو تُصرِّح بكلام لا يجوز البوح به في هذه المدة بين رجل وامرأة مطلقة؛ فهي ليست زوجتك ولا يحق لك زواجها في هذه الفترة، ومن باب أولى لا يجوز أن تقع الفاحشة بينهما بحجة اقتراب انتهاء عدتها.

- وقيل فيها أيضًا: يَحْرُم الحد الأدنى من ذلك؛ فلا تأخذ عليها العهد والميثاق بعدم قبول أي شخص آخر يتقدم للزواج منها.

{إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا} (إلا) استثناء منقطع؛ لأن المواعدة سرًّا كلها حرام ولا تجوز، وبالتالي ليس فيها استثناء، أما (القول المعروف) فهو التعريض السابق ذكره.

ما هو حكم زواج رجل بامرأة قبل أن تنقضي عدتها؟

- عقد زواجهما باطل شرعًا، والواجب أن يُفسخ؛ لأن المفروض هو انتظار انقضاء فترة العدة، فإذا حُكِم ببطلان الزواج وفُسِخ العقد فعليها إكمال مدة عدتها المتبقية لها ثم تعتد عدة أخرى خاصة بهذا الزواج الفاسد.

مثال: امرأة تزوجت بعد مرور شهر من العدة، فهذا العقد باطل يجب فيه الفسخ، والواجب عليها بعد الفسخ إكمال المدة المتبقية لها إما الأربعة أشهر وعشرة للتي توفي عنها زوجها، أو الثلاثة قروء للمطلقة طلاقًا بائنًا بينونة كبرى، ثم تعتد عدة أخرى خاصة بهذا الزواج الفاسد.

سؤال: فإذا ما انقضت العدتان هل يجوز أن تتزوج من جديد بهذا الرجل (صاحب الزواج الفاسد)؟ هناك قولان للعلماء:

١- **لا يجوز**: وهذا قول أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنه في هذه الحالة عقابًا لهما؛ لا يتزوجا مرة أخرى (لا يتناكحان أبدًا)، وهذا نوعٌ من الزجر.

قاعدة في (أصول الفقه): مَن تعجل الشيء قبل أوانه عُوقب

بحرمانه.

- وهذا يعني: أن من تعجّل أمرًا يترتب عليه حكم شرعي قبل وجود أسبابه الصحيحة لم يفِدْه ذلك شيئًا، وعوقب بنقيض قصده، فمَن تعجل حقه وما أتيح له قبل وقته على وجه غير مشروع كان جزاؤه الحرمان.

٢- **يجوز:** وهذا قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ واستدل بأن الله سبحانه ذكر المحرمات في كتابه ولم يذكر هذا، كما أن النبي ﷺ لم يُحرم هذا، نعم زواجهما قبل انقضاء فترة العدة يأثما عليه وعقدهما باطل، بل وقيل: إن مهرها يذهب لبيت المال عقوبة لها.

لكن بعد كل هذه العقوبات وبعد انقضاء عدتها (مدتين) هل يُمنعان من الزواج مرة أخرى؟

- لا دليل على ذلك، ولكن الفاروق فعلها من باب التعزير والزجر حتى لا يفعلها أحد.

{وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ} لا يجوز أن تتزوج إلا بعد انقضاء العدة.

{وَٱعْلَمُوٓاْ} تنبيه لأن ما سيأتي ذكره هو أمرٌ هام.

{أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ} الحق سبحانه يعلم ما في النفوس وما تُخفي الصدور.

{فَٱحۡذَرُوهُۚ} الله سبحانه يُحذركم من نفسه.

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} فأي جمالٍ هذا؟ حيث الجمع بين التحذير الشديد والوعيد الأكيد من الله وفي نفس الوقت تُختم الآية {غَفُورٌ حَلِيمٌ} وقد سبق القول أن الآية إذا خُتمت بالحليم فلا بُد أن النص يتضمن شيئًا مَحرمًا سوف يقع؛ فالحلم يكون على المذنب والعاصي والمتجرئ.

ـ كما أن الختام {غَفُورٌ حَلِيمٌ} فيه تهدئة للنفوس بعدما حصل لها شيء من الرُّعب والخوف وهياج النفس. فالغفور الحليم يغفر الزلات والعثرات ويعفو، ولولا مغفرة الله ورحمته بنا لأصابنا العَنَت.

منزلة المراقبة: قال جلَّ ذكره: {يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩} [غافر]، مجرد النظرة يعلمها، وما تُخفيه الصدور يعلمه، وتلك هي مرتبة الإحسان التي علّمها النبي ﷺ لأمته (قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[(١)]. فيتحرك العبد من هذا المُنطلق وتلك القاعدة: أن الله يراه (الكلمة، النظرة،الحركة) ولو أن كل عبد وقف عند هذه الجملة فقط من الحديث لانتظمت الحياة واستقامت غاية النظم والاستقامة.

ـ أما الغافل عن هذه الأمور فلن يصل أبدًا في يوم من الأيام إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠).

أن يكون من عوام المؤمنين، فضلًا عن أن يكون من المتقين، فضلًا عن أن يكون من المقربين؛ لأن العلم بأن الله يراه ويسمعه ويعلم ما يخفيه وما يعلنه هي بداية البدايات.

قال أحد السلف: مَن راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه.

- **وقيل**: الرجاء يُحرك إلى الطاعة، والخوف يُبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق.

***فالرجاء**: يعلو بهمة العبد فيجتهد في الطاعة.

***والخوف**: يزجر العبد ويجعله ينكف عن المعصية.

***والمراقبة**: تجعله يصل إلى الحقيقة، حقيقة الكتاب والسنة، ومراد الله، وتبعده تلك الحقيقة عن الوقوع في البدع، ويُرزق العبد التوفيق من الله، كما أنه سبحانه يعصمه ويعصم جوارحه وخواطره من الوقوع في الزلل، ويقيه العثرات والطَّامات.

وقيل فيها: مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة.

قوله تعالى: {لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦}.

آية من الآيات التي تبيّن حُكم المرأة التي طُلقت قبل الدخول بها.

{لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} أي لا إثم على الرجل الذي طلّق امرأة عقد عليها قبل أن يمسها وقبل أن يفرض لها فريضة.

{تَمَسُّوهُنَّ} المسيس هنا من جهة الرجل.

*وهناك قراءة أخرى (تماسهن) يعني المساس من الطرفين كقوله تعالى {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا} في كفارة الظهار. هذه قراءة و هذه قراءة.

{مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً} (أو) هنا عاطفة على تمسوهن؛ لأن (أو) إذا وقَعَتْ في سياق النَّفْي تفيد مفاد (واو العَطْفِ) فتدلُّ على انْتِفاءِ المَعْطُوفِ والمَعْطُوفِ عَلَيْهِ مَعًا، فيكون المعنى {ما لم تمسوهن وتفرضوا لهن فَرِيضةًۚ}. فيكون المعنى هنا في الآية: إذا طلّق الرجل المرأة ولم يمسّها ولم يفرض لها فريضة فليس عليه جناح.

سؤال: هل المراد بالمسيس هنا الدخول أم مجرد إغلاق الباب؟

الجواب: جماهير العلماء على أنه إذا أغلق الرجل على المعقود بها الباب وليس معهما أحد فكأنه دخل بها حتى وإن لم يطأها، فإذا طلقها تأخذ حكم المطلقة المدخول بها.

*وهذا رأي جماهير العلماء من الصحابة ومن بعدهم من الخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم، والفقهاء الأربعة إلا الشافعي في الجديد قال: لا بُد من الوطء كي يثبت له حكم الدخول بها.

{أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ} أي لم يكن قد فرض لها مهرًا محددًا.

ففي هذه الحالة (لم يدخل بها ولم يحدد لها مهرًا) إن طلقها فليس عليه أي شيء؛ لا إثم ولا مهر، ولكن نرى جمال الشرع وكيف يَجْبر كسر نفوسهن ويحافظ على حق المرأة التي وقع عليها الضرر ليحكم لها بالمتعة.

{وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلْمَعْرُوفِ} بيَّن رب العالمين كيف يكون المتاع؛ فالغني ينفق من سعته وبما لديه من أموال كثيرة، والفقير أيضًا بما يستطيعه، وليس هناك تحديد بل قال تعالى {بِٱلْمَعْرُوفِ} فالباء هنا للمصاحبة: أي بما يقتضيه العُرف في البلد أو في المكان الذي يسكن فيه.

- وإن قام الغني بإجحافها ولم يكن لها قانون دنيوي يعاقبه، لكن أين سيذهب عندما تجتمع الخصوم في قنطرة المظالم عند الحَكَم العَدْل يوم القيامة!! فستأخذ حقها منه عند رب العالمين.

- لذلك يجب أن نتقي الله عز وجل، ونُعلِّم أولادنا تقوى الله وإعطاء الحقوق لأصحابها كما جاء في الشرع.

- كما دلّت {بِٱلْمَعْرُوفِ} أن الله سبحانه وتعالى أَمَرنا أن نأخذ بالعُرف؛ فقد وردت أكثر من آية تدل على أن العُرف له اعتبارٌ شرعيٌّ.

{حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ} (الحق) شيء ثابت لازم، فهي لها حق

ثابت ولازم في المتعة بنص القرآن، وهناك أثر لابن عباس في السنة: (إذا طلّق الرجل امرأته قبل أن يفرض لها وقبل أن يدخل بها، فليس لها إلا المتاع) والأثر صحيح عن ابن عباس.

- والحق الثابت اللازم يكون في أمرين: إما أن يكون في الأخبار وإما أن يكون في الأحكام؛ فإن كان في الأخبار فيقتضي الصدق، وإن كان في الأحكام فيقتضي العدل؛ فيجب عليه أن يتقي الله في نفسه، فإن أخبر فيجب عليه أن يخبر بالصدق (عن حاله وما تستحقه المرأة منه)، وإن حكم فعليه أن يحكم بالعدل.

*لذلك ختم الآية بقوله {حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ} فالمحسن الذي يخاف الله ويتقي يوم الحساب هو الذي سيقوم بهذا الحق، لذلك نبحث ونختار دائمًا لبناتنا التقيّ الذي يخاف الله فيهن.

قوله تعالى: {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾}.

حكم آخر للمرأة التي طلّقها زوجها قبل المسيس (أي قبل الدخول بها) ولكن كان قد فرض لها فريضة (مهرًا) أي حدّد لها مهرًا، سواء أعطاه لها أو اتفقوا مجرد اتفاق على مهر معين.. فإن طلّقها فلها نصف المهر، والآية واضحة في ذلك.

هل يكون للمرأة متعة؟ للعلماء قولان:

القول الأول: (لها متعة) لقوله تعالى {وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٤١} [البقرة] هنا إطلاق المتعة لكل مطلقة.

القول الثاني: (ليس لها متعة) استدلوا ببعض الآثار عن الصحابة، واستدلوا أيضًا بأن الله فرض لها في هذه الحالة (التي سُمي لها الصداق) نصف المهر، وفرض للثانية (التي لم يُسمَّ لها صداق) المتعة؛ فهذه حالة وهذه حالة.

- أيضًا استدلوا بأثر ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لكل مطلقة متعة، إلا التي طلقها ولم يدخل بها، وقد فُرض لها، فلها نصف الصداق، ولا متعة لها).

والترجيح أن المطلقة التي لم يدخل بها وسُمي لها مهرًا فلها نصف المهر وليس لها متعة؛ وذلك لأثر ابن عمر وبعض آثار الصحابة والتابعين.

{إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ} أي إلا أن تعفو المرأة عن حقها في نصف الصداق، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح.

هل الذي بيده عقدة النكاح الوليّ أم الزوج؟

- قولان للعلماء؛ وكلٌّ منهم معه أدلة قوية (سيطول المقام في

ذكرها) لكن ما تميل إليه النفس أنه (الزوج)؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال بعدها {وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ} ثم {وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ} فالعفو إما سيكون من جانب الزوجة (بأن تترك حقها في نصف الصداق)، أو يكون من جانب الزوج (فيترك لها المهر كاملًا) وهذا الذي بيد الزوج أن يعفو فيه وليس هذا من حق الولي، لذلك تميل النفس إلى أن مَن بيده عقدة النكاح المراد به الزوج، والله تعالى أعلى وأعلم.

{وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ} الخطاب هنا للجميع سواء كانوا رجالًا أو نساءً؛ أي أن تتسامحوا في الحقوق بينكم أقرب إلى التقوى، لكن هل معنى هذا إن لم يعفُ الشخص فلن يكون تقيًّا، أو بمعنى آخر هل أَخْذ الحق يُنافي التقوى؟

- التمسك بالحق لا ينافي التقوى؛ ومعنى كون العفو أقرب للتقوى أي أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك المفرط بالحق يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، أما العفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته؛ فالقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد.

{وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ} تذييل ثان، معطوف على التذييل الذي قبله {وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ} لزيادة الترغيب والتشجيع والتحفيز لحب الفضل والعفو بما فيه من التَّفَضُّل الدُّنْيَوِيّ، فلا تشاجر ولا تشاحن، بل نسامح ونعفو حتى نجد من يعفو عنا،

فالجزاء من جنس العمل، وحتى يرضى الله سبحانه وتعالى عنا.

{إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ} الله سبحانه وتعالى بصير بالعباد، وهو تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل، وتَعْرِيضٌ بِأَنَّ في العَفْوِ مَرْضاةُ اللَّهِ تَعالى، وأنه سيجازينا بأعمالنا الحسنة، وهو يَرى ذلك منّا فيُجازِي عليه خير الجزاء؛ فسبحانه وتعالى هو الشكور.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ
وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ
فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى
ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ
أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ
بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ
وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣
وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ
ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥ ﴾

الآيات السابقة لهذه الآيات كانت في الطلاق والرضاع والعدة والمهر والمرأة المدخول بها والغير مدخول بها والمختلعة...إلى غير ذلك من تلك الأحكام.

ثم جاء الكلام عن الصلاة فكانت هذه الآية معترضَة، ونعلم أن ترتيب الآيات هو أمر توقيفي من الله عز وجل، **فما علاقة الصلاة التي هي حق الله سبحانه وتعالى بهذه الأحكام؟**

١- **المناسبة لفظية بلاغية عظيمة جدًّا**؛ فبعد أن طال الحديث عن أحكام النساء أراد رب العزة أن يعيد انتباه الشخص مرة أخرى بآية معترضَة بين أحكام الطلاق والعِدَد؛ فسيأتي بعد ذلك أيضًا تتمة الأحكام.

٢- **وقيل أيضًا: لأن الصلاة مُعينة على التقوى**؛ فهي من أقوى العبادات التي يُستعان بها على تنفيذ أوامر الله عز وجل وتنفيذ الأحكام الشرعية؛ قال تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ.. ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت] فكل من أقام الصلاة (على الوجه الذي يُرضِي الله) انتهى عن الفحشاء والمنكر؛ بما في ذلك كل النواهي والزواجر التي نَهَى الله عنها في أحكام العِدَّة والطلاق، فإن أقام الصلاة فإنه بذلك يكون صاحب تقوى وخوف من الله عز وجل، فينفذ الأحكام كما أمر الله عز وجل.

٣- **وقيل: الإشارة إلى العناية بالصلوات حتى وقت الانشغال:**

بكثرة المشاكل والخلافات وتنوّع الأحداث التي غالبًا ما تقع مع أحكام الطلاق والعِدّة والخُلْع؛ فقد يغفل الإنسان مع كل هذا الشتات عن إقامة الصلاة.

{حَٰفِظُواْ} قال الله سبحانه وتعالى (حافظوا) ولم يقل (احفظوا): لأن (حافِظ) تعني المحافظة على الشيء بمعنى العناية به والملازمة له؛ بمعنى أن الإنسان يكون دائمًا محافظًا عليها، فهي أبلغ في المعنى من (احفظ).

{حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ} الصلاة في اللغة: الدعاء. وفي الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم؛ أي: حافظوا على الصلوات كلها والصلاة الوسطى.

{وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ} المراد بها صلاة العصر، والدليل على ذلك: عن علي بن أبي طالب: أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ يَومَ الخَنْدَقِ: «**حَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى حتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وبُيُوتَهُمْ، -أوْ أجْوَافَهُمْ- نَارًا**»[1]. وواو العطف في قوله {وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ} للمغايرة، وليست للتفسير؛ فالصلاة الوسطى ليست تفسيرًا للصلوات.

*وعطف المغايرة هنا عطف مغاير بالصفة وليس بالذات؛ لأن

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٣٣).

صلاة العصر لها صفة ومنزلة خاصة.

- فصلاة العصر لها أهمية عظيمة، ولها فضل كبير؛ قال رسول الله ﷺ: «**يتعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ باللَّيْلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهَارِ، ويَجْتَمِعُونَ في صَلَاةِ الفَجْرِ وصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وهو أعْلَمُ بهِمْ: كيفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فيَقُولونَ: تَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ**»[(١)].

- وهناك ترهيب من ترك صلاة العصر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**مَن تَرَكَ صَلَاةَ العَصْرِ فقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»[(٢)]. وقال: «**مَنْ فَاتَتْهُ العَصْرُ، فَكَأنَّما وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ**»[(٣)].

وهناك إشكال قد يحدث للبعض عندما يقرأ حديثًا ورد في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي يُونُسَ مَوْلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهُ قَالَ: أَمَرَتْنِي عَائِشَةُ أَنْ أَكْتُبَ لَهَا مُصْحَفًا، قَالَتْ: إِذَا بَلَغْتَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَآذِنِّي: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} [البقرة: ٢٣٨] قَالَ: فَلَمَّا بَلَغْتُهَا آذَنْتُهَا، فَأَمْلَتْ عَلَيَّ: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) ثُمَّ قَالَتْ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٥).
(٢) صحيح البخاري (٥٥٣).
(٣) صحيح مسلم (٦٢٦).
(٤) صحيح مسلم (٦٢٩)

فهناك من استدل بالحديث للقول بأن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر. فكيف يكون توجيه العطف في قول (حَافِظُوا علَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى وَصَلَاةِ العَصْرِ)؟ أُجيب عن ذلك بتوجيهين:

التوجيه الأول: أن تكون الواو زائدة (والزائد في القرآن بمعنى التوكيد والإيضاح والبيان).

التوجيه الثاني: أن تكون من باب عطف صفات على صفات وهما لشيء واحد؛ فيصف الصلاة الوسطى على أنها صلاة العصر.

{وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ} (لله) يصح أن تكون اللام:

- إما للتعليل؛ أي قوموا لأجل الله، وإذا كانت للتعليل فإنها تحتمل معنيين:

*إما (قوموا ممتثلين لأمر الله).

*أو (قوموا تعظيمًا لله جل في علاه) وهو أحق من يستحق أن يُعَظَّم!

- وقيل: اللام للاختصاص؛ أي قوموا مخلصين لله فهو وحده مَن يستحق العبادة والإخلاص.

(وكل هذه معانٍ صحيحة ولا يناقض بعضها بعضًا).

{قَٰنِتِينَ} القنوت يطلق على الخشوع وهو السكون تعظيمًا لمن

قنت له؛ فهو حالة من حضور القلب وسكون الجوارح؛ ولذلك يُنهى في الصلاة عن كثرة الحركة؛ لأن ذلك يُذهب بخشوع القلب.

*واستدل العلماء بهذه الآية على أن القيام في الصلاة ركن من أركانها؛ فتبطل الصلاة لمن تركه عامدًا مع القدرة.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

تَفْرِيعٌ عَلى الآية السابقة؛ فقد ذكرت الآية السابقة صفة الصلاة والخشوع فيها، ولكن هناك بعض الأوقات (كالحرب وملاقاة العدو مثلًا) قد لا يستطيع العبد أن يأتي بتلك الصفة.. فرحمة من الله بعباده ولطفه بهم أجاز لهم صفة أخرى.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ هناك محذوف في الآية يمكن تقديره (فإن خفتم عدم القدرة على الصلاة بهذه الصفة التي جاءت في الآية السابقة ﴿وقوموا لله قانتين﴾ وكنتم في حرب أو في ساحة قتال أو وُجد ما يمنعكم من أداء الصلاة فَرِجَالًا أو رُكبانًا).

﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (الرجال) جمع رَاجِل أي ماشيًا و(ركبانًا) أي راكبًا دابته؛ فأسقط عنه القيام والقنوت، ولكن لم تسقط الصلاة أبدًا، فحتى في الحرب والخوف لا تسقط الصلاة.

*والآية دليل على وجوب صلاة الجماعة؛ لأن صلاة الجماعة لم تسقط في صلاة الخوف في حالة الحرب وملاقاة العدو كما فعل

النبي ﷺ، فما بال المقيم الآمن!!

{فَإِذَآ أَمِنتُمۡ} أي فإذا زال الخوف عنكم (العدو،.. غيره) فيجب عليكم العودة إلى الصفة التي أمركم الله بها من القنوت والقيام.

سؤال: مع الخوف قال تعالى {فَإِنۡ}، ومع الأمن قال تعالى {فَإِذَآ} فلماذا؟

الجواب: لأن (إن) قد تتحقق وقد لا تتحقق، أما (إذا) فتفيد التحقيق؛ وهذه بشارة من الله للمؤمنين بقدوم الأمن والأمان والنصر.. وقد كان.

{فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ} في الصلاة وخارج الصلاة.

{كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ} (كما): **قيل في الكاف:** إنها للتشبيه: أي اذكروهُ ذِكْرًا يُشابِهُ ما مَنَّ بِهِ عليكم مِن النِّعَم من علوم الشريعة وتفاصيل الآيات وبيان الأحكام والعلم الذي تستقيم به الدنيا والآخرة، فهي نِعَمٌ فوق نِعَمٌ.

* والمَقْصُودُ مِنَ المُشابَهَةِ المُشابَهَةُ في التَّقْدِيرِ الِاعْتِبارِيِّ، أيْ أنْ يَكُونُ الذِّكْرُ بِنِيَّةِ الشُّكْرِ عَلى تِلْكَ النِّعْمَةِ والجَزاءِ؛ لأننا مهما فعلنا فلن نوفي شكر نعم الله علينا كما يليق بجلاله، ولكن نشكر على قدر الاستطاعة البشرية.

وقيل: للتعليل: والتَّعْلِيلُ مُسْتَفادٌ مِنَ التَّشْبِيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

ذكرت الآيات السابقة أحكامًا كثيرة متعلقة بالمرأة من: (طلاق، ونكاح، وعِدة، ومهر، وأحكام خلع،...) ثم خُتمت الأحكام بهذه الآية.

وهذه الآية للعلماء فيها قولان:

١- **القول الأول (وهو لجماهير العلماء):** أن هذه الآية (منسوخة) بقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فقد كان الحكم في بداية الإسلام أن تَعْتَدّ المرأة إذا مات عنها زوجها سنة كاملة، ويحرم على الوارث أن يخرجها من بيت الزوجية، فتبقى لها النفقة والسُّكنى لمدة سنة مع التزامها بالطبع بشروط العِدة التي ذكرناها من قبل.

وأيضًا هي مُخيرة بين أمرين:

-إما أن تعتد لمدة سنة ولها النفقة والسُّكنى ولا يحق للوارث أن يخرجها من بيتها، ولا أن يمتنع عن الإنفاق عليها، وهي في هذه الحالة ليس لها ميراث، وكان هذا الأمر في بداية الإسلام.

-وإما إن أرادت الخروج فلها أن تخرج لقوله تعالى ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي لا إثم على أولياء الميت ولا عليهن إن أرادت الخروج قبل إكمال

العام أن تخرج، لكن من شروط ذلك:

ألا تأتي بمنكر ينافي شروط العدة وشروط الإحداد (لا كحل ولا زينة ولا عطور ولا ذهب..كما بيّنا في أحكام العدة) وأيضًا لو خرجت سقط حقها في السُّكنى والنفقة.

كانت المرأة في الجاهلية قبل الإسلام عندما يموت الزوج تدخل في شَرِّ بيتها (أسوأ مكان في البيت) وتحبس نفسها فيه لمدة عام كامل لا تغتسل ولا تتطيب ولا تقلِّم أظافرها فتبقى هكذا لا تتطهر! فإذا انتهت السنة تخرج وتأخذ بَعْرة وترمي بها أول كلب يمر بجانبها!! فهذه إشارة انتهاء مدة العدة!! وجاء الإسلام فجعل العِدة لمدة سنة ولكن نسخت عند جماهير العلماء.

- **فأما النفقة والسُّكنى:** فبعدما كانت لها من مال الزوج، أصبح لها ميراثٌ؛ فنسخت بآيات المواريث؛ فأصبح لها (الرُّبع إن لم يكن للزوج أولاد، أو الثُّمن إذا كان لديه أولاد).

- **وأما العِدة:** فبعدما كانت سنة كاملة أصبحت أربعة أشهر وعشرة (عند جماهير العلماء).

- ودليلهم في ذلك حديث رواه البخاري: عن عبد الله بن الزبير قُلْتُ لِعُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} [البقرة: ٢٤٠]، قَالَ: قدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخْرَى. فَلِمَ تَكْتُبُهَا أوْ تَدَعُهَا؟

قَالَ: يا ابْنَ أخِي، لا أُغَيِّرُ شيئًا مِنْهُ مِن مَكَانِهِ[١].

***الشاهد:** أن (عبد الله بن الزبير) يعلم أن الآية منسوخة، وأقرّه على ذلك عثمان بن عفَّان.

٢- **القول الثاني:** ذهب مجاهد (وهو إمام المفسرين من التابعين) أن هذه الآية (محكمة) وليست منسوخة؛ فقد أخرج البخاري أثرًا لمجاهد قال فيه: (دلت الآية الأولى وهي {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها. ودلّت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول، وأن ذلك من باب الوصية للزوجات أن يُمَكَّنَّ من السُّكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا ولا يمنعن من ذلك لقوله: {غير إخراج}) أي أن الآية لا نسخ فيها؛ فمدة الأربعة أشهر وعشر هي العِدّة المفروضة عليها عند أهل زوجها، ثم جعل الله لهن - وصية منه وإكرامًا للزوجة - سُكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة (تمام الحول).

*واستدل مجاهد على قوله بقول الله تعالى {غَيْرَ إِخْرَاجٍ} فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل إن كانت حاملًا - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يُمْنَعْنَ من ذلك لقوله {فَإِنْ خَرَجْنَ}.

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٣٠).

- ومن المفسرين مَن وافق هذا القول ومنهم ابن كثير وقال (وفي اللفظ مساعدة له) كما اختاره بعض العلماء، لكن على الرغم من اجتهاد مجاهد وتفصيله للأمر إلا أن أثر عثمان الذي أورده البخاري واضح وصريح في أن هذه الآية (منسوخة).

كما ورد حديث آخر عن النبي ﷺ: جاءَتِ امْرَأَةٌ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ ابْنَتي تُوُفِّيَ عَنْها زَوْجُها، وقَدِ اشْتَكَتْ عَيْنُها، أفَنَكْحُلُها؟ فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**لَا**»، مَرَّتَيْنِ، أوْ ثَلاثًا، كُلَّ ذلكَ يقولُ: «**لَا**»، ثُمَّ قالَ: «**إنَّما هي أرْبَعَةُ أشْهُرٍ وعَشْرٌ**»(١).

*الشاهد أن النبي ﷺ أكّد نَهْيَه، وأنَّه لا يَجوزُ للمرأة التزيُّنُ -ومنه الكُحلُ- حتَّى تمضي مُدَّةُ الإحداد الكاملة التي هي بنص الحديث (أرْبَعَةُ أشْهُرٍ وعَشْرٌ)

{وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ختم الآية بقوله (عزيز) أي لا غالب له، ولا يُنال جنابه، فهو عزيز ذو قدرة لا يناله سوء، عزيز في ملكه وفي قوته وفي كل شيء.

و(العزيز) من أسماء الله الحسنى التي تدل على كل هذه الصفات التي ذكرناها وأكثر.

و(حكيم) في تدبيره وشرعه وقدره؛ وقد فصّلنا في هذا الأمر سابقًا.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٨٨).

قوله تعالى: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾}.

ختم الله عز وجل أحكام النكاح والطلاق وكل ما يتعلق بهذه المسألة، وبيّن أنه لكل مطلقة مُتعة من جهة الزوج بقدر إمكانيات الزوج، وعليه أن يتقي الله في ذلك بحسب إمكانياته.

- وقد جعل الله لها هذا جبرًا لوحشة الفراق؛ فالطلاق فيه كَسْر لقلب المرأة مهما كانت قوية أو غنية، سواء أظهرت ذلك أو لم تظهره، فيُفرض لها متعة جبرًا لما وقع في قلبها من الفراق!! وأما المهر فهو حقّ البضع (أي حق أنه استمتع بها). فالله يعلم ما في النفوس وما يدور في عقول البشر ويعلم ما يصلحهم ويفسدهم، بل ويجبر خاطرهم.. سبحان الله!

بعض أهل العلم استدل بهذه الآية على أن (كل مطلقة لها متعة سواء دخل بها أو لم يدخل بها، سواء سمى لها مهرًا قبل الدخول أو لم يُسمِّ لها مهرًا قبل الدخول، فكل مطلقة لها متعة استدلالًا بهذه الآية؛ لأن اللفظ فيه إطلاق.

- فريق آخر من أهل العلم قال: (كل مطلقة لها متعة لكن يستثنى منهم التي طلقت قبل المسيس وقد سُمي لها مهرًا) كما بيّنا من قبل في الآيات السابقة.

- هذان قولان للعلماء والله تعالى أعلى وأعلم.

{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} أي أن هذا الحكم حق واجب على المتقين لله

تعالى؛ لأنه لن ينفِّذ هذه الأحكام إلا الشخص الذي يتقي الله سبحانه وتعالى بامتثال أمره واجتناب نهيه.

- وذلك لأن المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والخُلْع وكل هذه الأحكام التي مرّت قد يحدث بها بعض التلاعب؛ قد يكون من جانب المرأة (مثل إخفاء العِدَّة أو التدليس.. إلى آخره) وقد يكون من جانب الرجل أيضًا (مثل ادّعاء الفقر وهو غني) فإن لم يكن هناك تقوى فلن يكون هناك ضبط في مثل هذه الأمور.. فيحدث ما يحدث، وهذا للأسف ما نراه الآن من مثل هذه الأمور لعدم الالتزام بالتقوى في تنفيذ شرع الله في إقامة مثل تلك الحدود.

قوله تعالى: {كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾}.

بيّن الله سبحانه وتعالى الأحكام السابقة بيانًا شافيًا وافيًا لكل سائل. وكأن البعض يتساءل: هل من الممكن أن يُبيّن الله لنا كل هذه الأحكام على هذا المنوال؟! يقينًا نعم.

{كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ} (كذلك) كاف تشبيه؛ أي كما بيّنا هذه الآيات على هذا المنوال الرائع والنظم البديع والآيات البينات الواضحات فكذلك سنبيّن لكم كل الآيات لعلكم تعقلون.

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} لأن الله له الحكمة البالغة، وهو المحيط بكل شيء بيّن آياته الكونية والشرعية لعلكم تكونوا في حالة من التفكر

والتأمل لهذه الآيات فتعقلونها وتدركونها وتعرفون أن هذا الدين لله تبارك وتعالى.

- فأي عاقل سليم النفس من الآفات والهوى، قلبه سليم؛ يقينًا سيركن ويمتثل لأمر الله، وكل من أعرض عن شرع الله - سواء كان من المسلمين أو غير المسلمين- فهو فاقد لشيء: إما أن يكون صاحب هوى، أو آفة ضربت نفسه فأصبحت غير سويّة، أو بقلبه مرض.. لكن من المستحيل لإنسان سويّ يرفض شرع الله!! شرع الله الذي هو في غاية العظمة، وبه من الآيات التي بيّنها الله سبحانه وتعالى لنا في كل صغيرة وكبيرة، والتي تدل على إحاطة الله سبحانه وتعالى بالعباد وعِلمه بدقائق الأمور وخبايا النفوس فيشرع لنا الشريعة التي تتناسب مع هذه النفوس والعقول حتى تستقيم على الوجه الذي يرضي الله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

الآن ننتقل إلى أمر آخر مختلف عن الطلاق والنكاح...قصة قال عنها جماهير أهل العلم وأكثر المفسرين أنها في بني إسرائيل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ ألم: الاستفهام الذي دخل على النفي في هذه الآية يُراد به التقرير والتعجب والتذكير... فلماذا؟

لأن هذه القصة كانت مشهورة ومعروفة لذلك جاءت بصيغة التقرير مثل قول الله تعالى في سورة الشرح {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١}. وفى سورة الفيل {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١}... استفهام بعده نفي بغرض التقرير.

فشبّه حال مَن لم يرَ بحال مَن رأى وذلك لشهرة القصة، كما جرى الكلام مجرى مَن يرى للمبالغة أيضًا في أن القصة مشهورة ومعروفة عن هؤلاء.

{ٱلَّذِينَ} المقصود هم أهل القرية.

{خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ} ما السبب الذي جعلهم يفِرّون من ديارهم؟ هل فَرّوا من وباء أم من عدو؟ للعلماء قولان:

١- **فريق من العلماء قال: (فرّوا من وباء):** ودليلهم أن الله سبحانه وتعالى لم يقل (حذر القتال، الجهاد، أو ما شابه) لكن قال تعالى (حذر الموت).

قال النبي ﷺ: «**إذا سَمِعْتُمْ بالطَّاعُونِ بأَرْضٍ فلا تَدْخُلُوها، وَإذَا وَقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بها فَلَا تَخْرُجُوا مِنْها**»[(١)].

فائدة:

فقد بيّن لنا النبي ﷺ فقه هذه المسألة وحال الإنسان حال نزول

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨).

الوباء أو الطاعون أو أي شيء مثله؛ فإن وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا منها؛ فلا يهرب من قدر الله، والعكس أيضًا فلو سمع بمكان به طاعون أو وباء فلا يدخل فيه، وهذا من باب الأخذ بالأسباب؛ فينبغي الجمع بين العمل وبين الإيمان بالقدر.

- فينبغي للمسلم أن يفهم عقيدته فهمًا صحيحًا؛ فالأخذ بالأسباب لا يجعلني أعتمد على الأسباب، وفي نفس الوقت فالإيمان بالله وبقَدَرِ الله لا يجعلني أترك الأخذ بالأسباب، هذا هو التوازن الذي ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن سليم العقيدة.

٢- **وقال فريق آخر من العلماء: (فرّوا من قتال العدو)**: ودليلهم قول الله تعالى بعد هذه الآية {وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} وكأنه تعريض من الله لهؤلاء الذين خافوا وفرّوا من مواجهة العدو في ساحة القتال فلا يفعل المسلمون مثل هؤلاء.

{فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ} عطف على مُقَدَّر يستدعيه المقام؛ وهذا المقدر هو (فماتوا) فالمعنى (فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم).

- وقيل: حُذف هذا المقدر للدلالة على الاستغناء عن ذِكْرِه أصلًا؛ لأن أمر الله الكوني وإرادته ومشيئته واقعة لا محالة - وهذا بخلاف الإرادة الشرعية التي يحبها الله ويرضاها والتي قد تقع وقد لا تقع - إذًا لم تذكر كلمة (فماتوا) لأنها يقينًا ستحدث؛ فهي أمر الله

الكوني، فلا داعي لذكرها؛ لأنها واقعة لا محالة. إذًا المعنى: فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم.

{وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ} أعداد كبيرة جدًّا خرجت فرارًا من هذا الشيء (وباء أو عدو)، ولم يأتِ دليل من الكتاب أو السنة بالعدد تحديدًا لكن دّلت الآية على أنهم أعداد كثيرة.

{إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ} أي صاحب فضل عظيم على الناس.

والكلام هنا في سياق الفضل قد يتعجب منه الإنسان؛ فما وجه الفضل هنا؟

- **قيل**: لأن الآية بها إثبات للبعث والميعاد؛ فبعِلم الإنسان بهذا البعث ثم بعمله تكون نجاته من النار.

- **وقيل**: تشجيع الناس على القتال في سبيل الله وعدم الفرار من قدر الله؛ فالجهاد في سبيل الله - بالضوابط الشرعية المعروفة عند العلماء- من أعظم الأعمال التي ينال بها أعلى الدرجات في الجنان.

- **وقيل**: تفضّل الله عز وجل عليهم بإحيائهم بعد مماتهم؛ فأعطاهم الفرصة مرة أخرى للقيام بالأعمال الصالحة والاستغفار من الذنوب، وفي نفس الوقت يُذكِّر الناس بعظيم قدرته سبحانه وأنه على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء، خاصة بأمور البعث التي كان ينكرها مشركو العرب ولا يؤمنون بها، فأراد الله أن يُبيّن لهم

كل هذه الأمور.

{وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ} كُررت في أكثر من موضع في القرآن؛ أي قليل من الناس الشكور الذي يعرف النعمة ويُقرّ بها ويشكرها {وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ} بل أكثر الناس على الجحود والإعراض على الرغم من فضل الله عليهم.

قوله تعالى: {وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾}.

{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} عند جمهور المفسرين الآية خطاب لأمة محمد ﷺ أن يقاتلوا في سبيل الله، والذي يخرج في سبيل الله حقًّا يجب أن تكون غايتُه ونيَّتُه مِن قتاله إعلاء كلمة الله تعالى، فلا ينبغي أن يخرج رياءً ولا سمعة ولا غضبًا ولا رَغبةً في الانتقام والثَّأرِ مِن العَدُوِّ إلا مَنْ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُلْيا، فذلك القتال في سبيل الله الذي ينال به المجاهد في سبيل الله هذه المنزلة العظيمة والدرجة الرفيعة.

- وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى في الحديث: عن أبي موسى الأشعري قالَ: قال أَعْرَابِيٌّ للنبيّ ﷺ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، والرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ، ويُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، مَن في سَبيلِ اللَّهِ؟ فَقالَ: «**مَن قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»[(١)].

---

(١) صحيح البخاري (٣١٢٦).

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} فيها حث على القتال وتحذير من التخاذل وترك الجهاد، فلماذا؟ لأن الله عز وجل يذكرهم بأنه محيط بكل الأمور؛ يعلمها ولا يخفى عليه شيء من أمرنا، يعلم الظاهر والباطن، ويعلم نوايا كل مَن تخاذل عن الجهاد وتركه.

- ففي الآية تعريض بالوعد والوعيد؛ فأما الوعد فلِمَن يخرج في سبيل الله ليجعل كلمة الله هي العليا، ويضحّي بنفسه وماله وبيته وعياله، فالله وعده بما أعدّه الله للمجاهدين والشهداء من المنازل والدرجات الرفيعة، وأما الوعيد فلِمَن يتخلّف ويركن إلى الدنيا فالله سبحانه وتعالى يعلم هذا أيضًا.

لماذا تقدم اسم (السميع) على (العليم)؟

قيل: لأن القتال وأحوال الجيش والخروج لميدان القتال كلها أمور بها حركة، وأصوات السيوف والخيول... فالله سبحانه يسمع كل هذا، حتى نوايا المقاتل الخفية يسمعها ويعلمها.

قوله تعالى: { مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾}.

صدّر الله تبارك وتعالى الآية بألطف أنواع الخطاب؛ وموضع اللطف أن الاستفهام جاء متضمنًا لمعنى الطلب، وذلك أبلغ من صيغة الأمر فقال تعالى:

{مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا} أي: مَن الذي سيبذل لله

القرض الحَسَن فيعطيه الله أضعافًا كثيرة.

- وإضافة القرض إلى الله جل في عُلاه إضافة تشريف وتحفيز وحثّ للنفوس على البذل في سبيل الله، وذلك مثل ما جاء في الحديث القدسي: «**إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يَا رَبِّ كيفَ أعُودُكَ؟ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ، قالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟..**»(١).

*هنا أيضًا إضافة تشريف؛ لأن الله سبحانه وتعالى يستحيلُ عليه المَرضُ - حاشاه - فالمرض صفةُ نقْصٍ، واللهُ سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عَنْ كلِّ نقص، ولكن ذلك من باب حث النفوس على العمل الذي جاء في النص.

- وأيضًا طلب القرض في هذه الآية لما هو تَأْنِيبٌ وتَقْرِيبٌ لِلنّاسِ بِما يَفْهَمُونَ. فالله هو الغني الحميد؛ فأما التأنيب: فلتعليم النفوس أن ما تنفقه لن يضيع عند الله عز وجل، ولن يضيع هباءً فهو عند الله، وأما التقريب: فلتقريب المعنى للأذهان؛ لأن الناس تفهم لغة التجارة والقرض والسداد... والتداول بينهم يكون بهذه المصطلحات..فتتضح لهم الصورة أكثر.

سؤال: لماذا سُمي الإنفاق والبذل لله قرضًا؟

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٩).

الجواب: لأن الباذل للمال أو للعطاء عندما يعلم أن هذا الذي أخرجه لله سوف يعود فإن ذلك يُسهل على النفس البذل في سبيل الله، فإن علم عن هذا الشخص الذي اقترض منه أنه شخص محسن وجواد وكريم وغني ويوفِّي أي دين فإن النفس ستكون أطيب وأسمح لها أن تخرج المال، وأيضًا لو علم أن الذي اقترض سيتاجر له في هذا المال وسيُعيد له المال أضعافًا كثيرة فسيكون ذلك أعظم وأعظم للبذل!!

- وإذا كان الباذل للمال فوق كل هذا يعلم أن المستقرض لن يعيد له المال المبذول ويضاعفه له فقط... بل سيعطيه عطاءً آخر خلاف القرض الذي اقترضه منه!! فأي شخص عاقل على وجه الأرض لو تأكد أن هذه الصفقة ستتم بينه وبين شخص مثله فلن يتردد لحظة في أن يعطي له المال!!! ولن يتخلف عن هذا إلا شخص ناقص العقل ضعيف البصيرة، غطّى الشح والبخل قلبه وعقله فلم يعد يرى، انعدمت ثقته في الضامن!! وهذا للأسف يحدث مع كل من يبخل ويمتنع عن البذل في سبيل الله.

الصحابة الكرام كانت لديهم قلوب ومفاهيم عجيبة سبحان الله في هذا الأمر: عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ**» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا

رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ**» قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا[(١)].

*ومعنى الحديث أن هناك رجلًا ذهب إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله فلان يَمتَلِكُ نخلة وأنا لدي جدار؛ وهذا الجدار كأنه مستند على النخلة فطلب مِن النبي ﷺ أنْ يحُثَّ صاحبَ النَّخلةِ أنْ يَتصدَّقَ بها عليه، والظَّاهرُ أنَّ صاحبَ الجدارِ كان فقيرًا لا يَستطيعُ أنْ يَشتريَها، فحث الرسول ﷺ صاحب النخلة بالتَّصدُّقِ بها على أنْ يُعوِّضَه اللهُ بأجْرِها في الجنَّةِ فرفض الرجل! وسمع أبو الدحداح بهذا الأمر فذهب لصاحب النخلة واشْتَراها ودفَعَ في ثمَنِها حديقتَه كاملةً؛ لأجْلِ أنْ يَتصدَّقَ بها على الرَّجلِ، وفرح الرسول ﷺ بذلك فرحًا شديدًا وقال: (كمْ مِن عَذْقٍ رَداحٍ - أي غُصنٍ ثقيلٍ، ومُمْتلِئٍ بالثِّمارِ- لأبي الدَّحداحِ في الجنَّةِ) قالها مِرارًا، بل قال أبو الدحداح لزوجته بعد ذلك: اخرجي من الحائط فقد بعته بنخلة في الجنة، فتقول الزوجة العاقلة: ربح البيعُ!!

- لقد ثبت الإيمان في قلوب ونفوس هؤلاء الكرام، كلنا نعلم فضل الصدقة وفضل العطاء لله لكننا نعلم فقط، أما هؤلاء فكانوا

---

(١) مسند أحمد (١٢٤٨٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم.

موقنين؛ وقد ملأ حب الله وحب الرسول والتعلق بالآخرة القلوب فأزال كل العوائق التي قد تجعل العبد يركن إلى الدنيا.

حيثما وُجدت كلمة القرض في القرآن وقُيّدت بأنه (حسن) سيجمع بذلك ثلاثة أمور:

أولًا: لا بُد أن يكون من طيب ماله، ليس فيه رديء ولا خبيث ولا حرام.

ثانيًا: أن يخرجه بطيب نفس ابتغاء مرضاة الله؛ فتكون عن نفس راضية حتى يكون قرضًا حسنًا.

ثالثًا: لا يمنّ بها على مَن يعطيه ولا يؤذيه لأنه بذلك سيضيع الفضل والأجر.

هذه هي الشروط التي لو وجدت في القرض في القرآن يقال عليه قرض حسن.

{وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ} من صفات الله تبارك وتعالى أنه يقبض ويبسط؛ وكأن الله يقول لا داعي للتضييق على العباد، ومَن يبخل بماله فلِمَ يبخل والرزق بيد الله.. يوسع على من يشاء ويقدر على من يشاء، فلا تضيقوا على العباد حتى يوسع الله عليكم، فالسعة والضيق بيده سبحانه وتعالى.

{وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ} يوم القيامة سنرجع إلى الله لا محالة كي يجازي كل عبد ما فعل وبما عمل وبما قدَّم، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ
مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ
قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ
أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا
كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ
طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ
أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي
مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ
ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

تخبرنا الآيات عن طائفة من بني إسرائيل في زمن بعد زمان موسى عليه السلام.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ} الخطاب في الآية هو (خطابٌ عام) على وجهين:

١- عام باعتبار وضعه؛ يعني ألم تر أيها المخاطب كذا وكذا...؟

٢- وإما عام باعتبار التبعية للمخاطب الأول وهو رسول الله ﷺ، ومن المعلوم أن الأمة تابعة لإمامها.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى} كلمة (ترى) يكون المراد بها تنظر أو تسمع أو تعلم فما المراد بها في هذا الموضع؟ سبق القول أن لفظي (ترى، تنظر) إذا عُدي بـ (إلى) يكون المقصود به الرؤية، وإذا عُدي بنفسه يكون المقصود العِلم لا الرؤية.

- ومن المعلوم أن الرسول ﷺ وصحبه الكرام لم يروا بني إسرائيل، والله سبحانه يقول {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ} وهذا خطاب عام بالاعتبارين السابق ذكرهما فما المقصود هنا إذن؟ المقصود: ألم تر شأن بني إسرائيل: يعني عِلمًا لا رؤية. **وقيل**: إن المقصود: الرؤية، ولكن كيف ذلك والنبي ﷺ ومَن معه لم يحضروا زمن بني إسرائيل؟!

- بالفعل لم يحضر النبي ﷺ ولا صحابته تلك الوقائع الخاصة ببني إسرائيل ولكن الرسول ﷺ عندما يُخبر العباد عن شيء، وهذا

الشيء أو الخبر جاء من عند الحق سبحانه يكون التصديق به وكأنه رأي العين، بل أبلغ وأشد، فتبقى (ترى) على حالها؛ لأن الفعل تعدى بـ (إلى)، وبالتالي يكون المعنى وكأنه رآه رأي العين فلا مجال للتكذيب.

{أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ} هذا الاستفهام هل هو للتقرير أم للتشويق؟ الاستفهام للتشويق لماذا؟ لأن استفهام التقرير لا بُد أن يكون أمرًا معلومًا للمخاطب كقوله تعالى:{ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨} [البلد]، أما في قوله سبحانه: {أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ} فحال المخاطب أنه لم ير بني إسرائيل فيكون المقصود هو التشويق.

{ٱلۡمَلَإِ} هم الأشراف والكبراء.

{مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ} تعيين للتوقيت (الزمان)؛ فهو بعد موسى عليه السلام، وموسى هو أشرف أنبياء بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم أكثر قوم آذوا أنبياءهم ما بين (السب، التكذيب، القتل، الادّعاء، إلصاق التُّهم).

{إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ} قالوا لنبي لهم قولًا فما هو؟ ومَن هو هذا النبي؟ الحق سبحانه أَبْهَمَ اسم النبي في هذا الموضع، وحين يُبهم الله سبحانه شيئًا لا يجوز البحث فيه، ولكن لماذا لم يُذكر اسم هذا النبي؟ لأن المقصود هو التعريض بتحذير المسلمين حتى لا يختلفوا على رسولهم ﷺ وكذا لا يفعلوا معه نفس الأفعال المُشينة التي ارتكبها بنو

إسرائيل مع كل مَن أُرسل فيهم، إذن المقصود هو بيان حال القوم وليس بيان اسم النبي الذي أرسل فيهم.

{ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا} أي أَرْسِل لنا؛ فأرادوا أن يكون لهم مَلِك يقاتل معهم.

والآية تدل على أن القوم كانوا في حالة من الفوضى! فلم يكن لديهم ملك يسوسهم ويُدير أمورهم، لقد سألوا نبيهم أن يُرسل لهم ملكًا.. وهذا مقبول ولكنهم طلبوا ذلك ليُقاتل معهم!! وهذا يعني أنهم هم مَن طلبوا لقاء العدو!! والدليل قولهم {نُقَاتِلْ} وقول نبيهم {إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} وهذا يعني أنه لم يكن قد كتب عليهم القتال بعد.

وقفة:

نهى الرسول ﷺ عن تمني لقاء العدو عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»(١).

وهنا إشكال لدى البعض، وهو في حقيقته ليس بإشكال: (إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[١].

الحديث الأول نَهَى فيه النبي ﷺ عن تمني لقاء العدو، والحديث الثاني فيه تمني طلب الشهادة... فكيف يكون ذلك؟! يجب أن نعلم أن هناك فرقًا كبيرًا بين الأمرين:

١- تمني لقاء العدو: كحال الملأ من بني إسرائيل؛ فلم يكن هناك مَن يُحاربهم (خرجوا من ديارهم وانتهى الأمر) وبالتالي استقرت أمورهم..لكن ماذا فعلوا؟

طلبوا أن يكون لهم ملك ويكوّنوا جيشًا ليبدأوا هم القتال والحرب، وهذا فيه تمني للقاء العدو وهو ما نُهينا عنه.

٢- أما لو كانت هناك بالفعل معارك قائمة بين المسلمين وأعدائهم، وصاح خليفة المسلمين فيهم بالجهاد لإعلاء كلمة (لا إله إلا الله).. هنا ينبغي على كل شخص أن تُحدثه نفسه بالجهاد وإلا يكون منافقًا (إذا مات يموت على شعبة من شُعب النفاق)، أما المُتمني للشهادة بصدق فإنه ينال منزلتها ولو مات على فراشه.

{قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ} استفهام فيه تقرير وتحذير. والمعنى: هل أنتم واثقون من أنفسكم حتى إذا ما كتب الله عليكم القتال أنكم ستُقاتلون؟!! لكن لماذا ورد هذا الاستفهام بما يحمله من (التقرير والتحذير)؟ لأن صاحب الهمة العالية يأنف

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

من التقصير والتخاذل ومن كل أمر يُنافي الشجاعة والهمة (وهؤلاء هُم عِلية القوم).. لذلك عمل النبي الذي أُرسل فيهم على: التحريض لأنهم أصحاب هِمم عالية فلا ينبغي أن يصدر منهم التقاعس والتخاذل عن مواجهة العدو، وبهذا سجّلَ النبي عليهم هذا الأمر قبل وُجُودِ دَواعِيهِ، وبذلك يكونوا على حَذَرٍ مِن وُقُوعِهِ في المُسْتَقْبَلِ، لذلك ورد هذا الاستفهام بمعنى (التقرير والتحذير).

{قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا} استعلاء في الرد!! وكأنهم ردوا على نبيهم بلغة الاستعلاء: وما الذي يمنعنا من القتال وقد أخرجونا من ديارنا وأبنائنا، كما أننا نحن مَن رغبنا في هذا القتال.

- {وَمَا} اسم استفهام بمعنى: أي شيء، {لَنَا} لام الاختصاص. وهذا الاستفهام فيه إنكار وتعجب من قول نبيهم. و{وَقَدْ أُخْرِجْنَا} حالة مُعللة لوجه الإنكار؛ فبعد كل ما حدث لنا سنكون أبعد الناس عن ترك الجهاد والتخاذل والضعف أمام الدنيا.

{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ} جملة معترضة تحمل العبرة والعظة والتحذير للمسلمين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء (لماذا)؟ لأن القتال مرهون بأحد أمرين:

١- فريق من الناس يعتريهم بعض الهواجس والتثبيط فيجتهد عليهم الشيطان، هذه الأمور عندما تجتمع عليهم تمنعهم من القتال.

٢- فريق آخر من الناس تعترضهم خواطر تُهوّن عليهم الموت، وهذا يحدث حين يُدركون أن الحياة مُكدَّرة مُنغصة وتنعدم فيها الراحة، وأصحاب النفوس الصافية والعقول الرصينة يعرفون قدر الدنيا فهي لا تُساوي شيئًا، حتى الشعور باللذة فيها شعور وقتي وسُرعان ما ينقضي ويزول، أما مرارتها فهي أشد وأصعب بكثير.

والآية تحمل التحذير للمسلمين والتعريض بالتوبيخ لفعل هؤلاء ومَن يتبع خطاهم، فلما كتب عليهم القتال وكانوا هم الراغبين فيه الطالبين له ماذا فعلوا؟ تولوا فتركوا ساحة القتال وتخاذلوا وتراجعوا إلا قلة قليلة منهم!

{وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ} والله يعلم فعل هؤلاء، فقد كان فيهم الكثير من الظلم للنفس؛ طلبوا القتال وحين كتب عليهم جبنوا وتراجعوا، وهذا شيء مُشين ولا يليق برجال أصحاب هِمَم (كبراء - شرفاء) من بني إسرائيل!

قوله تعالى: { وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧}.

{وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا} لقد سأل نبي القوم ربه سبحانه بما طلبوه.. فأوحى الحق سبحانه لنبيه أنه قد

بعث لهم طالوت ملكًا، فبلّغهم نبيهم باستجابة ربهم لطلبهم حيث أرسل لهم طالوت ملكًا، فماذا فعل القوم ردًّا على ذلك.

{قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا} جاء الرد بالاعتراض على نبيهم وعلى أمر ربهم! وبرّروا هذا الاعتراض بسَفَه، وبأمور تدل على الجهل والفخر وعلى صفات مذمومة فقالوا: {وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ}.

لماذا يدّعون أنهم أحق بالمُلك منه؟

١ـ **الاعتراض الأول:** لأنه لم يكن من نسل الملوك! أما بني إسرائيل فقد جعل الله فيهم المُلك (الفخر والاستعلاء)، وهكذا سلكوا مسلك إبليس ومنطقه حين قال عن نفسه { قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢} [الأعراف].

٢ـ**الاعتراض الثاني:** {وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ} فمن المعروف أن الملوك لا بُد أن يمتلكوا المال من أجل تقوية المُلك والسلطان! وهذا تصور فاسد نتج عنه حكم خاطئ، فوقعوا في العَنَت.

وقفة:

يجب على العبد أن لا يطلب لنفسه شيئًا لم يُقدره له الحق سبحانه؛ لأن النفس تخدع صاحبها فهي أمارة بالسوء نظرًا لما فيها من صنوف الآفات، والذي ينبغي على العبد فعله هو الأخذ بالأسباب وتفويض أمره إلى الله عز وجل.

فهؤلاء القوم كانت حياتهم مستقرة فأرادوا القتال ورغبوا فيه، فلما كُتب عليهم تخاذلوا وتخلّفوا (لقد سعوا في جلب المهالك على أنفسهم)، وطلبوا أن يكون لهم مَلِك، فلما أُرسل إليهم المَلِك اعترضوا عليه، فأحاط بهم سخط الله سبحانه!!

{قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ} فرد عليهم النبي الكريم قائلًا ابتداءً: المُلك اصطفاء من الله عز وجل: { وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤} [الأنعام] وإذا كان الاصطفاء والاختيار من الله فليس للعبد أن يعترض، وتلك هي مشكلة الحسد التي تملأ القلوب، ومن المعروف أن الحسد مُتأصِّل ومتوغل في قلوب بني إسرائيل.

{وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ} المُلك يحتاج إلى العلم؛ وهنا قُدّم العلم على الجسم (الأمر النفسي على الأمر البدني) فلماذا؟ لأنه بالعلم يتمكّن الحاكم أو المَلِك من إدارة أمور الدولة وشئونها، فالشخص الذي يفتقر إلى العلم (أحكام الشريعة، كيفية إقامة شرع الله، حتى السياسة لا يعلم عنها شيئًا) لا يصلُح أن يُسند إليه منصب كهذا؛ لأن صاحب هذا المنصب لا بُد أن تتوافر فيه شروط وصفات.. ومن ضمن هذه الصفات أن يكون لديه علم.

- وقد وَضَعَ العلماء في كتب الفقه شروطًا للإمامة من ضمنها العلم..

-وبعد تقديم العلم جاء الجسم: لأن الجسم هو الآخر صفة من الصفات التي ينبغي توافرها في الحاكم؛ لأنه أحيانًا يذهب إلى ساحة القتال ليُقاتل.. وصاحب البِنية القوية أو الجثمان الضخم يكون له هيبة وعظمة ويُقذف الرعب في قلوب الأعداء عند رؤية هذه الهيئة، أما صاحب البِنية الضعيفة أو صاحب الآفة فلن يتمكن من فعل هذا.

{وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ} يؤتي ملكه مَن يشاء في الدنيا، فكم من فقير أُعطي المُلك! بل إنكم يا بني إسرائيل كنتم عبيدًا عند فرعون، ولكن الحق سبحانه أنقذكم من فرعون ونصركم، وجعلكم ملوكًا وأرسل فيكم الأنبياء!!

{وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} يُوسِع على الفقير ويُغنيه ويكفيه ويُعلي شأنه ويرفع قدره، والحق سبحانه هو (الواسع) الذي أحاطت قدرته كل شيء.

*وإظهار اسم الجلالة (الله) من أجل أن تدب المهابة في القلوب، وحتى يعرف هؤلاء مَن الذي حكم وأذن وبعث هذا الرجل كي يكون مَلِكًا عليهم.. وبالتالي لا يجوز الاعتراض على حكم مَلِك الملوك سبحانه وتعالى.

{عَلِيمٌ} يعلم مَن الذي يستحق المُلك ومَن يليق به ومَن لا يستحق.

قوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ

فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾}.

سياق الآية يدل على أن الملأ من بني إسرائيل لم يُصدّقوا نبيهم ولم يقتنعوا بأن (طالوت) مُرسل من عند الله عز وجل لكي يكون ملكًا عليهم، والدليل على عدم تصديقهم لذلك هو: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ} ومعنى ذلك أن هؤلاء الملأ طالبوا نبيهم أن يُثبت لهم قوله بآية أو بعلامة حتى يتيقّنوا من صدق كلامه! ولو كانوا موقنين بصدقه منذ البداية لما ردّ عليهم بذكر تلك الآية الدالة على صدقه.

والآية فيها: إشارة إلى يهود بني قريظة وبني النضير وغيرهم من طوائف اليهود في المدينة؛ حيث أنهم كذّبوا رسول الله ﷺ فيما أخبرهم به مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بحقيقة نبوته.... وكذا حالهم كحال أسلافهم الذين كذبوا نبيهم أيضًا مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بحقيقة نبوته وامتناعهم من الجهاد مع طالوت لما ابتعثه الله ملكًا عليهم!

{أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} قال لهم نبيهم إن الدليل على أنه المَلِك {أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ}.

والتابوت: هو الصندوق، أما المادة التي صنع منها فلم يأتِ ذكرها، وبالتالي ليس علينا أن نبحث في تلك الجزئية.

قصة التابوت: هذا التابوت كان في حوزة بني إسرائيل وكانوا

يحملونه معهم إلى أي مكان يذهبون إليه، كما كانوا يحملونه في كل حروبهم ويستنصرون به، فإذا ما وضعوه في أي مكان يأتيهم النصر، لكنهم فقدوه زمانًا طويلًا فلما جاءهم التابوت دلّ هذا على صدق نبيهم.

والسكينة: للعلماء قولان في تلك المسألة:

١- فريق من أهل العلم قالوا: السكينة روح أو شيء مخلوق لروح، واستدلوا لهذا القول بحديث: (عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ، وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْآنِ**»[(١)].

٢- الفريق الثاني من أهل العلم قالوا: إن السكينة تنزلت مع الملائكة وهي تعني (سكون النفس والروح والطمأنينة)، واستدلوا لهذا القول بحديث: (أُسَيْدَ بْنِ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١١)، ومسلم (٧٩٥).

حُضَيْرٍ»......... فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**»[١].

*اختار الإمام الطبري: (السكينة ما تسكن إليه النفوس).

*وهذا هو الراجح: فالسكينة شيء معنوي لا مادي.. وهناك أيضًا جمع بين الحديثين.

{سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} أمور سوف ترونها فتسكن بها نفوسكم وتطمئن قلوبكم؛ لأن نبيكم هذا ليس كاذبًا، وما أخبركم به من جعل الله طالوت ملكًا حق وصدق لا ادّعاء.

{وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ} أشياء تُرِكت في هذا التابوت.

1- من العلماء مَن قال: عصا موسى عليه السلام.

2- ومنهم مَن قال: كسر الألواح.

3- ومنهم مَن قال: التوراة أو بعضها.

ولكن لا يوجد دليل من كتاب أو سنة لبيان ما المقصود بهذه (البقية) وكل ما ورد هو مجرد اجتهادات علماء، ولذلك فالأولى أن نتوقف فيها.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٩٦).

{تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُۚ} فأتت به الملائكة حاملة لهذا التابوت، فكانت علامات بيّنات على صدق النبي، فعليكم بعد ذلك أن تستسلموا وترضوا بأن يكون طالوت ملكًا عليكم.

فائدة:

تُعَلِّمُنَا الآية أنه ينبغي على الداعي أن يتعلم الصبر على المدعو، فقد اتَّهم الملأ نبيهم بالكذب والادّعاء، والنتيجة المحتملة لذلك هي: نزول العذاب والنكال بهم، ولكن الحق سبحانه حلم عليهم ولم يُعاجلهم بالعقوبة، بل وأعاد إليهم تابوتهم المفقود وفيه السكينة التي تسكن بها نفوسهم، بل في التابوت بقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} أي أن في هذه الأمور التي أرسلها الله لكم علامات بينات لكم... ولكن إن كنتم مؤمنين، وهذا يدل على فضل الإيمان والعبد كلما ازداد إيمانًا ازداد فهمًا وحِرصًا وتعلُّقًا بالقرآن والسنة، وكلما ازداد إيمان العبد كلما ازداد حبه لله سبحانه ولرسوله ﷺ وللدين وللعلم.

والمُلاحظ: أنه كلما زاد العلم احتاج إلى مزيد من الفهم، والفهم لا يُرزق لأي أحد فهو نعمةٌ من الحكيم سبحانه، فلا بُد للشخص الذي يُعطى نعمة العلم والفهم عن الله أن يكون تقيًّا نقيًّا قلبه سليم ليس معاندًا ولا مُشاققًا ولا مُقيمًا على المعاصي ظاهرةً كانت أو

باطنة حتى يُنتفع بهذا العلم (ولذلك كان العلماء وهم أصفى القلوب بعد الأنبياء هم أكثر مَن وعت قلوبهم العلم على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم).

وإلا فسيكون الحال إما: الإعراض ابتداءً؛ وهو حال أكثر المسلمين، وإما سماع العلم مع عدم الانتفاع به، إما بالنسيان الذهني وإما بعدم رسوخه في القلب (وهذا هو حال مَن أقبل على العلم وهو لا يبتغي به وجه الله).

ولكن لماذا سيق هذا القول؟

لأن هناك قاعدة تقول: الشيء إذا عُلِّق على وصف فإنه يزداد بزيادة هذا الوصف وينقص بنقصانه. والآية التي معنا عُلقت على وصف: فالآية أو العلامة الواردة فيها لا ينتفع بها إلا من كان مؤمنًا، وكلما ازداد العبد إيمانًا كلما ازداد انتفاعًا وفهمًا عن الله والعكس عند نقص الإيمان.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ
فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن
فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ
٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا
وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم
بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ
٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢ ﴾

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ} الجملة معطوفة على قول الله تعالى {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا..} لأن ما بين (أحداث التابوت) و(فصل طالوت بالجنود) أحداثًا وأمورًا وقعت؛ فعندما أيقن بنو إسرائيل أنه المَلِك كان هناك إعداد للجيش للقاء العدو بالعدة...هذه الأحداث حذفت لكن دلّ عليها السياق.

{فَصَلَ} الفَصْل هو انقطاع البعض عن الكل؛ فقد فَصَل بجنوده من البلد التي كانوا فيها وخرجوا مع الجيوش لمواجهة العدو.

{بِٱلْجُنُودِ} جمع جُند؛ والجُند نجدة للمستتبع، فالقائد معه جنود أي نجدة حتى يهجموا على العدو.

{قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ} هنا سؤال: كيف أخبر عن الله على الرغم من أنه مَلِك وليس نبيًّا؟ للعلماء قولان:

- منهم مَن قال: النبي أخبره بوحي من الله.

- ومنهم من قال: إنه اجتهد كمَلِك وهوخارج يقاتل في سبيل الله فله أن يجتهد وكأن هذا اختبارًا من الله.

ما هو الاختبار؟

{فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ} أي سيكون أمامكم نهر عظيم من الماء، فمن شرب منه فليس مني؛ والبُعد هنا يُحتمل أن يكون بُعدًا معنويًّا أو بُعدًا ماديًّا؛ فأما البُعد المعنوي يعني أنهم لا يصلحوا للجهاد معه ولا يستحقوا أن يأخذوا

لقب الشهادة.

وأما البُعد المادي فيعني أنه مَن يشرب من هذا النهر فلن يكمل مع الملك ويظل في هذا المكان وينفصل عن الجيش.

- والسبب أنه مَن لم يتحمل ساعة العطش فهل سيتحمل رؤية السيوف وقتال العدو! إذن هم بذلك لا يصلحون لجهاد العدو.

{وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ} يطعمه: أي يذوقه؛ ويُقال: يذوقه سواء طعامًا أو شرابًا.

وقفة: لماذا قال جملة {ومن لم يطعمه فإنه مني} رغم أن السياق يدل على المعنى، فعندما يُقال (إن من شرب فليس مني) فبمفهوم المخالفة نفهم (من لم يطعمه فإنه مني)، فلماذا قيلت رغم أن المعنى مفهوم بدونها؟

- ذُكر هذا تحفيزًا وتشجيعًا لهم، وأيضًا تأكيدًا لمكانة هؤلاء وقربهم؛ فهم الذين ثبتوا وانتصروا على شهوتهم فكانت لهم تلك المكانة.

{إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ} (الغرفة) قدر ما يحتويه كفُّ اليد بالماء، فأعطاهم الله سبحانه وتعالى الرخصة في هذا القدر فقط.

{فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ} فشرب أكثر الجنود إلا قليلًا منهم.

{فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ} فلما جاوز طالوت النهر

هو والمؤمنون معه.

{قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ} صنف العلماء انقسام جيش طالوت إلى ثلاثة أصناف:

الأول: هم الذين اغترفوا كثيرًا من النهر فملأوا بطونهم ونكصوا على أعقابهم فلم يستمروا في الزحف وتوقفوا عن الجهاد (وهذا الصنف غير مؤمن).

والثاني: أصحاب الإيمان والثبات الذين صبروا ولم يقربوا أو يشربوا من النهر أبدًا، فأكملوا مع جالوت الزحف، وهؤلاء هم الذين قالوا {كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ} هؤلاء هم المؤمنون.

والثالث: أضعف إيمانًا من الفريق الثاني، وهم الذين أخذوا بالرخصة؛ فاغترفوا وشربوا لكن بالقدر الذي ذُكر في الآية، وهؤلاء قال العلماء فيهم: إنهم من قالوا {لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ}؛ فعندما شاهدوا الأعداد الغفيرة لجيش جالوت قالوا: لن نقدر على هؤلاء.

ولكن في جملة الأمر فإن عدد المؤمنين الذين جاوزوا النهر كان قليلًا... كما ورد في الحديث: عن البراء بن عازب حدَّثَني أصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا: أنَّهُمْ كانُوا عِدَّةَ أصْحابِ طالُوتَ الَّذِينَ جازُوا معهُ النَّهَرَ؛ بِضْعَةَ عَشَرَ وثَلاثَ مِئَةٍ. قالَ البَراءُ: لا واللَّهِ، ما

جاوَزَ معهُ النَّهَرَ إلَّا مُؤْمِنٌ(١).

*فبين أن عدد من أكمل الزحف نفس عدد المقاتلين في بدر! أي أن العدد كان قليلًا؛ لأن الكثير شرب من النهر.

{قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ} الظن هنا بمعنى اليقين؛ أي أنهم متيقنون من أنهم سيلاقون ربهم بعد ما يقاتلون، فسيُقتلون ثم يُلاقون الله.

{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} يظهر اليقين في حال الشدة دائمًا؛ واجهوا جيشًا ضخمًا جدًّا مع قلة عددهم فظهر هنا اليقين! توكلوا على ربهم وأخذوا بالأسباب.

{وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} أي بإذن الله نصبر على هذا الابتلاء؛ عددنا قليل وعددهم كبير، هم أكلوا وشربوا ونحن جياع وعطشى، خرجنا من بيوتنا وديارنا... ومع ذلك قالوا (والله مع الصابرين).

فوائد:

-أعظم سبب لمعونة الله لك (الصبر): الصبر عن المعاصي، الصبر عن الشهوات، الصبر على طاعة الله.. ومن يتصبر يصبره الله.

-وهذه الآيه تبين حال المسلمين الآن: فهناك مَن اغترف من

(١) صحيح البخاري (٣٩٥٧).

المعاصي والشهوات والشبهات وركن إلى الدنيا واطمئن لها ولم يعمل للآخرة، وهناك مَن كان حاله ما بين الطاعة وما بين الاغتراف من المعاصي؛ يسير في الطاعة ويقع وهكذا، وهناك القلة القليلة الذين يعملون للآخرة ويصبرون على الطاعة والعمل الصالح ويسألون الله الثبات حتى الممات، ويجتهدون في الزيادة وفي الأعمال، فهؤلاء هم المؤمنون الأتقياء الأبرار.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ (برز) أي صار بارزًا من الأرض منكشفًا؛ فقد أصبحوا الآن في ساحة القتال.

﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ بمعنى صُبَّ علينا يا رب الصبر وثبّت أقدامنا.

فائدة عقدية هامة:

الصبر وثبات الأقدام فِعلان للعبد؛ لأن العبد له مشيئة واختيار؛ فله أن يختار يصبر أو لا يصبر.. يثبت أو لا يثبت. وأما التصبر والتثبيت ففعل الرب سبحانه وتعالى؛ لأن الأمر كله بمشيئة الله وإرادته.

- فهؤلاء اختاروا الصبر والثبات لكنهم مع هذا دعوا الله بالثبات لأنه وحده بيده التثبيت، فالثبات اختيار العبد أما التثبيت فبمشيئة الله

وإرادته ولن يثبتوا إلا إذا ثبتهم الله؛ وذلك لنعلم أنه كي يتأتى النصر من عند الله يجب أن نجاهد أنفسنا ونطلب من الله العون ونفعل الخير.. كل هذا بقدرة العبد واختياره، ولنعلم أيضًا أن النصر على الغير قد يأتي بالحجة والبيان والعلم والفصاحة وطلاقة اللسان وإقامة الحجج وهذا كله فعل للعبد.

لكن الله أخبر أن النصر كله من الله وأثنى سبحانه على من طلب منه النصر.

وهذا خلافًا لعقيدة القدرية المعتزلة الذين يقولون إن النصر ليس من عند الله! بل إن غلاتهم يقولون أكثر من ذلك فيعتقدون أن النصر ليس في مقدور الله؟!!! وهذه مأساة!!!

{وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} سألوا الله النصر على الكافرين بأن يُلقي في قلوبهم الشجاعة والثبات وصدق التوكُّل عليه، فيحدث بذلك الرعب في قلوب الأعداء ويتم النصر.

وهنا ترتيب رائع لطلب الجنود! سبحان الله!!

أولًا: طلبوا إفراغ الصبر على القلوب عند اللقاء.

ثانيًا: سألوا ثبات الأقدام والقوة على مقاومة العدو.

ثالثًا: النصر على الخصم (وهذا هو المقصود).

فائدة:

هذه الآية تحمل الدعاء حين لقاء العدو {قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} فمن الممكن أن يستعين العبد ببعض الأدعية التي تكفيه الهم والخوف من الأذى أو كيد الكائدين ومكر الماكرين مع امتلاء القلب بالتوكل على الله.

وهناك أيضًا قول الله تعالى {ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣} [آل عمران]. وَدَعَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ علَى الأحْزَابِ فَقالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وزَلْزِلْهُمْ**»[1]. وأيضًا دعاء غلام الأخدود فقالَ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ**».

قوله تعالى: { فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١}.

{فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ} هزموا العدو الغاشم المتكبر الكافر بإذن الله.

هل الإذن هنا إذن كوني أم شرعي؟ الإذن هنا هو الإذن الكوني القدري.

{بـإذن الله} الباء قيل للاستعانة والسببية؛ فالاستعانة بالله كانت

---

(١) صحيح البخاري (٤١١٥).

سببًا في هزيمة العدو، وقيل للمصاحبة؛ يُعَلِّمنا ربنا أن كل شيء يحدث هو بإذن الله؛ فالنفس جهولة وغافلة، والذين يدعون الآخرين للثقة بالنفس فقط غير صحيح؛ لأن النفس أمارة بالسوء بنص القرآن، تضل صاحبها وتوقع به فلا يوثُق فيها أبدًا، بل علينا الثقة بالله وبقدرته.

- ولا يُفهم من الكلام أن نصل بالنفس لدرجة اتهامها بالعجز دائمًا (سياسة جلد النفس) بل المقصود أن لا يُعتقد أن بحول العبد وقوته وثقته بنفسه فقط تُنجَز الأعمال، والاعتقاد بأن النفس تقوى على كل شيء في الدنيا فتعتمد على ذلك هذا هو الخطأ.

{وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ} قتل داوودُ جالوتَ الطاغيةَ الكافرَ.

{وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ} أي آتاه الله (المُلك) وهو السلطان، و(الحكمة) هي النبوة كما قال أهل العلم؛ فأعطاه الله المُلك والنبوة، وهو أول نبي من الأنبياء يجتمع له مُلك وحكمة. سبحان الله! فالأنبياء كلهم كانوا بسطاء.

فائدة:

الترتيب هنا ليس معناه أن المُلك أعظم من النبوة، ولكنه (ترتيب رُتبي للترقّي) أي من الأدنى إلى الأعلى فالمُلك أدنى من النبوة.

{وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ} فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فعلّمه الله سبحانه أمور دينه وأمور دنياه.

وأبهم ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآية العِلم الذي علّمه لداود فلم يذكره في هذه الآية؛ لكن جاء في سورة (الأنبياء) الأمور التي علمها الله تعالى لداود منها قول الله تعالى {وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ} فعلّمه صنعة اللبوس؛ أي صناعة الدروع التي تُلبَس في الحرب وهو عبارة عن حديد، سبحان الله! {وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾} [سبأ] أَلَانَ الله له الحديد فيشكّله شكلًا يلبسه على الصدر حماية له، فكانت هذه من نِعَم الله عليه التي مَنّ عليه بها، مع العِلم العظيم، وأشياء أخرى كثيرة كتعليمه كلام الطير..إلى غير ذلك.

{وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ} كيف يدفع الله الناس؟ الله سبحانه وتعالى يدفع ببعض أهل الإيمان وأهل الطاعة واليقين والصبر والإخلاص فساد المفسدين في الأرض والمشركين والطغاة والعصاة.

فلولا وجود صالحين مصلحين يُقيمون شعائر الدين لفسدت الأرض وأهلكها الله؛ لذلك من علامات الساعة أنها تقوم على شرار الناس.

{وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ} الله صاحب الفضل على جميع العباد حتى الفاجر والكافر والعاصي.

قوله تعالى: { تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾}.

{تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ} الفصحاء والبلغاء لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذه الآيات.

- وذكر اسم الجلالة (الله) لبيان العظمة والجلال؛ لأن اسم الجلالة يجمع بين صفات الكمال والجمال ونعوت الجلال، فهو إمام الأسماء ليبين الآيات الباهرات المعجزة لأي أحد صاحب إنصاف.

- وإذا أضفنا الميم إلى اسم الجلالة (اللهم) فإنها تعني الأسماء الحسنى كلها وصفاته كما قرر هذه المسألة ابن القيم وغيره.

{نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ} أي نزلت عليك بالحق، تلاها جبريل عليه السلام - كما سمعها من الله عز وجل - على نبينا ﷺ، نزلت شيئًا فشيئًا على مدار ثلاثة وعشرين عامًا لتثبيت قلب النبي ﷺ كما نزلت الأمور التشريعة تدريجيًّا للعباد.

- فأي عاقل منصف يعلم أن هذه الآيات من عند الله، فلا ينكرها إلا جاحد معاند!

{وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} شهادة من الله جل جلاله لرسوله ﷺ بالرسالة، ومن جُملة الرسالة هذه القصة وغيرها من قصص الأمم السالفة، وقصص الأنبياء وأتباعهم وأعدائهم.

ولولا أن الله أخبر الرسول ﷺ فمن أين عَلِم كل هذه الأشياء؟!! والأمور التي وقعت من آلاف السنين؟!! وعلى النحو المذكور عند

أهل الكتاب في كتبهم؟!! فدلّ ذلك على صدق رسالته ﷺ.

القصة التي بين أيدينا بها آيات وعِبَر وفوائد لأولي الألباب، منها:

-أن اجتماع أهل الكلمة والعقد وبحثهم في الطريقة التي يسُوسون بها الناس وتستقيم بها الأمور مهم جدًّا؛ لأن ذلك سبب الارتقاء وحصول المقصود؛ فالملأ من بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم ملكًا يسوسهم ويقودهم وتكون له الطاعة ويكونون تحت أمره.. دعا النبي الله فاستجاب لهم فاستقامت الأمور.

- وجوب وجود القائد الحكيم الذي تلتف حوله الأمة حتى لا يكونوا متفرقين.

- الحق إذا عرضت عليه الشبهات يزداد وضوحًا!! لذلك عندما يكون لديك شُبهة تعرضها على أهل العلم الثقات فسوف يزيلون هذه الشبهة فيحصل عندك اليقين؛ فهؤلاء عندما اعترضوا على مُلك طالوت وقالوا: كيف يكون له المُلك علينا، هذه شُبهة معينة لديهم (أن المَلِك لا بُد أن يكون من نسل مَلِك) فعرضوها على نبيهم فأقنعهم وأزال الشُبهة والريب عن قلوبهم.. فاستجابوا له وأصبح قائدًا عليهم.

- الحق إذا عُورض بشُبهة ليست مشكلة شرط أن الشبهة تزال بالعلم والقوة معًا.

- يجب على مَن يَرُدّ على الشبهات أن يكون صاحب علم وحكمة حتى تكون الإجابة على الوجه الصحيح، وإلا لو ألقى أحد شبهة لغير أصحاب العلم والفهم سيكون الرد ضعيفًا.. والنتيجة ستكون سيئة.. وهذا ما نراه في المناظرات التي تقام على التلفاز؛ يأتون بشيخ ضعيف العِلم والحُجة أمام شخص علماني يُلقي عليه الشُّبهة فتكون الردود ضعيفة.. فيشكك الناس في دينهم، وللأسف لا يأتون بأصحاب العلم الراسخ الذين لديهم حُجة وبرهان ساطع يزيل أي شك!!

-بالعلم والقوة تتم الولاية والقيادة؛ فالقائد يحتاج إلى قوة في الجسم مع العلم، فبالحكمة يستطيع أن يُحسن التصرف، وبالقوة يهاب منه العدو، ولو فقد شيئًا منهما يحدث الخلل؛ فإذا كان القائد ضعيف الجسم فلا يهابه الأعداء، وإن لم يكن لديه حكمة فسيهلك البلاد والعباد حتى وإن كان جيشه قويًا، وكم من الرؤساء ضيّعوا شعوبهم بقلة الحكمة وقلة العلم وقلة التقوى!

-الاتكال على النفس سبب الخذلان والفشل؛ ولهذا علمنا رسول الله ﷺ في أذكار الصباح والمساء «**يا حيُّ يا قيومُ برحمتِك أستغيثُ أصلِحْ لي شأني كلَّه ولا تكِلْني إلى نفسِي طرفةَ عينٍ**» دعاء عظيم جامع، أسأل الله أن يستجيب لنا هذا الدعاء.

-فإذا كان الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، فإن التوكل على الله واللجوء إليه سبب الفلاح، والدليل على ذلك: قال الفريق

الأول {قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا} وهذا اعتماد على النفس واستعلاء.. فكانت النتيجة فشلًا.. فشرب أكثرهم من النهر. والفريق الثاني {وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} هؤلاء اعتمدوا على قوة الله وحوله وتبرأوا من حولهم وقوتهم...فكانت النتيجة {فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ}.

فكل هذه دروس وعبر يبين الله بها الصادق من الكاذب، والمؤمن الحق من الكافر وضعيف الإيمان، ثم يدفع الله بالفئة المؤمنة الفئة الكافرة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ
مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ
وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ
ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن
ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا
يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا
يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ
مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ
ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

{تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} هذه الآية بداية الجزء الثالث، ومَوْقِعُ هَذِهِ الآيَةِ مَوْقِعُ (الفَذْلَكَةِ) لِما قَبْلَها والمُقَدِّمَةِ لِما بَعْدَها:

فأما ما ورد في الآية السابقة لهذه الآية: أن الله لمّا أخبر بأنباء الرسل: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وبيّن لنا ما حدث لهم مَعَ أقْوامِهِمْ واختلاف أممهم عليهم... ختم كل هذه الأحداث بقوله {تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ}.

وبعد ذلك جمع كل هذا في قوله في هذه الآية {تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} وذلك للفت الأنظار.. فيحدث انتباه! ونأخذ العِبرة من خلال كل ما سبق.

- كما أنه سبحانه لمّا أنهى الكلام عن أخبار هؤلاء الرسل عقّب بقوله {وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} تذكيرًا بأن إخبار النبي ﷺ لنا عن أخبار تلك الرسل السابقة دليل على صدق نبوته؛ فمن أين له أن يعلم بتلك الأحداث؟!! ما كان له من عِلمٍ بذلك لولا وحْيُ اللَّه إليه... وفي هذا حُجة على المشركين وأهل الكتاب الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ فبيّن هذه الأمور كلها فكانت فذلكة لما قبلها.

*وأما أن هذه الآية مقدمة لما بعدها: فكما أُفِيضَ القَوْلُ في شأن القتال وما كان فيه من الحث على القتال والاعتبار بقتال الأُمَم الماضِيَةِ ومَن ضحّى وقاتل ومَن تخاذل.... فلما ذكر هذه الأمور كلها عُقّبَ ذلك بأنَّهُ لو شاء اللَّهُ ما اختلف النّاسُ في أمْرِ الدِّينِ مِن بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ على صدق ما جاءت به الرسل.

{تِلْكَ ٱلرُّسُلُ} (تلك) اسم إشارة مؤنث، و(الرسل) مذكر... فكيف يكون ذلك؟!! الجواب: لأن (الرسل) جمع تكسير؛ وجمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في تأنيث فعله والإشارة إليه، كما في قوله تعالى {قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴿١٤﴾} [الحجرات] فكلمة (الأعراب) مذكر، و(قالت) مؤنث وهذا معلوم في لغة العرب.

{فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} هل المقصود تفضيل طائفة من الرسل على طائفة من الرسل، أم فضل رسول الله على بعض الرسل؟! للعلماء قولان:

١- **القول الأول:** ذهب فريق من أهل العلم إلى أن المقصود بقوله تعالى {بَعْضَهُمْ} هو رسول الله ﷺ واستدلوا على قولهم ببعض الأدلة:

- أن الله سبحانه وتعالى لمّا قال {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ} خصّ موسى عليه السلام بتكليمه، وذكر أيضًا {وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ} أي أنه أيّد عيسى بروح القدس وهو جبريل عليه السلام؛ أي أيده به وقوّاه، ووسَّط بينهما بالإيماء إلى محمد ﷺ بوصفه لا باسمه بقوله {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ} ومن المعلوم أن أعلى الدرجات وأفضل الرسل هو محمد ﷺ فقالوا: إن المقصود بكلمة (بعضهم) هنا واحد وهو النبي ﷺ وليس الجمع.

- أيضًا لأنه لو أُريد بـ {بَعْضَهُمْ} معنى الجمع -أي بعضٌ فُضِّل

على بعض- لقال (ورفع بعضهم فوق بعض درجات) كما قال في سورة الأنعام لما أراد الله الجمع {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ} ولكنه قال في آية البقرة {رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ} فدلّ ذلك على أن المراد واحد (وهو الرسول ﷺ) وليس جمعًا.

*ولكن لماذا العدول من التصريح بالاسم إلى الوصف؟ لما فيه من الحشمة والتعظيم والتفخيم وإعلاء القدر لشأن المقصود بهذا الوصف وهو نبينا ﷺ.

- أيضًا العرب كانت من الممكن أن تعبّر بالبعض عن الشخص الواحد: (كما سئل الخطيئة: مَنْ أَشْعَرَ الناس؟ قال زهير والنابغة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث) وهو يقصد به نفسه، ولكن إبهامه لنفسه كان تفخيمًا لها وتعظيمًا لشأنها، وهذا أسلوب من أساليب البلاغة، وهو معلوم عند العرب.

٢- **القول الثاني:** المراد بـ {بَعْضَهُمْ} أي فضّل بعض الرسل على بعض الرسل؛ ففضّل موسى من بين الأنبياء بكلامه، وفضّل عيسى عليه السلام بأن أعطاه المعجزات الباهرات كإحياء الموتى، ومن المعلوم أنه كلما كثرت معجزات النبي دلّ ذلك على علو شأنه وارتفاع قدره، وكلما زيد في التفضيل زيد في الآيات البينات.

*فدل ذلك على أن بعض الرسل فضلوا على بعض، ولما كان نبينا محمد ﷺ أكثر مَن أوتي من المعجزات من الأنبياء؛ ومِن أعظم

تلك المعجزات معجزة القرآن الكريم الباقية الخالدة والتي تحدّى الله سبحانه وتعالى به الأولين والآخرين؛ دلّ ذلك على أن قوله {بَعْضَهُمْ} المراد منها فضّل بعض الرسل على بعض الرسل.

{مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ} خصّ موسى عليه السلام بتكليمه.

{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ} أن لكل نبي درجة وأعلاهم النبي ﷺ.

{وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ} آتى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام البينات المعجزات الباهرات، كما أيّد عيسى بروح القدس وهو جبريل عليه السلام؛ أيّده به وقوّاه.

إشكال:

- ورد حديث عن أبي هريرة للنبي ﷺ: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ ورَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، فَقالَ المُسْلِمُ: والذي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ علَى العَالَمِينَ، في قَسَمٍ يُقْسِمُ به، فَقالَ اليَهُودِيُّ: والذي اصْطَفَى مُوسَى علَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ عِنْدَ ذلكَ يَدَهُ فَلَطَمَ اليَهُودِيَّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إلى النبيِّ ﷺ فأخْبَرَهُ الذي كَانَ مِن أَمْرِهِ وأَمْرِ المُسْلِمِ، فَقالَ: **«لَا تُخَيِّرُونِي علَى مُوسَى، فإنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ، فأكُونُ أَوَّلَ مَن يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بجَانِبِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكانَ فِيمَن صَعِقَ فأفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كان مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ»**[١].

(١) صحيح البخاري (٣٤٠٨).

*فالمقصود من الحديث أن موسى عليه السلام له فضْل ومَكانة كبيرة أيضًا، ونهى النبي ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء.

- وورد عنه ﷺ أيضًا: «**لا تُخَيِّرُونِي مِن بَيْنِ الأنْبِياءِ، فإنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يومَ القِيامَةِ..**»[١].

فكيف الجمع بين نهي النبي ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء والمرسلين وهذه الآية التي أخبرتنا بتفضيل الله لبعض الأنبياء على بعض؟! للعلماء توجيهات:

التوجيه الأول: أن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك قبل أن يعلم مسألة التفضيل (والكلام فيه نظر).

التوجيه الثاني: أنه من باب هضم النفس والتواضع، ورسول الله ﷺ إمام المتواضعين.

التوجيه الثالث: النهي عن التفضيل في مثل هذه الحالة (التي ورد فيها الحديث) وذلك لمنع التخاصم والتشاجر.

التوجيه الرابع: النهي عن التفضيل بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ؛ فعند اليهودي موسى عنده أفضل، والمسلم عنده النبي ﷺ أفضل، والنصراني يفضل عيسى وهكذا... لذلك نهاهم الرسول ﷺ عن هذه العصبية.

---

(١) صحيح البخاري (٦٩١٧).

التوجيه الخامس: لَيْسَ مَقَامُ التَّفْضِيلِ إِلَيْكُمْ وَإِنَّمَا هي مسألة إلهية ترجع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، وهو الذي يحكم بين العباد ويفاضل بين هؤلاء الأنبياء، فنهاهم عن الاجتهاد بالرأي.

سؤال: قال تعالى {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ} وفي نفس الآية {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ} ما الحكمة من ذلك التكرار؟

التكرار للتأكيد، وأيضًا هناك نكتة في الآية: أن العرب إذا بدأت الكلام بجملة معينة ثم حدث بعد ذلك استطراد في الكلام ثم أرادت أن ترجع لنفس الكلام مرة أخرى بدأت بنفس الجملة أو بمعناها؛ كما في هذه الآية.

{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ} أي لو شاء الله ما اقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة. والمقصود بالمشيئة في الآية المشيئة الكونية القدرية وليست الإرادة الدينية الشرعية.

ملحوظة: الإرادة تكون إرادة كونية وشرعية، أما المشيئة فمتعلقة بالإرادة الكونية فقط.

{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} في أول الآية بيّن الله سبحانه أنه لو شاء الله ألّا يقتتل هؤلاء لوقع الأمر وفق مشيئته.. ثم طال الكلام بعد ذلك، فلما أراد الرجوع للكلام مرة أخرى؛ قال تعالى: {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يُرِيدُ﴾ فسبحانه فعّال لما يريد، ومشيئته نافذة ليس في أمر الاقتتال فقط ولكنها أيضًا نافذة في كل أمر. فإرادته سبحانه الكونية القدرية نافذة لا محال، وهذا مما تستريح له النفس ويطمئن له القلب.

وقد وضحّنا هذا الأمر في العقيدة؛ فإرادة الله ومشيئته الكونية بها أشياء يحبها الله ويرضاها، وأيضًا بها أشياء لا يحبها الله ولا يرضاها مثل (وجود إبليس - الزلازل -البراكين - المرض) ولكنه شاءها وأرادها كونًا لحِكَم يعلمها سبحانه.

ومن فوائد الآية:

١- هذه طبيعة البشر!! كل من لم يعتصم بالله ويتمسك بحبل الله يسيء الفهم عن الله! وينكر كل ما جاءت به الرسل.. فيحصل الاختلاف والشقاق والنزاع بينهم وليس على رسلهم فحسب.. فيُفضي ذلك كله إلى الاقتتال بينهم.

٢ - موقع اسم الإشارة (تلك) على هذا الاعتبار كموقع ضمير الشأن؛ أيْ هي قِصَّةُ الرُّسُلِ وأُمَمِهِمْ، فَضَّلْنا بَعْضَ الرُّسُلِ عَلى بَعْضٍ فَحَسَدَتْ بَعْضُ الأُمَمِ أتْباعَ بَعْضِ الرُّسُلِ؛ فَكَذَّبَ اليَهُودُ عِيسى ومُحَمَّدًا عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكَذَّبَ النَّصارى مُحَمَّدًا ﷺ.. وهكذا وقع الخلاف بمشيئة الله الكونية.

٣ - قُرِنَ اسْمُ الإشارَةِ (تلك) بِكافِ البُعْدِ؛ لأن في ذلك تنويهًا لمراتب الرسل.

٤- في الآية تمجيد للرسل وثناء عليهم بما صبروا؛ وذلك لأن هدف الرسل هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور وتبليغ دين الله وهداية البشر إلى شرع الله، لكن للأسف تكون النتيجة من الطرف الآخر الإساءة والجحود والإعراض.

٥ - في الآية أيضًا تسلية للنبي ﷺ؛ نفس السنن لا تتبدل، فكما كانت الأمم السابقة تؤذي الرسل كذلك لَقِيَ النبي ﷺ الأذى من قومه (تكذيب وعناد وطرد وإخراج من الديار وترك الأموال) كلها شدائد وأمور عِظَام يهوّنها الله عليه بإخباره عن حال مَن سَبَقَ من الرسل.

قوله تعالى: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ۝٢٥٤}.

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} صدّر الله سبحانه وتعالى الآية بالنداء للذين ءامنوا.. فدلّ ذلك على أن هناك أمرًا هامًّا. وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم أن يقدّموا شيئًا ليكون لهم ذخرًا عند الله يوم القيامة؛ ألا وهو الإنفاق في سبيل الله.. وذلك لأن الإنسان في هذا اليوم سيكون في أشد الحاجة لمثقال ذرة من الخير.

{أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم} أي أنفقوا من الرزق الذي رزقكم به الله؛ فالله سبحانه هو الرزاق وهو الذي أعطانا.. وبعد ذلك أمرنا بالإنفاق ليجازينا على هذا الإنفاق خير الجزاء.

*والإنفاق المأمور به هنا الإنفاق العام؛ الصدقة العامة (عند جماهير العلماء) الواجبة والمستحبة، وليس المقصود هنا الإنفاق في باب محدد مثل الجهاد أو غيره.. وذلك لأنه حُذِفَ المَفْعُولُ والمُتَعَلِّقُ من الآية لِقَصْدِ الانْتِقالِ إلى الأمْرِ بِالصَّدَقاتِ الواجِبَةِ وغَيْرِها.

{مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ} واليَوْمُ هو يَوْمُ القِيامَةِ؛ فلم يذكر اليوم لأنه معلوم.

ففي الآية حث آخر.. وتنبيه آخر: أن هناك وقْتًا تَنْتَهِي الأعْمالُ إلَيْهِ ويَتَعَذَّرُ الِاسْتِدْراكُ فِيهِ، فصحيفة الأعمال تُغلق بموت العباد.

{لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ} نفى أيضًا البيع والخُلة والشفاعة، وفيها تأكيدٌ آخر لتعذر استدراك الفائت من الأعمال في الدنيا.

{لَّا بَيۡعٌ} فالبيع والشراء كان في الدنيا، أما في الآخرة فلو أن للكافر ما في الأرض جميعًا ينفقه كي يفتدي من عذاب الله لا يتقبل منه.

{وَلَا خُلَّةٌ} الخُلَّة هي المودة والمحبة؛ فلا خلة ولا مودة تنفع الظالمين يوم القيامة؛ وقد نفى الله سبحانه وتعالى المودة بين الظالمين يوم القيامة كما قال تعالى في سورة الزخرف: {ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧} فمن كانت بينهم مودة في الدنيا وأخوة ومحبة في الله ستبقى في الآخرة ويشفع بعضهم لبعض،

أما الكافر فبمجرد انتهاء الدنيا تنتهي المودة والخلة وصلة القرابة، فلا ينفعه صديق ولا حميم.

{وَلَا شَفَـٰعَةٌ} الشفاعة هي الوَساطَةُ في طَلَبِ نفع للمشفوع فيه والسَّعْي في هذا، ودفع الضرر عنه.

والشفاعة المنفية هنا الشفاعة عن الكافرين؛ بدليل السياق لأنه ختم الآية بقوله {وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ}.

وإلا فالشفاعة ثابتة يوم القيامة بالكتاب والسنة والإجماع ولكن بشرط أن يأذن الله ويرضى للشافع أن يشفع، قال تعالى في سورة طـه {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾} فلا بُد أن يأذن الله ويرضى، والله لا يأذن ولا يرضى بالشفاعة للكافر.

{وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ} صيغة قصر؛ نشأت عن قوله تعالى {لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ} فضمير الفصل (هُمُ) ضمير يفيد الحصر والقصر؛ حصر الظلم في الكافرين؛ وذلك لأن أشد الظلم هو الكفر، ففيه تعريض وتهديد وتنديد بالمشركين بأنهم هم الذين جَلَبُوهُ لِأَنْفُسِهِم، فلم يظلمهم الله ولكنهم هم من ظلموا أنفسهم بمكابرتهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر، فأنتم الذين حصرتم أنفسكم في هذا الظلم البيّن الواضح برفضكم الدخول في الدين وإعراضكم عن كل خير ينفعكم في الدنيا والآخرة.

والكلام هنا للمؤمنين أيضًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى صدّر الآية بالنداء للمؤمنين وأمرهم بالإنفاق في سبيله، وكأن المعنى: إياك أيها المؤمن أن تكون مثل الكافرين الذين ظلموا أنفسهم وامتنعوا عن كل خير ينفعهم في الدنيا والآخرة.

- ففي الآية لطف ورحمة وإرشاد وتوجيه للمؤمنين، وأيضًا بها تنديد وتهديد للكافرين وبيان ما يؤول إليه حالهم في الآخرة.

قوله تعالى: {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾}.

آية الكرسي آية عظيمة، بل هي أعظم آية في كتاب الله كما جاء في «صحيح مسلم» من حديث أبي بن كعب قال؛ قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المُنْذِرِ، أتَدْرِي أيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ مَعَكَ أعْظَمُ؟**» قالَ: قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ. قالَ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ أتَدْرِي أيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ مَعَكَ أعْظَمُ؟**» قالَ: قُلتُ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]. قالَ: فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقالَ: «**واللَّهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»(١). *لِيَهْنِكَ أيْ:هَنيئًا لك.

(١) صحيح مسلم (٨١٠).

* فقد كان أُبَيٌّ يَعلَمُ الجواب حِينَ سَأَلَه رَسولُ الله ﷺ ولكنْ لم يُجِبْهُ تَعظيمًا وتَواضُعًا وتأدُّبًا معه ﷺ، فلمَّا كرَّر النبي ﷺ السُّؤالَ عَلِم أنّه يُطالِبُه بالجَوابِ، فتكلّم. وهذا من الأدب الجمّ لطالب العلم؛ ألا يتكلم ولا يتعجل بالجواب بين يدي المعلم، وينبغي لنا أن نتعلّم هذا من الصحابة الكرام.

بعض فضائل آية الكرسي:

١ـأعظم آية في كتاب الله؛ كما ذكرنا في الحديث السابق.

٢ـمطردة للشيطان: فالإنسان إذا توضأ وذهب للنوم فقرأ آية الكرسي كانت له حفظًا من الشيطان حتى يصبح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وَكَّلَنِي رَسولُ اللَّهِ ﷺ بحِفْظِ زَكاةِ رَمَضانَ، فأتانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ فأخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَصَّ الحَدِيثَ، فقالَ: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ فاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزالَ معكَ مِنَ اللَّهِ حافِظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حتَّى تُصْبِحَ، وقال النبيُّ ﷺ: **«صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ، ذاكَ شيطانٌ»**(١).

٣ـمَن قرأها دبر كل صلاة.. فإذا مات دخل الجنة: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قرأَ آيةَ الكُرسِيِّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ، لمْ يمنعْهُ من دُخُولِ الجنةَ إلَّا أنْ يمُوتَ»**(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٥٠١٠).

(٢) صحيح الجامع.

سؤال: لماذا كل هذا الفضل لآية الكرسي؟

الجواب: قال العلماء: لأن آية الكرسي فيها ذكر الحي القيوم، والحياة هي أصل لجميع الصفات، وذكر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه، وانتفاء الآفات جميعها عنه من العجز والنوم والسِّنَة، ثم ذكر ملكه وعقّب بذكر وحدانيته في ملكه، وبيّن أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، كما ذكر سعة علمه وإحاطته بكل أحوال الخلائق، ثم عقّب بأنه لا سبيل للخلق في تحصيل علم من العلوم إلا بما شاء الله تبارك وتعالى، ثم ذكر سِعَة كرسيه، وبيّن عظمته وجلاله فله العلوّ ببيان كمال اقتداره وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب، ثم ختم الآية باسمين عظيمين جليلين ألا وهما العلي العظيم.. فالآية كلها فوائد.

{ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ} بدأ آية الكرسي بأربعة أسماء: (الله – الإله – الحي – القيوم) صدّر بهم الآية، وكل اسم من أسماء الله يدل على صفة من صفاته سبحانه.

واختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم على أربعة عشر قولًا؛ ذكرها الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، وكان هذا الاختلاف بناء على تصحيح وتضعيف الأحاديث والآثار، فذهب كل فريق إلى ما يراه على حسب اجتهاده.

- ولابن جرير الطبري قول مُعتَبر (مريح للنفس) في تعيين اسم

الله الأعظم فقال: إنه لا يجب علينا تعيين اسم الله الأعظم فكل أسماء الله عظيمة، فندعوه بجميع الأسماء؛ لأن التعيين معناه تفضيل لبعض الأسماء على بعض، وأسماء الله كلها جميلة وعظيمة.

*وهذا اجتهاد مُعتَبَرٌ.. خاصة أنه ليس لدينا دليل صريح الدلالة قطعي الثبوت يتعيّن فيه اسم الله الأعظم؛ فندعوه بجميع الأسماء وكل مقام نتعبد فيه لله يكون بالاسم المناسب لهذا المقام: فاسم الله (الرزاق) أدعو به في حال طلب الرزق، وفي حال التوبة وطلب المغفرة أدعو باسم الله (الغفار) و(التواب) و(الرحيم) وهكذا.

{ٱلۡحَيُّ} الباقي؛ فحياته سبحانه كاملة ليس فيها نقص، وكل صفات الله الحسنى لم يسبقها عدم ولا يلحقها فناء.

{ٱلۡقَيُّومُ} الباقي الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم، فلا يغفل عن تدبير أمرهم ولو لحظة، ولذلك عقّب هذه الصفة بقوله {لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ}.

{لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ} (السِّنَة) مقدمة النوم، والنوم يمنع الحواس الظاهرة من الإحساس؛ فالنائم لا يسمع ولا يتكلم... إذًا فالنوم والسِّنَة نقص في الحياة... وكل ذلك منفي عن الله وينافي قيوميته سبحانه. والسموات والأرض ممسوكة بقدرته فكيف تأخذه سِنة أو نوم؟!! والسِّنة والنوم صِفتا نقص في حق الله، ننفيهما عنه مع إثبات كمال الضد؛ فننفي عنه السِّنة والنوم مع إثبات كمال حياته

سبحانه وكمال قيوميته.

ولقد نفى الله النوم أولًا التزامًا ثم تصريحًا؛ فقد قال تعالى {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ} فبدلالة الالتزام فإن القيوم هو القائم على تدبير شئون عباده فلا تأخذه سنة ولا نوم....ثم نفاه تصريحًا لتأكيد هذه الصفة فقال {لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ}.

{لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ} (له) لام المِلك؛ فله كل ما في السماوات من ملائكة وشمس وقمر وكواكب ونجوم وكل ما نعرف وما لا نعرف في العالم العلوي كل ذلك مِلْكٌ له سبحانه، كما أن له كل ما في الأرض وما تحتها وما عليها.... فهي إخبار بأن جميع مخلوقاته في ملكه وتحت قهره وسلطانه. قال تعالى { إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣} [مريم] عبودية قهر.

{مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ} أي لا يشفع أحد إلا بإذن الله ورضاه؛ فلا أحد يشفع عنده (لا ملائكة، ولا أنبياء، ولا أولياء ، ولا غيرهم) بدون إذنه ورضاه، فكلنا عبيد في ملكه، ونواصينا بيده، ولا نستطيع أن نخرج عن ملكه وتدبيره طرفة عين، قال تعالى { وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦} [النجم] وكل هذا يدل على عظمته وكبريائه.

{يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ} فهو سبحانه العليم الذي يعلم مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ.

قيل: (ما بين أيديهم) في الدنيا، (وما خلفهم) في الآخرة.

وقيل: (ما بين أيديهم): كل ما مضى من الأمور بكل التفاصيل التي وقعت، و(ما خلفهم): كل ما يُستقبل في علم الله.

فسبحانه محيط بكل أمورنا المتقدمة والمتأخرة، الظاهرة والباطنة، فالغيب عنده والشهادة شيء واحد، ولا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولهذا قال {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ}.

{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ} فلا يمكن لأحد أن يعلم أو يُحصّل أو يصل لعلم من عند الله إِلَّا إذا شاء الله سبحانه وتعالى.

{إِلَّا بِمَا شَآءَۚ} فذلك لا يكون إلا على ألسنة الرسل؛ قال تعالى في سورة الجن { فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ..} فيستحيل أن نصل إلى شيء من علم الله إلا عن طريق الوحي، والوحي لا يكون إلا مع الرسل، وقد انقطع الوحي بموت النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا يدّعي أحد بعد ذلك بالعلم من عند الله أو أنه يعلم الغيب كما يفعل بعض الناس مثل غلاة الصوفية!! فأين العقول!!

{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ} سبحان الله العظيم! فالكرسي فقط وَسِعَ السماوات والأرض، والكرسي ليس أكبر المخلوقات فأكبر المخلوقات العرش، فإذا كان الكرسي كذلك وقد وسع السماوات والأرض فعلى العقول أن تحتار ويرجع البصر خاسئًا وهو حسير، وتهتز الجبال من هذا المعنى!! فالكرسي يسع عظمة هذه السماوات والأرض بطولها وعرضها.. وفوق الكرسي أيضًا العرش الذي هو أكبر منه!! وكلها مخلوقات لله تبارك وتعالى.. فكيف برب هذه المخلوقات سبحانه! جل جلاله وتقدست أسماؤه! كيف بخالقها! كيف بمصورها! كيف ببارئها!! سبحان الله!

{وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا} لا يثقله ولا يشق عليه حفظ السماوات والأرض. و{يَـُٔودُهُ} آدَه الأَمرُ أَوْدًا من المجهود والمشقة؛ فالمعنى أنه لا يثقل ولا يشق عليه سبحانه حفظ السماوات والأرض؛ فلا يفتقر إلى شريك ولا ولد ولا صاحبة ولا مُعين فلا يعينه على رفع السماوات أحد حتى لا تقع!! فكان الله ولم يكن شيء، فالكل محفوظ بقدرة الله تعالى العلي العظيم.

{وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ} سبحانه العليّ؛ فعلوّه يشمل علو (ذات وصفات وقهر) مستوٍ بنفسه على عرشه فوق سبع سماوات استواءً يليق بجلاله وكماله وعظيم سلطانه.

{ٱلۡعَظِيمُ} في جلاله وكبريائه وقدرته وقهره وعطائه ومَنّه وأخذه، عظيم في كل شيء، ولا يُقارَن سبحانه بالمخلوقات فلا

نقول: الله أعظم من الكرسي! أو أعظم من العرش!! هذا لا يليق بجلاله ولا بعظمته، قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] فلا يقارن بمخلوقاته أبدًا مهما علت ومهما كان شأنها.

وآية الكرسي آية عظيمة تستحق وقفات ووقفات أكثر من ذلك.. فهي أعظم آية في كتاب الله، لكن لا يتسع المقام لذكر كل الوقفات.

قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

الآية دَلِيلٌ واضِحٌ عَلى إبْطالِ الإكْراهِ عَلى الدِّينِ بِسائِرِ أنْواعِهِ.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ جاء بنفي الجنس ليعُمَّ كل أنواع الإكراه؛ فلا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام لأنه مليء بالدلائل والبراهين الساطعة التي تشهد بصدقه.. وبالتالي فلا يحتاج إلى أن يُكرَه أحدٌ على الدخول فيه، فمَن شرح الله صدره للإسلام وَنَوَّرَ بصيرته دخل فيه على يقين أنه لا يوجد أعظم من هذا الدين، أما مَن طمس الله بصيرته وأعمى قلبه فإنَّهُ لَا يُفِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مُكْرَهًا؛ فالإيمان قولٌ وعمل: قول (القلب، اللسان)، وعمل (القلب، الجوارح).. وبالتالي لا بُد أن يكون القلب موقنًا (تصديق القلب).

***وقيل**: إن نفي الإكراه هنا خبر في معنى النهي؛ أي: لا

تُكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام.

***وقيل**: إنه ليس بمعنى النهي ولكنه خبر محض؛ وهذا يعني أن الله عز وجل لم يَبنِ أمر الدين أو الإيمان على الإجبار، بل إن الدين كله مبنيٌّ على النظر والتأمل والاقتناع الكامل والاختيار المحض الذي يفعله الإنسان بإرادته، ولهذا فإن الكافر المعاند الذي أقام على الكفر لم تَعُدْ له حُجّة أمام الله يوم القيامة، وقد انقطع عُذره بإصراره على الكفر.

والإجبار على الدخول في الإسلام ينتفي معه معنى الابتلاء والامتحان! والله تبارك وتعالى أراد لعباده أن يدخلوا في الدين اختيارًا لا إجبارًا حتى تكون عبادتهم له اختيارًا، والإنسان أُعْطِي حق الاختيار؛ فأمامه الخير والشر فعليه أن يختار، وهذا هو معنى الامتحان والابتلاء.. فإذا كان هناك إجبار للعبد فإن هذا المعنى سيضيع، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ.. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس]؛ فلو أراد ربنا سبحانه وتعالى أن يُجبر الخلق جميعًا على العبادة لفعل والأمر عليه يسير، ولكنه سبحانه أراد أن تكون عبادة العباد له بمحض إرادتهم.

شُبهة:

هناك بعض من آيات الكتاب وأحاديث من السنة تدل على الإكراه في هذا الأمر (دخول الإسلام بالسيف)؛ قال الله سبحانه: { قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾} [التوبة]، وقال الرب سبحانه: { وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾} [البقرة].

وحديث: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»(١).

فكيف نجمع بين كل ما تقدم ذكره؟

أما الآية الأولى: فللعلماء فيها قولان:

١- **القول الأول:** الآية (محكمة) لكنها خاصة لأنها نزلت في أهل الكتاب (يهود،نصارى) والمعنى أنهم ليسوا مُجبرين على الدخول في الدين فإن شاءوا دخلوا.. وإن لم يُريدوا فلهم الحق في عدم الدخول.. ولكن عليهم أن يُعطوا الجزية.

واستدلوا ببعض الأدلة منها أثر لابن عباس (لكن رواه الإمام

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

الطبري مرسلًا): عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ قال: كَانتِ المرأةُ تكونُ مِقْلاةً فتجعلُ على نفسِها إنْ عاش لها ولدٌ أنْ تُهَوِّدَهُ، فلمَّا أُجْلِيَتْ بَنو النَّضير كانَ فيهِمْ أبناءُ الأنصارِ، فقالوا: لا ندعُ أبناءَنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ} وقال: المقلاةُ التي لا يعيشُ لها ولدٌ[1].

*سواء كان هذا الأثر ثابتًا أو غير ثابت..فالآية خاصة بأهل الكتاب عند جماهير العلماء.

٢- **القول الثاني:** أن آية الجزية (منسوخة) وقد نسخت بآيات السيف (وهذا الرأي مرجوح).

*والقول الراجح هو الأول.

- أما فيما يخص الآيات التي ورد فيها قتال المشركين والكفار فقد جاء من قبل بيان مسألة هامة ألا وهي: أن الشريعة جاءت بتحقيق المصالح وتعطيل المفاسد؛ ولما كان هَمُّ المشركين الأكبر والأعظم هو الصَدُّ عن دين الإسلام وعن سبيل الله ونشر الفساد بكل أنواعه في الأرض، ومنه الفجور والمجون والإفساد في الأرض بكل الوسائل.. كان من أعظم المصالح التي تتحقق للعباد قتال هؤلاء.. وإلا فسينتشر الفساد والشر ويعُمَّان الأرض.

وما نعيشه من واقع الآن يشهد بذلك فقد وصل الفساد عند الكفار

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٢).

إلى درجة زواج الرجال ببعضهم والنساء ببعضهن!! والمخدرات والإباحية والفجور.. أشياء منتشرة بصورة لم يسبق لها مثيل، ولما ضعف الإسلام ولم يعد له اليد العليا أصبح هذا هو حال أتباعه حيث الإذلال: إما بالاحتلال العسكري وإما بالاحتلال الفكري.

- ولذلك كان من أعظم المصالح في الشريعة أن يُقاتَل هؤلاء حتى يعُمّ السلام والإسلام والأمن والأمان ويُعبَد الحق سبحانه على بصيرة، ويعيش الناس على التوحيد الذي أراده لهم ربهم إرادة شرعية.

- أما المقصود بحديث النبي ﷺ «**أمرت أن أقاتل**» ليس الإكراه على الدخول في الدين... وكيف يُكره المرء على الدخول في الدين والإيمان أصلًا قول وعمل!! فالعقيدة محلها القلب ثم تخرج لتُترجم بأعمال الجوارح، فإن لم توجد عقيدة صحيحة فماذا يفيد دخول شخص بهذه الصورة في الإسلام!!

*فالحق سبحانه حين أمر رسوله الكريم بالقتال لم يكن هذا من أجل الإجبار على الدخول في الدين، ولكن كان هذا لدفع وقطع شر الكافرين وإعلاء كلمة الدين وإقامة المصالح ودفع المفاسد.

{قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ} (الرُّشْدُ): حسن التصرف، (الْغَيّ): سوء التصرف.

{فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ} فما هو الطَّاغُوتِ؟

*الطاغوت لغةً: الزيادة ومجاوزة الحد.

*اصطلاحًا: كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع (تعريف ابن القيم).

- قال ربنا عز وجل: {إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾} [الحاقة] المقصود هو طغيان الشيء بتجاوز الحد، وقال سبحانه: {ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾} [النازعات] فقد أمرَ فرعونُ الناسَ أن يعبدوه من دون الله! وأي مَلِك يأمر الناس أن يطيعوه ويتركوا أوامر رب العالمين فهو طاغوت.

- وقد لا يأمر المعبود غيره بعبادته ولكنهم يعبدونه من غير علمٍ ولا أمرٍ منه مثل عُبَّاد (الأصنام، الأوثان،...).

- فكلمة (الطاغوت) هي كلمة شاملة، شملت كل ذي طغيان على الله عُبِدَ من دون الله إما بقهر من المعبود وإما برغبة وإرادة من العابد (تعريف ابن جرير الطبري).

*بالنظر في أقوال العلماء بالنسبة لتعريف الطاغوت نجد أنها تعددت ومنها:

***قيل**: الشيطان. ***وقيل**: الكاهن. ***وقيل**: الساحر.

- التعريفات كثيرة ولكن تعريف كلٍّ من (ابن القيم، ابن جرير الطبري) هو التعريف الكامل الشامل.

{فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا} فمَن يترك عبادة الطواغيت ويؤمن بالله إيمانًا كاملًا جازمًا فقد وصل إلى أعظم شيء في الدنيا وهو الاستمساك بالعروة الوثقى.

فما هي (العروة الوثقى)؟

العروة: في أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشيء من عراه؛ أي من الجهة التي يجب تعليقه منها. والوثقى: صيغة مبالغة على وزن (فُعلى) أي الثقة بشدة، ثم بيَّن وثاقتها بقوله {لَا انْفِصَامَ لَهَا} فمَن تمسّك بدين الله فقد استمسك بالعروة الوثقى أي الطريقة المثلى التي لن ينفصل بعضها عن بعض.

عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، قَالَ: كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ فِي نَاسٍ.......... قَالَ رَجُلٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ، وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ؟ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، رَأَيْتُنِي فِي رَوْضَةٍ - ذَكَرَ سَعَتَهَا وَعُشْبَهَا وَخُضْرَتَهَا - وَوَسْطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ، فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: ارْقَهْ، فَقُلْتُ لَهُ: لَا أَسْتَطِيعُ، فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: وَالْمِنْصَفُ الْخَادِمُ - فَقَالَ بِثِيَابِي مِنْ خَلْفِي - وَصَفَ أَنَّهُ رَفَعَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِيَدِهِ - فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى الْعَمُودِ، فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقِيلَ لِيَ: اسْتَمْسِكْ. فَلَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي، فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**تِلْكَ الرَّوْضَةُ الْإِسْلَامُ، وَذَلِكَ الْعَمُودُ**

عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَأَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ» قَالَ: وَالرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ[١].

{وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} خُتِمت الآية بقول الحق سبحانه {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} هذا التذييل يحمل العبد على الإيمان ويردع الكافر عن كفره ونفاقه لأن فيه وعيد ووعد.

- فالله هو السميع الذي يسمع أقوال العباد كلها (الكافر، المؤمن، المنافق،.. الجميع) وهذا يحمل العبد على الدخول في الإسلام والامتثال لأوامر الله، كما أن فيه ردعًا للكافر لأن الله يسمع أقواله كما أنه يعلم ما في قلبه لأنه هو العليم.

*فخُتمت الآية بهذين الاسمين لبيان عظمة وجلال الرب سبحانه وسعة علمه وسمعه جلَّ جلاله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٣)، ومسلم(٢٤٨٤).

قال الله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ
قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ
إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ
فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي
مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ
لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ
طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ
وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ
لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

{ٱللَّهُ} الحق سبحانه بدأ الآية باسم الجلالة.

{وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} سبحانه هو المعين لهم والمُحب والمتولي لأمرهم بفضله وكرمه ورعايته وعنايته.

{يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ} وهو الذي سيُخرجهم من الظلمات (ظلمات الجهل، ظلمات الكفر، ظلمات المعاصي، ظلمات الشهوات والشبهات،.. كل أمر سيئ).

- فبكرمه وإحسانه وودّه بأهل الإيمان سوف يُخرجهم من كل ظلمة إلى النور (نور الإيمان، نور الطاعة، نور اليقين والمحبة، نور الاستئناس،.. كل أمر جميل) كل هذا سيصلون إليه بتوفيق من الله وولايته لهم جلَّ جلاله.

{وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ} أي الذين أصرّوا على الكفر والعناد مَن الذي سيتولاهم؟ وليّهم الطاغوت؛ والطاغوت اسم للجمع والمفرد، فما الذي سيفعله أولياؤهم بهم؟ فبعدما رأوا نور الهداية والإسلام بما يحويه من آيات بينات على صدق هذا الدين سيُخرجهم أولياؤهم من هذا النور إلى الظلمات (الشهوات، الشبهات،الكفر، الغي،الضلال، الظلم، وكل قبيح).

سؤال: حين تكلم الله عز وجل عن النور أفرد اللفظة، وحين تكلم عن الظلمات أتت الكلمة بصيغة الجمع (وهذا كثيرًا ما يحدث في القرآن) فلماذا؟

الجواب: لأن النور شيء واحد؛ فالحق واحد وله طريقٌ واحد..
أما الضلال ففنونه كثيرة جدًّا كما أن طُرقه متعددة؛ قال الحق تبارك وتعالى: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣} [الأنعام].

والإنسان إذا ما استقام على الطاعة عاش في راحة لأنه خرج من التخبُّط والتشتت وسار في اتجاهٍ واحد وهو طريق الهداية.

{أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ} هؤلاء الذين استجابوا للشياطين مثواهم النار.

{أولئك} اسم إشارة للبعيد يدل على أنهم بعيدون غاية البُعد عن الخير والهدى.

{أَصْحَابُ النَّارِ} إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلازم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه.

{هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} تأكيد لبقائهم فيها واختصاصهم بها.

نُكتة الآية: لم يأتِ في الآية مقابَلَة بين وعد المؤمنين ووعيد الكافرين كما هو معهود في آيات القرآن! فلماذا اكتفت الآية بذكر وعيد الكافر {أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ}؟

*قال بعض أهل العلم: إن هذا لتعظيم أمر المؤمنين، فليس هناك حاجة لبيان جزائهم.. فشأنهم واضح ويكفيهم أن الحق سبحانه قال

{ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟} فدلّ على الوعد، وكفى بها نعمة ومنزلة وشرفًا أن يكون الله هو وليّ المؤمن.

قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾}.

{أَلَمْ تَرَ} كلمة عندما يسمعها المخاطب بها يشعر بشيء من التعجب، أما لفظها فهو لفظ استفهام.

ورد بأثر صحيح عن مجاهد أنه قال: هذا المَلك هو مَلك بابل، واسمه (النمرود بن كنعان) أول من تجبّر وادّعى الربوبية في زمن إبراهيم عليه السلام.

{ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ} المُحاجاة هي: المُغالبة بالقول؛ يُقال: حَاجَجْته فحَجَجْته: غالبته فغلبته؛ أي خاصمته بالقول فتغلبت عليه.

{فِى رَبِّهِۦ} **هل الضمير يعود على إبراهيم أم أنه عائد على هذا الطاغية المتجبر؟** للعلماء قولان:

١- منهم مَن قال: إن الضمير عائد على المَلِك الظالم.

٢- ومنهم من قال: إنه عائد على إبراهيم عليه السلام وهذا هو الأظهر.

{أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ} **فمَن الذي أوتي المُلك: إبراهيم عليه السلام أم هذا الطاغية المتجبر؟** وهذه أيضًا للعلماء فيها قولان:

القول الأول: إن الهاء عائدة على إبراهيم عليه السلام، واستدلوا بقوله تعالى: { فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾} [النساء] أي سلطانًا بالنبوة والقيام بدين الله تعالى.

- كما قالوا: كيف يُعطي الله لكافرٍ المُلك ثم يدّعي الربوبية!!

- واستند أصحاب هذا الرأي إلى قَاعِدَة (عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب) وكلمة (إبراهيم) أقرب المذكورين إلى هذا الضمير، فوجب أن يكون هذا الضمير عائدًا إليه. هذا رأي بعض العلماء ولكنه مرجوح، وجماهير المفسرين على خلافه.

القول الثاني: الضمير عائد على هذا الإنسان الظالم.. وردّوا على الفريق الأول بالكثير من الحجج فقالوا:

أ- أن الملك المذكور في آية سورة النساء التي استدلوا بها لم يكن لإبراهيم، ولكنه عائد على ذريته... فقد جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وما ورد أي دليل لا من الكتاب ولا السنة على أن إبراهيم عليه السلام كان ملكًا.

ب- المراد هنا هو مُلك التمكن والقدرة والبسطة في الدنيا وليس المقصود النبوة.

ج- أما بالنسبة لقاعدة أقرب مذكور فليست شرطًا لأن هناك

روايات كثيرة واردة بأن الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام هو المَلِك، فعود الضمير إليه أولى من هذه الجهة.

وقد احتجّ أصحاب الرأي الثاني لمذهبهم أن قوله تعالى {أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ} يحتمل وجوهًا؛ وكلٌّ واحدٍ منها إنما يصح إذا قلنا إن الضمير عائد إلى المَلِك لا إلى إبراهيم عليه السلام؛ وهذه الوجوه منها:

١- أن الله عز وجل قد أعطاه ووسّع عليه في العطاء ووهبه مُلكًا عظيمًا، وتلك نعمة كبيرة من الله، فيُصبح المعنى: أنه عندما أُعْطِي المُلْك بدلًا من أن يشكر ربه على ما أعطاه.. تولّى وتكبّر وعصى ربه وفعل عكس ما كان يجب عليه من الشكر لأجل سابق العطاء!! قال الرب سبحانه: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾} [الواقعة] أي جعلتم منّة الله عليكم برزقه إياكم أنكم تكذبون وكان الواجب فعل العكس!!

٢- أن المقصود من هذه الآية بيان كمال حال إبراهيم ﷺ في إظهار الدعوة إلى الدين الحق؛ فلم يكن مَلِكًا.. ولو أنه كان مَلِكًا وقام لمناظرة مَلِك مثله أو حتى أي شخص لكان الأمر عاديًّا لأنه مَلِك وله سُلطة.. أما أن يكون إنسانًا عاديًّا ويقف ليناظر مَلِكًا ظالمًا عاتيًا جبارًا فإن هذا يدُل على مكانة إبراهيم عليه السلام وكيف أنه أدى الأمانة على أبلغ وجه وأظهر دين الله ودعا إلى التوحيد حتى لو كان ذلك على حساب نفسه.

فقد وقف أمام حاكم طاغية بمعنى الكلمة يدّعي الربوبية بل ويقول: أنا أحيي وأميت!

٣- كما أن إبراهيم ﷺ لو كان هو المَلِك لما قدر الكافر أن يقتل أحد الرجلين ويستبقي الآخر دون أن يتدخل هو لمنع ذلك!

فكل هذه الأمور تدل على أن المقصود {أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ} لم يكن إبراهيم عليه السلام بل كان هذا الملك الطاغية.

والآية بدأت {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} ثم تَلَا ذلك {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ} وهذا جواب لسؤال، فأين السؤال؟ السؤال محذوف، ولكن ما هو تقديره؟

على مدار الأزمنة ومنذ أن خلق الله آدم إلى أن بعث نبينا ﷺ، كان المنكرون لما أرسل به الرسل (ينكرون وجود الله، ينكرون نبوة هذا النبي الذي يقوم بالدعوة) ويُطالبونه بإثبات أمرين:

١- إثبات أن الله هو الخالق. ٢- إثبات أنه مُرسَل من عند هذا الخالق.

وهذا ما حدث مع إبراهيم عليه السلام؛ وكأن هذا الطاغية الذي كان مدّعيًا للربوبية قد وجّه لإبراهيم عليه السلام سؤالًا تقديره: أريد أن تُثبت لي أن لهذا العالَم إلهًا غيري.. وأنك أتيتَ برسالة من عند هذا الإله!!

والمعاند والمكابر والخصم الذي يُنكر لا بُد أن يُطالب مَن

يُناظره بتقديم الإثبات على صحة ادّعائه بأن للعالم إلهًا.. وإثبات نبوة مَن يدعي النبوة، فالطاغية الذي كان على عهد إبراهيم عليه السلام سأله: مَن هذا الرب؟ وما هي صفاته؟ كما سأله أن يُثْبِت أنه رسول من عند هذا الرب، فأجاب إبراهيم {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}.

وقدّم الله عز وجل في أكثر من موضع في القرآن (الموت) على (الحياة) وذلك من أجل أن يُظهر للإنسان مدى حقارة هذه الدنيا فشأنها ضعيف وعمرها قصير.. فالأصل هو الموت.. وعلى العاقل أن يعي ذلك، لكننا نجد في هذه الآية تقديم (الحياة) على (الموت) {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} فلماذا؟ لأن المعاند المشاقق المُنكِر إذا ناظره مَن يدّعي أمرًا ما.. وأراد أن ينتصر لما يدَّعيه فعليه أن يأتي لهذا المعاند بأوضح وأقوى الأدلة حتى يُنهي هذه المناظرة والجدال منتصرًا بأدلته فلا يستطيع بعدها أن يسترسل في عتوّه وجبروته واستمراره في العناد.

- فذكر الحياة أولًا لأن الحياة أمرها عجيب {وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١} [الذاريات] هذا الأمر العجيب لا بُد أن يكون له خالق، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يذكر أمرًا من شأنه أن يُبكم هذا الطاغية ويُنهي النقاش معه ولكنه تمادى فماذا قال؟ {قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ} يُقال إن هذا المَلِك الكافر دعا شخصين؛ فقتل أحدهما واستبقى الآخر، وقال: أنا أحيي وأميت!!

{قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ} والسؤال: هل إبراهيم عليه السلام أقرّه بالدليل الأول ومن ثمَّ انتقل إلى الدليل الآخر؟ من المُحال أن يكون هذا هو الواقع بل على العكس فلقد ألزمه إبراهيم عليه السلام على طرد هذه المعارضة، (فإذا كُنتَ قد اعترضت على أن الله هو الخالق وأن لك القدرة على الإحياء والإماتة فاستمر معي في المناظرة)، وبالتالي فإن هذا يُعد استكمالًا للدليل الأول وليس دليلًا آخر.

وقفة:

لا ينبغي أن تكون هناك مناظرة بين اثنين فيذكر أحدهما دليلًا أو حجة أو ربما ادّعاء ثم يتركه المحق القادر على الجواب بدون رد!! لأن عدم الرد عليه يخلق حالة من البلبلة عند السامع.. وهذا من أخطر الأشياء (إلقاء الشُّبهات على الأسماع وعدم الرد عليها).

{فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ} غلب وقهر، وتحيّر وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم؛ لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه.

{وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} لماذا لا يهدي الله القوم الظالمين؟ لأن الظالم يظلم نفسه بالعناد والإصرار وعدم تقبُّل الحق؛ فقد كفر وادّعى الربوبية بالرغم من تيقنه أنه ليس إلهًا ولا ربًّا، بل بالمكابرة والعناد أصرّ على ظلمه لنفسه بإيقاعها في الخطأ، والله عز وجل لا يهدي القوم الظالمين.. ليس إجبارًا ولا إلزامًا ولكنهم هم

مَن أرادوا ذلك.

قوله تعالى: { أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾}.

الآية السابقة لهذه الآية جاء فيها إثبات انفراد الله عز وجل بالربوبية والذي يستلزم الانفراد بالألوهية... وقد كان لدى العرب إشكال في توحيد الألوهية لا توحيد الربوبية؛ فقد كانوا يعترفون لله بالخلق والرزق ولكنهم كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى.

- فجاء الإسلام ليُبين قضية تقرير توحيد الربوبية والألوهية وكذا الأسماء والصفات وكل ما أنكره القوم.

- آية المناظرة السابقة: جاء فيها تقرير لانفراد الله سبحانه بالربوبية والألوهية كما سبق القول، ثم أعقبها إثبات لشيء أنكره مُشركو العرب (البعث، النشور، الحشر) فإلى جانب شرك الألوهية كانوا يُنكرون البعث، فجاء في هذه الآية تقرير لقضية البعث.

{أَوْ كَٱلَّذِى} تشبيه. كما ورد في حديث النبي ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْخَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ:

«أُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ»[١].

{مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ} فمَن الذي مرّ على القرية؟ جاء في كتب التفسير الكثير من الأقوال ولكن ليس لدينا نص صريح صحيح يدل على اسم هذا الشخص.. كما أن القرية غير معروفة أيضًا، والمقصد من الآية ليس معرفة الشخص أو القرية ولكن تقرير قضية البعث وبيان قدرة الله عز وجل، وإذا كان الحق سبحانه قد أبهم اسم الشخص واسم القرية فلا داعي للبحث عن أشياء ليس عليها أدلة صحيحة.

{وَهِيَ خَاوِيَةٌ} أي فارغة خالية من السكان.

{عَلَىٰ عُرُوشِهَا} جمع عرش، وهو السقف المرتفع. فالرجل الذي مر على هذه القرية وجدها خالية من البشر وليس هذا فقط..بل وجدها وقد سقطت سقوفها على الجدران وهذا هو أشد أنواع الخراب، هذا المشهد جعله يتعجب قائلًا: {قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا} استفهام إنكار واستبعاد، لقد أنكر البعث واستبعده، فالأمر ليس لديه فيه يقين.

{فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ} حين أنكر هذه القضية أماته الله سبحانه مائة عام ثم أحياه بعد هذه المدة الطويلة.

{قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ} فسأله الحق سبحانه كم لبثت، ولا يقول أحد أن مَلَكًا هو الذي سأل؛ لأن الله تبارك وتعالى هو الذي سأل بكيفية لا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣١).

نعلمها.

{قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} وكان هذا هو تقديره للمدة التي لبثها.

{قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ} (بل) هنا هل هي للإضراب الانتقالي أم للإضراب الإبطالي؟ إضراب إبطالي، فيكون المعنى: الأمر ليس كما تظن أنك لبثت يومًا أو بعض يوم.. ولكنك لبثت مائة عام على هذا الوضع! ثم بيَّن له الحق سبحانه دلائل القدرة الإلهية فقال: {فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ} يتسنه: يتغير؛ وأصل كلمة يتسنه مشتقة من السنة (مر السنين): أي لم تغيّره السنون التي أتت عليه كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾} [الحجر] فمسنون أي متغير.

{وَٱنظُرْ} النظر: تفريع على قوله {لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} فقال: {فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ} {وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ} والأمر بالنظر جاء للاعتبار لا للرؤية، فاعتبر من هذا المشهد العجيب؛ لأنه بعد مرور مائة عام لم يتغير طعام ولا شراب، أما الحمار فقد تحلَّل!!

{وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ} فأحيا الله جسده ونفخ فيه الروح وبيَّن أن الطعام والشراب لم يتغير، ثم أحيا الحمار بعد أن كان عظامًا بالية!

{وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ} بعد أن تحلّل الحمار أعاده الله للحياة من

جديد.

{كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا} ننشزها: النشوز بمعنى: الارتفاع، قال تعالى {وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ١٢٨} [النساء] أي تعالى عليها وأعرض.

والمعنى: أمر الحق سبحانه العظام فتجمعت ورُكبت فوق بعضها فارتفع.. ثم أمر كل جزء ليعود إلى ما كان عليه فعاد بعضها على بعض حتى اتصلت على نظام، ثم بسط اللحم عليها، ونشر العروق والأعصاب واللحوم والجلود عليها.. حتى عاد الحمار على هيئته التي كان عليها قبل موته.

وهناك قراءة أخرى لكلمة (ننشزها) وهي: (ننشرها) بالراء؛ وتعني الإحياء.

{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ} فلما رأى الأمر بعيني رأسه اعترف بقدرة الله على البعث والنشر والحشر وأن الله على كل شيء قدير.

- وهناك قراءة بلفظ الأمر ﴿إِعْلَمْ أن الله على كل شيء قدير﴾ أي عليك أن تعلم بقدرة الله جلَّ في علاه.

{قَدِيرٞ} أي أن الله قادر على البعث والنشر والحشر.

*و(القدرة) صفة يُتَمَكَّنْ بها من الفعل بلا عجز.

*أما (القوة) صفة يُتَمَكَّنْ بها من الفعل بلا ضعف، كما قال الحق سبحانه: {ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ﴿٥٤﴾} [الروم].

والفرق بين القوة والقدرة:

القوة: صفة يُوصف بها ذو الإرادة وغير ذي الإرادة؛ فتقول: (المَبْنَى قوي والرَّجُل قوي)، أما القدرة: فلا يُوصف بها إلا ذو الإرادة؛ فتقول: (الرجل قادر) ولا تقول: المَبْنَى قادر.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ
قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ
فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ
سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ
حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ
(٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى
يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا
كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦٤) ﴾

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ} في هذه الآية سؤال إبراهيم عليه السلام ربه عن كيفية إحياء الموتى، وهذه الآية قد تُحدث لبسًا لدى البعض.. وسنوضح الأمر بإذن الله تعالى.

سأل إبراهيم عليه السلام الله عز وجل أن يريه ببصره كيف يحيى الموتى؛ وقد كان سؤال إبراهيم من باب الترقي من علم الخبر إلى علم المعاينة والمشاهدة، قال نبينا ﷺ: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**»[(١)].

فَلَمْ يَكُنْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَاكًّا فِي إِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَوْتَى قَطُّ! ومَن ادّعى هذا فهو قول مردود على صاحبه...وذلك لأسباب:

- قال النبي ﷺ: «**نَحْنُ أحَقُّ بالشَّكِّ مِنْ إبْراهِيمَ**»[(٢)]. وقول النبي ﷺ (نحن) على سبيل التواضع منه.

*قد يَفهم البعض من هذا الحديث أن إبراهيم شك ونحن أحق منه!! وليس هذا مفهوم الحديث..... بل أرادَ بذلك النبي ﷺ المُبالَغة في نَفْيِ الشَّكِّ عن نبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أي: إذا كنَّا نحن لا نَشكُّ في قُدْرةِ اللهِ على إحْياءِ الموتى، فإبراهيمُ أَوْلَى بعدَمِ الشَّكِّ، وإنَّما سَأَل إبراهيمُ ربَّه أنْ يُرِيَه كَيف يُحْيِي الموتى عِيانًا ومُشاهَدة فينتقل من مرتبة (علم اليقين) إلى (عين اليقين).

---

(١) مسند أحمد (١٨٤٢).
(٢) صحيح البخاري (٤٥٣٧).

- فالشك يقع في القلوب التي امتلأت بالوسواس من الشيطان وقد قال الله تعالى عن عباده المؤمنين {إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴿٤٢﴾} [الحجر] فَالشَّكُّ يَبْعُدُ عَلَى مَنْ تَثْبُتُ قَدَمُهُ فِي الْإِيمَانِ فَقَطْ فَكَيْفَ بِمَرْتَبَةِ الأنبياء!! ونبي الله إبراهيم عليه السلام إنما هو خليل الرحمن الذي اصطفاه الله عز وجل ليكون من أولي العزم من الرسل، وجعل في ذريته الكتاب، فكيف له أن يشك؟!! حاشاه أن يفعل..

ويتضح لنا الأمر أكثر عند معرفة مراتب اليقين الثلاثة:

١-(**علم اليقين**): كعلمنا - أهل سنة وجماعة - ونحن في الدنيا بأن الله خلق الجنة والنار يقينًا لا تفنيان.

٢-(**عين اليقين**): عندما نرى بأعيننا الجنة والنار يوم القيامة {وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾} [الشعراء].

٣-(**حق اليقين**): يتحقق عندما يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار... بهذا يكون حق اليقين.

- هذا هو موقف إبراهيم عليه السلام؛ هو عنده (علم اليقين) بقدرة الله سبحانه وتعالى على البعث، ولكنه أراد أن يرتقي من مرتبة (علم اليقين) إلى مرتبة (عين اليقين) أي يرى بعينه هذا الإيمان الذي ملأ قلبه.

- والدليل على أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان عنده (علم

اليقين) بقدرة الله على إحياء الموتى أنه سأل بـ {كَيْفَ} فالسؤال بكيف يثبت أنه تقرر بداخله ويسأل عن كيفيته لا عن وجوده، فهو شيء متقرر ثابت الوجود عند السائل والمسئول.

***مثال**: أحد يعلم أن الطائرات تطير في السماء فذهب إلى المصنع ليرى كيفية صناعة الطائرة بهذه الهيئة التي تمكنها من الطيران بهذه الصورة العجيبة! فهو لا يشك في وجود الطائرة وإنما أراد أن يرى بعينيه كيفية طيرانها.

- إذًا كان سؤال إبراهيم تقريرًا للموجود لكن السؤال عن الهيئة والكيفية، ويختلف السؤال بـ (كيف) عن سؤال الشاك الذي قال {أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} فالسؤال هنا للإنكار والاستبعاد، أما سؤال إبراهيم لتقرير الموجود.

وقد يتطرق إلى بعض الأذهان أن السؤال ربما يكون ظاهره للاستعجاز! ويدفع هذا التوهم بما جاء بعدها مباشرة في الآية {قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ} فجاءت كلمة (بلى) لانتفاء أي شك، وتأكيد جازم بأن إبراهيم عليه السلام لم يشك أبدًا في قدرة الله على البعث.

{وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} قد يُتوهَّم أيضًا للبعض أن قلب إبراهيم عليه السلام فاقد للطمأنينة! وهذا غير صحيح؛ وإنما أراد الخليل أن يُعاين ويُشاهد فيزول عن قلبه التفكير في كيفية إحياء الموتى فيسكن قلبه ويدفع عنه عَنَت ومشقة الفِكْر فِي هيئة صُورَةِ الْإِحْيَاءِ وكيفيتها.

{قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا} فصرهن: من الإمالة، والضم والجمع والتقطيع. فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير ويضمهم ويجمعهم إليه ويذبحهم، ثم يجعل على جبل جزءًا من الطيور ثم يدعوهن بأسمائهن (أي بأسماء الطيور اللاتي قطعتَهن: حمام، غراب،..) فيأتينك مسرعات.

نكتة لطيفة في: {يَأْتِينَكَ سَعْيًا}: لم يقل الله عز وجل (يأتينك طيرانًا) على الرغم من أن الأصل في الطيور الطيران وليس السير والسعي! ولكن قال {يَأْتِينَكَ سَعْيًا} لأن السعي أثبت للنظر؛ حيث يستطيع إبراهيم أن يتحقق من أشكالها ويتعرف على أن هذه الطيور هي التي ذبحها وفرّقها على الجبال بيديه حقًّا... فيزيد القلب إيمانًا في كيفية الإحياء وليس أصل الإحياء كما فصّلنا.

{وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} عزيز لا يعجزه شيء ولا ينال منه شيء، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، حكيم في أفعاله وأقواله، فكل شيء قدّره الله في كونه بحكمة.

قوله تعالى: { مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾}.

عَوْدٌ إلى التَّحْرِيضِ عَلى الإنْفاقِ مرة أخرى؛ فقد سبق

التحريض على الإنفاق في قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ والتحريض هنا ببيان مقدار المضاعفة، ولتقريب صورة هذه المضاعفة للأذهان بهذا المثل؛ فقد ضرب الله مثلًا للحبة التي أُلقت في الأرض واختفت عن الأنظار ثم أنبتت سبع سنابل، وفي كل سنبلة مائة حبة، ينظر المؤمن لهذا المثل ببصره فكأن القلب تبع لذلك شاهد هذه المضاعفة بعين البصيرة؛ فهو بمثابة إضافة الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني، فتجود نفس المؤمن بالإنفاق في سبيل الله.

﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ تجمع كلمة (سنبلة) على (سنابل) جمع تكسير، وتجمع أيضًا على (سنبلات) جمع مؤنث سالم كما ورد في سورة يوسف ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ﴾ فلماذا وردت في البقرة بصورة جمع التكسير وليس جمع المؤنث السالم؟ في المسألة نكتة رائعة: جمع المؤنث السالم -في الغالب- يدل على جمع قلة لذلك لم يقتضِ المقام التكثير في سورة يوسف؛ فقد كانت مجرد رؤيا للملك وهذه السنبلات تعبيرًا عن السنوات التي قدرها الله عز وجل لهم...أما في آية البقرة فجاءت كلمة (سنابل) جمع تكسير بصيغة الكثرة ليناسب مقام مضاعفة الأجور والحسنات.

﴿وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالله عز وجل لا يضاعف لكل منفق وإنما تكون المضاعفة بقدر ما يعلمه الله من

العبد من نيته وإخلاصه في نفقته؛ وهل كان مخلصًا أم كان هناك حظٌّ من حظوظ النفس؟ هل يتبع النفقة مَنٌّ أو أذى؟ هل النفقة تكون من سعة أم ينفق المنفق وَقد قُدر عليه رزقه؟ وهل النفقة من حلال طيب أم من مال حرام؟ فهناك أشياء كثيرة يترتب عليها مضاعفة الحسنات والأجور؛ قال النبي ﷺ: «**مَن تَصدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولَا يَقْبَلُ اللَّهُ إلَّا الطَّيِّبَ، وإنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**»[١]. *فلوه: المُهر الصغير.

يُخبِرُ النبي ﷺ أنَّ مَن تَصدَّقَ بقِيمةِ تَمرةٍ مِن كَسْبٍ طيِّبٍ حَلالٍ فإن الله يَتقبَّلُها بيَمينِه، وكِلْتَا يَدَيْه تعالَى يَمِينٌ، ويربيها له كما يُربِّي أحدكم مُهْرَه الصَّغيرَ مِن الخَيْلِ حتى تَكونَ تلك الصَّدقةُ مِثلَ الجبَلِ يومَ القِيامةِ ما دامت خالصةً لله سبحانه وتعالى ومِن كسْبٍ حلالٍ.

واختلف في تفسير الآية: فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة. **وقيل**: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به.

وهنا أربعة أُمور: ١- مُنفِق. ٢- نفقة (شِقِّي الممثل). ٣- باذر. ٤-بذرة (شِقَّي الممثل به). فذكر سبحانه من كل شق (الممثل، الممثل به) أهم قسميه؛ فذكر من شق الممثل: المُنفِق؛ لأن المقصود ذِكر

---

(١) صحيح البخاري (١٤١٠).

حاله وشأنه، ولم يذكر النفقة؛ لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شق الممثل به: البذرة؛ لأنه المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، ولم يذكر الباذر؛ للإيجاز فالأمر لا يتعلق بذكره!!

فسبحان الله! هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان!! وهذا كثير في أمثال القرآن بل كل القرآن.

{وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياق الآية:

{الواسع} فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة من الله سبحانه فهو واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل. فلا ينبغي للعبد أن يضيق واسعًا أو يحقّر من نفقته؛ فقد قال النبي ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ**»(١)، وقال أيضًا: «**لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شَيئًا**»(٢). فلا يستبعد الفضل عن الله مهما كان قدر إنفاقه فالله واسع عليم.

{عليم} أي عليم بمَن يصلح لهذه المضاعفة وهو أهل لها، ومَن لا يستحقها، فإن كرمه سبحانه وفضله تعالى لا يناقض حكمته، بل سبحانه يضع فضله في موضعه لسعته ورحمته، ويمنع فضله مَن ليس أهلًا له بحكمته وعلمه.

فقد يعطي الله جبالًا من الحسنات يوم القيامة على عمل يراه

---

(١) صحيح البخاري (١٤١٧).
(٢) صحيح مسلم (٢٦٢٦).

صاحبه صغيرًا أكثر من أجر يعطيه لآخر قد يكون معجبًا بعمله، فهو سبحانه وتعالى عليم بحال عباده يعلم حال المنفق الذي يستحق التضعيف ممن لا يستحق؛ ففضله ورحمته لها مواضع وموانع.

قوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾}.

{مَنًّا} المنّ أصله الإنعام والفضل. وله وجه آخر من النقص والبخس؛ ومنه قوله تعالى: { وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾}[القلم] أي غير مقطوع ولا ممنوع. وسمي الموت بالمنون لأنه يقطع عمر الإنسان.

{وَلَآ أَذًى} الأذى التطاول والتفاخر. ومعنى الآية: أنه بعد الإنفاق في سبيل الله لا ينبغي على العبد أن يمنّ بالإنعام والعطايا، ولا يحدث منه أذى وتفاخر ولا يؤذ من أعطاه ويتفاخر عليه فيقع في الرياء فيكون همه أن يظهر عمله للناس، فالأجر مترتب على هذين الشرطين لا منّ ولا أذى.

قال النبي ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إلَيْهِم وَلَا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**» قالَ أبو ذَرٍّ: خابُوا وخَسِرُوا، مَن هُمْ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: «**المُسْبِلُ، والْمَنَّانُ، والْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ**

الكاذِبِ»[١].

ففي بعض الأحيان يعطي الإنسان نفقة أو يصنع معروفًا، ثم يحدث بينه وبين مَن أحسن إليه خصومة فيقع منه المنّ بالعطايا وهذا يضيع أجر إنفاقه.

وقفات في الآية:

- ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ الأصل في (ثم) أنها تفيد الترتيب مع التراخي الزمني، وأما هنا فغرضها إظهار التفاوت الزمني بين الإنفاق وترك المنّ والأذى؛ أي أنها دلّت على دوام وجود الفعل وتراخي زمان بقائه، بمعنى: أنهم ينفقون أموالهم (ثم لا يتبعون) بل يستمرون على تناسي الإحسان وترك المَنّ به، ويداومون في ذلك حتى لا يُفسدوا صدقاتهم بالمن والأذى؛ فالمنّ من كبائر الذنوب ويضيع أجر العمل.

- ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جاءت ﴿لهم﴾ مجردة من الفاء، فلم تأتِ ﴿فلهم﴾ كما سيأتي معنا لاحقًا في موضع آخر بعد عِدة آيات ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

- فأما الآية التي وردت فيها الفاء فقد دخلت على خبر المبتدأ الموصول (الذين) فيُفهم من الجملة معنى الشرط والجزاء وبيان أن

---

(١) صحيح مسلم (١٠٦).

هذا الجزاء يكون مترتبًا على ذلك الشرط فيكون المعنى: الذين يُحققون هذه الأوصاف هم الذين سيجزيهم الله، ويُثيبهم ويأجرهم.

- وأما هنا في الآية التي نتحدث عنها فلم تدخل الفاء على الخبر؛ لأن المقام يختلف؛ فالمقام هنا يقتضي حصرًا للمستحِق للجزاء دون غيره؛ فالذي سيستحق الأجر المذكور في الآية هو الذي سينفق ماله لله ثم لا يتبع ما أنفقه بالمنّ والأذى؛ فلا يؤذي بنفقته العباد، ولا الذي يرائي بالنفقة... إذًا فالمقام هنا مقام بيان للمستحِق للأجر من غيره.. ومَن هو الذي يستحق هذا الأجر، وليس مقام شرط وجزاء كالآية الأخرى.

{وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ} فلا خوف عليهم مما يُقدِم عليه العبد من أهوال يوم القيامة، ولا يحزن على ما فاته من متاع الدنيا.

قوله تعالى: {قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣}.

{قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ} استئناف بياني؛ أي كلمة طيبة يردّ بها السائل دون أذى. وجاءت نكرة للتقليل؛ حيث يراد بها أي كلمة طيبة تكفي لردّ السائل، فالمسئول الذي لم يعطِ السائل حاجته يمكن أن يردّه بكلمة طيبة لا يتأذّى بها السائل.

{وَمَغۡفِرَةٌ} قيل في معناها:

١- **أي تغفر للسائل**؛ ويقصد بذلك أن يغفر المسئول إلحاح السائل وإلحافه، فقد يضيق صدر المسئول نتيجة هذا الإلحاح فيردّ السائل وينهره، فأرشد الله سبحانه وتعالى المسئول إلى المغفرة، وهذا من حكمة وعظمة الشارع سبحانه وعلمه بدقائق الأمور التي قد تقع بين العباد فيرشدهم ويهديهم!

٢- **وقيل**: **المقصود مغفرة من الله**؛ أي إذا ردّ المسئولُ السائلَ بكلمة طيبة يغفر الله له. ولكن القول الأول أَوْلَى.

إذًا الآية فيها نوعان من الإحسان:

- إحسان قولي؛ وهو الإحسان بالقول (قول معروف).

- إحسان بترك مؤاخذة السائل عند الإلحاح المستمر والإلحاف.

{خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى} أي أن هذين النوعين (قول معروف، المغفرة) أفضل عند الله من صدقة يتبعها أذى. وبمفهوم المخالفة فإن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة.

فلا يصح معاملة الفقراء والمحتاجين بشدة أو غلظة مهما كان ثقيلًا في سؤاله، قال تعالى { وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠} [الضحى].

{وَٱللَّهُ غَنِيٌّ} غني أي لا يُحْوِجُ الفُقَراءَ إلى تَحَمُّلِ مَؤُونَةِ المَنِّ والأذى؛ فالمنّ كبيرة من الكبائر، وينبغي على العبد أن يعلم أننا كلنا عباد الله، فالله هو الرزاق، وإن كان الكسب من كسب العبد، لكن الله

جل وعلا هو مَن وفّقه إلى الصدقة وحبّب إليه الإنفاق.

{حليم} فَلا يُعَجِّلُ بِالعُقُوبَةِ عَلى المَنِّ والإيذاءِ، فيصفح ويعفو ويحلم عن رعونة وخطأ هذا المعطي الذي لم يتحمل السائل.. لعله يتوب ويعود ويصلح خطأه.

قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ }.

ينهى الله عباده المؤمنين عن إبطال الصدقة بالمنّ والأذى؛ لأنهما تحبطان العمل، والسبب أنهما ينافيان الإحسان المُعتبَر في الصدقة.

سؤال: هل السيئات تحبط الحسنات؟

الجواب: عند بعض الفِرَق الضالة كالخوارج والمعتزلة فالكبائر محبطة لكل الأعمال! وصاحب الكبيرة عند الخوارج كافر خالد مخلد في النار!! والمعتزلة أيضًا تقول إن صاحب الكبيرة خالد مخلد في النار لكن لا يصرّحون بالتكفير فهو في منزلة بين المنزلتين!

أما أهل السنة والجماعة فيقولون إن بعض السيئات تحبط بعض الحسنات؛ فقد يأتي العبد بسيئة تحبط عمله، ومثال ذلك الآية التي بين أيدينا: فالمنّ والأذى أحبط أجر الصدقة.

والأدلة على ذلك كثيرة ومنها:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات]. فدلّت الآية على أنه من الممكن أن يُحبط العمل برفع الصوت على النبي ﷺ.

- وأما الدليل من السنة: أنَّ رَجُلًا قالَ: واللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ، وإنَّ اللَّهَ تَعالَى قالَ: «**مَن ذَا الذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أنْ لَا أغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإنِّي قدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[(١)].

فالخلاف بين الخوارج وأهل السنة أن الكبيرة عند الخوارج تحبط الإيمان كله! بينما عند أهل السنة فإن بعض السيئات تحبط بعض الحسنات فقط وليس كلها.

قال ابن رجب رحمه الله: «والآثار عن السلف في حبوط الأعمال بالكبيرة كثيرة جدًّا يطول استقصاؤها».

قال ابن القيم رحمه الله: «ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٢١).

{يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ} أي لا تفعلوا ذلك الفعل (المَنّ والأذى بعد الصدقة) فيُحبَط العمل فتكونوا بذلك مثل الذي ينفق ماله رياءً وسمعة وليس ابتغاء مرضات الله فإن ذلك أيضًا يُحبَط عمله.

{وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ} أي أن ذلك المرائي أنفق ماله لمراءاة الناس فلا يريد بذلك الله ولا الدار الآخرة، ولا الأجر، ولا الثواب.

{فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ} أي أن مثل ذلك المرائي كمثل (صفوان) وهو حجر أملس. قيل: إن (صفوان) مفرد. وقيل: إنها جمع كلمة صفوة. ومعنى التشبيه: أن قلب هذا المنفق المرائي كالحجر الأملس في شدة صلابته، فتوجد في قلبه قسوة كصلابة ذلك الحجر الأملس الذي لا نفع منه.

{عَلَيۡهِ تُرَابٞ} تضمن التشبيه أيضًا: أنه لا أثر للصدقة على هذا المرائي؛ فأثر الصدقة عليه كأثر التراب الذي يوجد على الحجر الأملس فلا يثبت عليه فيضيع مع القليل من الهواء.

{فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا} كما أن هذا الحجر الأملس أيضًا إذا أصابه (الوابل) وهو ماء المطر الشديد يتركه (صلدًا) أي يتركه حجرًا أملسًا ليس عليه شيء من التراب. فكذلك حال هذا المرائي؛ فالرياء أزال أثر الصدقة فلم يترتب على صدقته نفعًا.. كما أزال هذا المطر التراب الذي كان على الحجر الأملس. (هذا تفسير).

*وهناك تفسير آخر للمفسرين: وهو أن الله جل وعلا شبّه المرائي فيما يظهره للناس بالتربة الصخرية التي يعلوها تراب فيظنها الناس صالحة للزراعة والإنبات إذا سقطت عليها البذور والحبوب.. لكن تحت هذا التراب حجر أملس يمنع نبت الزرع، فالرياء أزال أثر عمله الصالح الظاهر للناس وليس له فيه أجر.

{لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ} الكلام هنا عن الأصناف الثلاثة؛ المُرائي والمَنّان والمُؤذي فهم لا يحصّلون شيئًا من ثواب الصدقات بسبب فعلهم؛ فالرياء والمن والأذى أزال أثر تلك الصدقة.

{وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ} والله لا يهدي القوم الكافرين لأي رشاد أو خير ينفعهم، فلا يجعل لهم أثرًا لأعمالهم في الدنيا أو الآخرة.

بدأت الآية بخطاب للذين آمنوا وانتهت بذكر الكافرين، وفي ذلك تعريض بأن الرياء والمن والأذى من صفات المنافقين الكافرين لا من صفات المؤمنين. فوجب على المؤمنين أن يتجنبوا هذه الصفات الشنيعة التي تحبط الأعمال، ويسألوا الله الإخلاص.

.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ
مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ
فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ
وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ
مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم
مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ
وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

في هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أن الشخص الذي ينفق يجب أن يكون إنفاقه نابعًا عن إخلاص: {ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ} وصدق: {وَتَثۡبِيتًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ} فالإنسان حال إنفاقه في سبيل الله يتعرض لآفتين:

الآفة الأولى: طلب المدح والثناء من الخلق، أو أي غرض دنيوي آخر.. وهذا حال أكثر المنفقين.

الآفة الثانية: ضعف النفس وتقاعسها وترددها في الإنفاق.

*وتزول الآفة الأولى بأن يجرد العمل ويحفز النفس أن تنفق ابتغاء مرضات الله فيصل بذلك إلى الإخلاص في النفقة؛ وذلك عندما يعلم أن ما عند الله هو خير وأبقى، وأن الأجر والثواب من الله هو الذي سينفعه في يوم لا ينفعه فيه أي أمر من أمور الدنيا؛ لا مدح ولا ثناء ولا تعظيم.

وأي خاطرة تأمره بالرياء فعليه أن يدفعها ويستعيذ بالله من وساوس الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء ويتذكر عقوبة المرائي في الآخرة: أن يصير عمله هباءً منثورًا.

وأما في الدنيا فسيخسر ماله، وأيضًا سيقذف الله في قلوب العباد أنه مُراءٍ بشكل أو بآخر.

*وأما علاج الآفة الثانية: فتزول بالتثبيت لنفسه ويشجعها أن تُقدِم على الصدقة ولا تتردد.. ولا يزال على نفسه بهذا الحال حتى

تنفق.

- فالنفس شحيحة وجُبلت على حب المال؛ قال تعالى: {وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾} [العاديات] و(الخير) هنا المقصود به المال، فإنفاق المال أمرٌ شاق وليس بالهين على النفس، ولكن إذا انتصر الإنسان على نفسه وحملها على التخلص من هذا الشح فإن ذلك يكون له أثرٌ في رسوخ الطاعة في القلب والنفس.

فقد قال أهل العلم: إن مِن أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفوس إنفاق المال. فكلما كان الأمر شاقًّا على العبد وتركه لله.. فثمرته التثبيت؛ فكل من أنفق المال ومرّن نفسه حتى تعتاد الفضائل تصير لها طبائع ودين، فالله سبحانه وتعالى أعطانا القدرة على المجاهدة.

{وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ} بيان للصدق من المنفِق، وأنه مصدِّق لوعد الله، امتثل لأوامر الله الشاقة مع النفس.. فبذل المال لتصديقه بموعود الله.

{كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ} (الجنة) البستان الكثير الأشجار العالية بحيث تخفي ما بداخل البستان، فالجنة ساترة لما بداخلها، وسمي الجِن جنًّا لأنه مخفي عن أعين الناس.

*(الربوة) المكان المرتفع، وهذا له مميزات؛ لأن ارتفاع المكان يعرضه للريح، كما يعرضه للشمس كل الأوقات (وقت الشروق والاستواء والغروب) فتكثر الثمار وتكون أسرع نضجًا وأطيب

طعمًا.

ولكن رَفْع الماء ليصل إلى هذه الربوة فيه مشقة، لذلك أخبرنا الله تبارك وتعالى أن هذه الربوة أصابها وابل.

{أَصَابَهَا وَابِلٌ} والوابل هو المطر الشديد.

{فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} كانت نتيجة (الربوة،الوابل) أنها آتت أكلها ضعفين؛ فالثمار في جنة الربوة ضعف ثمار الجنة التي على الأرض.

{فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ} {فطل} أي أن المطر قليل.

*والمعنى: أن تلك الربوة سواء المطر فيها شديد أو قليل فإن هذه الجنة لا تبور.

والآية فيها تشبيه لحال المنفِق على درجتين:

- درجة السابقين المقربين الذين ينفقون ولا يبخلون، بل يُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ينفقون آناء الليل وأطراف النهار ويسارعون في الخيرات.. فهذا كالربوة التي أصابها وابل.

- وآخر مؤمن بوعد الله ولكن أحيانًا يحمل نفسه على الإنفاق وأحيانًا يبخل، ولكن عندما ينفق فإنه ينفق ابتغاء مرضات الله (محققًا شرط الإخلاص) ومصدقًا لوعد الله (شرط الصدق)، ولكنه في المسارعة ليس كقوة الأول.. فهذا كمثل الطل، له أجره أيضًا لكن

أقل من درجة الأول، سبحان الله! هم درجات عند الله.

وقفـة في الآية:

– الآية التي ضرب الله فيها المثل عطف قوله {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ} على قوله {كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ..} وهذا العطف يبيّن الفرق الشاسع بين الذي ينفق ماله رئاء الناس والذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله.

-وأنه سبحانه وتعالى لما ذكر الإنفاق في الآية السابقة فَإِنَّهُ قَدْ مَثَّلَهُ بالحبة التي بها سبع سنابل وفي كل سنبلة مائة حبة؛ لِتَحْصُلَ السُّرْعَةُ بِتَخَيُّل مُضاعَفة الثَّواب.

-أما المثل هنا في هذه الآية فأعجب في حسن التخيل! لأنها ضُمِّنَت الهيئة المُشَبَّهة بِها (فشّبه المنفق بالجنة وبها أشجار كثيفة وهذه الجنة على ربوة عالية وهذه الربوة لا يصل إليها ماء ولكن ينزل عليها مطر غزير فتكون النتيجة أنها آتت أكلها ضعفين) فذكر هيئة المشبَّهَة به وما تضمنه من أحوال فأعطى حلاوةً وجمالًا.. وهذا من مقاصد التشبيه.

والأمثال عامة تعطي بهجة للأسماع بأن تتخيل المقصود من الكلام.. وهذا من أحسن ما يكون.

قوله تعالى: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ

ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾.

نبّه الله في هذه الآية على قُبح بعض العقول التي تسبب لصاحبها المهالك وتفسد عليه أحواله في الدنيا والآخرة، وبسوء أفكاره يحبط حسناته لأنه لم يلجأ إلى الله ليحفظه من تلك المهالك.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ﴾ خرج مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي؛ ومثال ذلك: عندما ترى شخصًا يقوم بفعل قبيح، فقلت له: هل يوجد إنسان عاقل يخاف الله يقوم بهذا الفعل؟! فإن ذلك الإنكار أبلغ من أن أنهاه عن الفعل نفسه.

﴿أَحَدُكُمۡ﴾ جاءت بلفظ الواحد لكنها متضمنة الإنكار العام.

(أيود) مفردة أبلغ من (أيودون) وذلك لأن الإفراد أبلغ وأقوى في الإنكار. وأيضًا أبلغ في الإنكار من (أيريد)؛ فكونه يودّ (يحب) هذه الحالة التي تكون له جنة على هذا الوصف البديع الذي سنذكره ثم بعد ذلك تحترق وتصبح رمادًا!! أبلغ في الإنكار من مجرد استعمال فعل الإرادة (يريد) فقط؛ فاستعمال لفظ (يود) أبلغ في توضيح مدى قُبح هذا الحال من (يريد).

﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالى هذين النوعين عن سائر الثمار لأن النخيل والأعناب من أشرف الثمار لما فيهما من فوائد كثيرة ونفع عظيم، بالإضافة إلى

المنظر البديع.

{تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ} تحت هذا البستان أنهار؛ فلك أن تتخيل بستانًا كبيرًا مُمْتَلئًا بالزروع والنخل من جهة والأعناب من جهة!! وليس هذا فحسب بل هناك أيضًا أنهار تجري من تحت ذلك البستان!! وهذا أكمل وأعظم قدرًا من أن يكون البستان ليس تحته أنهارٌ.

{لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ} فلا يظن أحد أنه عندما خصّ الله سبحانه وتعالى ذكر العنب والنخل لكثرة فوائدهم ومنافعهم أنه لا يوجد غيرهما، ولكن يوجد فيها أيضًا من جميع الثمار.

{وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ} وفي هذا الحال والجنة على الوصف الذي ذكرناه أصاب صاحبَها الكِبَرُ في السن، وعنده ذرية ضعاف. و{أصابه الكبر} فيها إشارة إلى شدة احتياجه للجنة في هذا الوقت وتعلق قلبه بها لأكثر من سبب منها:

-أنه عندما كبر حصل له وهن وضعف فلا يقوى على التكسب فيكون في أشد الاحتياج إلى الجنة.

-أنه من طبيعة البشر أنه كلما كبر تمسك وتشبث بالحياة أكثر.

-حرصه أن تبقى هذه الجنة بما فيها من جمال وثمار وخير؛ لأنه عنده ذرية وهم محتاجون لهذه الجنة.

-أيضًا أن هذه الذرية ضعيفة لا تستطيع التكسب، بل تحتاج إلى

من يعولها؛ فهم كَلٌّ عليه.

-شدة حاجتهم للنفقة جعلهم يتعلقون بها لضعفهم.

{فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ} وبينما هم على الوصف الذي ذكرناه من شدة الاحتياج والتعلّق أتى إعصار شديد.

والإعصار: هو الرِّيح الشَّديد التي تَهُبُّ من الأرض إلى السَّماء فترتفع إلى أعلى، وهذا الإعصار فيه نار.. فأحرقت له كل هذه الجنة حتى أصبحت رمادًا، أحرقتها على الرغم من جمالها وثمارها وشدة احتياجه واحتياج أولاده لها ومع ذلك كله جاءت نار فأحرقت كل ذلك.

لذلك قال الحسن رحمه الله: (هذا مَثَلٌ قَلَّ مَن يعقله من الناس). ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل وحث القلوب على التفكر فيه لشدة حاجتها إليه فقال تعالى: {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون}.

{وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ} هل الواو (واو العطف) أم (واو الحال)؟ من العلماء من قال:

(واو الحال)؛ فيكون المعنى أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته.

وقيل: الواو (واو العطف): فيكون العطف على المعنى؛ فإن فعل التمني {أيَوَدُّ أحَدُكم} لطلب الماضي كثيرا في اللغة؛ فيكون

المعنى: أيود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وعنب وحدث لها كذا وكذا.. إذًا فالمعنى هنا لأمور حدثت في الماضي وليس على الحال.

الله سبحانه وتعالى ضرب مثلًا للمنفِق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان ولا اقتناع ولا حب لله كالصفوان (حجر أملس الذي عليه تراب، جاء عليه ماء فلم يبق أو يثبت عليه شيء؛ فقد أزال المطر عنه أثر ذلك التراب كما يزيل الرياء أثر الصدقة وثوابها، بل ذهب بالبذر وكل شيء وبالتالي لا توجد ثمرة وذلك لعدم وجود إخلاص.

- ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله وكان مخلصًا في عمله وبعد ذلك عرض عليه عارض أبطل هذا العمل فمثله كمثل الجنة التي هي من أحسن الجنان. وضرب الله المثل عندما عرض لهذا الشخص الرياء فأحبط عمله كما أصاب الإعصار الجنة فاحترقت!!

*قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ «**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**» فالإنسان لا يضمن لنفسه الثبات؛ فمن الممكن أن تعرض عليه فتنة تجعله ينقلب على عقبيه؛ فعلى الإنسان أن يحذر ويخاف.

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه يَوْمًا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ} [البقرة: ٢٦٦]؟ قالوا: اللَّهُ أعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولوا: نَعْلَمُ أوْ لا نَعْلَمُ، فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: في

نَفْسِي منها شَيءٌ يا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: يا ابْنَ أخِي، قُلْ ولَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: أيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بطَاعَةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ له الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بالمعاصِي حتَّى أغْرَقَ أعْمَالَهُ[(١)].

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

﴿كَسَبْتُمْ﴾ ... ﴿أَخْرَجْنَا﴾ أضاف الله سبحانه الكسب إلى العباد وإن كان هو الخالق لأفعالهم ولكن فعلهم قائم بهم، وعند الإخراج أسند الإخراج إليه لأنه ليس من فعل العباد وليس في مقدورهم. فأضاف مقدورهم إليهم وأضاف مفعوله الذي لا قدرة للعباد عليه إليه سبحانه... فبيّن ما للعبد وما لله.

- وفي هذا رد على: مَن سوّى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنه بالكلية: فالجبرية: نفوا فعل العبد وإرادته وقالوا إنه مسلوب الإرادة! وخالفهم القدرية: فنفوا أن يخلق الله أفعال العباد!! وهذا ضلال وهذا ضلال، وعقيدة أهل السنة والجماعة أن العبد له قدرة وله مشيئة وله كسب.. ولكن الذي خلق أفعاله وأخرج

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٣٨).

من الأرض وفعل كل هذا بإرادته هو الله عز وجل.

{مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ} خصّ سبحانه هذين النوعين من الإنفاق وهما: الكسب عن طريق التجارة، ومما أخرجنا لكم من الأرض.. فلماذا؟ لأننا لو نظرنا لمعظم الأموال نجدها صادرة عن هذين النوعين: فإما عن طريق التجارة على اختلاف صورها، وإما الذي يخرج من الأرض مثل الزرع والثمار وأنواع المعادن والركاز.

وقد كان المهاجرون يشتغلون بالتجارة، وأما الأنصار فكانوا يشتغلون بالزروع والثمار والحرث، فهما أكثر الأشياء التي يتكسب منهما الإنسان.

{وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ} التيمم: هو القصد؛ فنهى الله سبحانه عن قصد إخراج الرديء عند الإنفاق سواء الزكاة الواجبة أم المستحبة أو أي شيء يخرج لله سبحانه؛ وذلك لأن عادة أكثر النفوس أن تكون شحيحة، ووقت الإنفاق تحرص على أن تمسك الجيد لها وتخرج الرديء للفقير، ونسي هذا المسكين أنه يخرج لله!! فنهاه الله عن هذا الفعل الذميم.

- وبمفهوم المخالف فإن الذي لا يتعمد إخراج الخبيث فليس عليه حرج؛ فمثلًا كأن يوكّل صاحب المال شخصًا لإخراج زكاة مال وأوصى بعدم إخراج الرديء، لكن هذا الشخص قصد إخراج

الخبيث.. إذًا ليس على صاحب المال حرج ويُعذر في ذلك.

- قدّم الجار والمجرور في قوله تعالى {مِنۡهُ تُنفِقُونَ} للدلالة على الاختصاص؛ فيبيّن بذلك أنه لا يجوز توجيه القصد وتعمد إخراج الخبيث من المال لينفقه في سبيل الله.

ولكن أن يُخرِج من متوسط المال فلا إشكال؛ فقد يكون متوسط المال فيه الحسن وفيه الرديء فيُخرج منه جميعًا دون تعمد إخراج الخبيث فلا إشكال، وإنما الاختصاص للنهي عن تعمد إخراج الخبيث.

{وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ} عندما يريد الإنسان أن يوضح لغيره بشاعة تصرفه قد يقول له: هل ترضاه لنفسك؟! فهل يرضى الإنسان لنفسه أن يأخذ الخبيث من الأشياء؟! بالطبع لا.. فلماذا يرضاه للفقير!

{وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ} فإن العبد الذي ينفق الخبيث لو وضع في مثل هذا الموقف فلن يقبل هذا.. إلا أن تتسامحوا في حقوقكم وتغضوا البصر عن هذا الشيء؛ لأن {تُغۡمِضُواْ فِيهِ} من إغماض الجفن، والمعنى أن الرائي من شدة كراهة المنظر لا يستطيع أن يمعن النظر في هذا الرديء أو ينظر إليه، فلا يأخذه إلا إذا أغمض عينيه عنه. فلا تبذلوا لله شيئًا لا ترضونه لأنفسكم، بل نختار لله أفضل الأشياء.. والله أحق أن نختار له أفضل الأشياء.

فائدة:

قد يكون لدى الإنسان بعض الأشياء القديمة التي قد ينتفع بها الفقير، ويريد هذا الشخص التصدق بها، فمثل هذا يتصدق بها ولكن يأتي معها بجديد، فالنهي في الآية عن تعمد إخراج الرديء فقط، وإخراج ما لايرضاه الإنسان لنفسه، فالله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} ختم الآية بصفتين يقتضيهم السياق؛ فالآية فيها تنبيه دلّت عليه كلمة (اعلموا).... فانتبهوا لأن الله (غني حميد) فغناه وحمده سبحانه يأبيان قبول الرديء.

فقابل الرديء لا يخلو من أمرين:

-أن يقبله لاحتياجه له فيضطر لقبوله.

-أو أن تكون نفسه وضيعة تقبل أي شيء.

والصفتان منفيتان بأي حال عن الله سبحانه وتعالى، له كامل الأوصاف جل جلاله، (الغني) الذي لا يقبل الرديء، لا يحتاج إلى العباد، فهو الغني عن صدقاتنا وأموالنا؛ فهو مَن يُعطي النِّعَم ويُسدل العطايا، ننفق مما أعطانا ورزقنا، ثم يعطينا الأجر على ما منّ به علينا سبحانه! وهو (الحميد) مستحق المحامد كلها وله الحمد.. حميد بنفسه.. له الأسماء الحسنى سبحانه (وقد فصّلنا من قبل في اسم الله الحميد).

قال ابن القيم: (ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها مدائح وثناءً تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر ولا هجست في الضمائر ولا لاحت لمتوسم ولا سنحت في فكر... ففي دعاء أعرف الخلق بربه تعالى وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسْألُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هو لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أوْ أنْزَلْتَهُ في كِتابِكَ أوْ عَلَّمْتَهُ أحَدًا مِن خَلْقِكَ أوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أن تَجْعَلَ القُرْآن رَبيع قَلْبِي ونُورَ صَدْرِي وجَلاءَ حُزْنِي وذَهابَ هَمِّي وغَمِّي**». وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «**فَيَفْتَحُ قَلْبِي من مَحامِدِهِ بِشَيْءٍ لا أُحْسِنُهُ الآن**»، وكان يقول في سجوده: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، أعُوذُ بِكَ مِنكَ، لا أُحْصِى ثَناءً عَلَيْكَ أنْتَ كَما أثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكِ**»، فلا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه البتة، وله أسماءٌ وأوصاف وحمد وثناءٌ لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر).

فمن يريد أن يصل إلى قمة الإيمان فعليه دراسة الأسماء الحسنى والصفات العُلا؛ فإن ذلك يزكّي النفس ويطهّر القلب من أمراض القلوب، وكل خلل يحدث للعبد يكون بسبب ضعف الفهم عن الله وعدم معرفته لأسماء الله الحسنى وصفاته.. فمن أين يتأتّى

للعبد الإيمان وهو يجهل عن الله!! فإنه لو عَلِم عن ربه ما استطاع أن يعصيه.

قوله تعالى: {ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٨}.

استئناف عن قول الله تعالى {أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ} لأن الشيطان يصد الناس في حال إنفاقهم وإخراجهم للصدقة عن ذلك كما يحاول صدهم عن إعْطاءِ خِيارِ أمْوالِهِم، فيزين لهم الشح أو يجعلهم يُخرجون الخبيث والرديء.. ويُخَوِّفُهم الشيطان مِنَ الفَقْرِ إلى غير ذلك من الهواجس الشيطانية التي يلقيها في قلوب العباد فيشربها ضعيف الإيمان.

{ٱلشَّيۡطَٰنُ} تقديم اسم الشيطان في أول الكلام دلّ على أن الحُكم المذكور في السياق مذموم؛ لأن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يدل على تقوية الحكم وتحقيقه؛ يعني أن هذا الحكم سيتحقق يقينًا، وأيضًا فيه ذم للحُكم المذكور.

{يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ} أي يسوّل لكم وقوعه في المستقبل؛ فيلقي في قلبه كل الوساوس التي تمنعه من الإنفاق وأن الذي سينفق ماله سيصبح فقيرًا فيقعد ملومًا محسورًا.

وهذا يستجيب لها ضعيف الإيمان؛ فلا ينفق لأن الشيطان أغراه بالشح وعدم الإنفاق.

{وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ} أجمع العلماء على أن الفحشاء في هذه الآية المقصود بها (البخل) فكلمة الفواحش تحمل جميع المعاني الذميمة، وهنا بمعنى البخل الذي هو من أقبح الفواحش.

فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب في وعده..الفاجر في أمره.. وكل من استجاب له فهو مغرور مخدوع مغبون.

كما قال الشاعر:

دلاهم بغرور، ثم أوردهم إن الخبيث لمن والاه غرار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه، ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه.

فإذا شرع الإنسان في الإنفاق ثم وجد من نفسه تخاذلًا وبخلًا يعلم أن ذلك من الشيطان؛ لأنه يريد بالإنسان كل شر وكل أذى في الدنيا والآخرة، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه، فلا يستجيب الإنسان لموعود الشيطان فيمتنع عن العطاء.. ويترك شيئًا يحبه الله.

{وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ} وأما الله سبحانه فإنه يَعِد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق ويضاعفه له أضعافًا مضاعفة.

هذا وعد الله وذاك وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق أيّ الوعدين هو أوثق؟!! وعد الله الرحمن الرحيم، واسع العطاء، كريم

المَنّ، عظيم الفضل أم وعد الشيطان؟!! فلا بُد للعاقل أن يتفكر، ولا يمتنع عن الإنفاق بل ينفق بحكمة.

{وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} ختم الآية باسمين عظيمين:

(واسع): فسبحانه واسع عَمّ عطاؤه كل شيء، و(عليم): يعلم من يستحق الفضل ومن يستحق العدل؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله. وهو بكل شيء عليم.

قوله تعالى: {يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾}.

{ٱلْحِكْمَةَ} عرّفها العلماء بتعريفات كثيرة منها:

-هي الحق المتضمن للعلم النافع والعمل الصالح، ومِن ثَمّ تهدي صاحبها إلى الهُدى ودين الحق؛ لإصابة الحق اعتقادًا وقولًا وعملًا (أي صحة الاعتقاد).

-نقل ابن القيم عن ابن عباس أنه قال: هي عِلْمُ القُرْآنِ: ناسِخِهِ ومَنسُوخِهِ، ومُحْكَمِهِ ومُتَشابِهِهِ، ومُقَدَّمِهِ ومُؤَخَّرِهِ، وحَلالِهِ وحَرامِهِ، وأمْثالِهِ.

-وَقالَ الضَّحّاكُ: هي القُرْآنُ والفَهْمُ فِيهِ.

-وقالَ مُجاهِدٌ: هي القُرْآنُ والعِلْمُ والفِقْهُ.

-ومنهم من قال: هي الإصابَةُ في القَوْلِ والفِعْلِ.

-قال مالِكٌ: هي مَعْرِفَةُ الحَقِّ والعَمَلُ بِهِ.

*لو تأملنا في هذه التعريفات سنجدها تدور حول العلم النافع والعمل الصالح، وكُلُّها تعريفات متقاربة؛ لأن أصل الحكمة هي وضْعُ الشَّيْءِ في مَوْضِعِهِ، والإنسان عندما يرزقه الله العلم النافع الذي هو علم وعمل فإن ذلك يقوده إلى البصيرة وإلى معرفة الحق، ويصبح لديه نور يَرَى به الحق حقًّا فيتبعه.. ويَرَى به الباطل باطلًا فيجتنبه.

- فلا يقع العباد في الزلّات والفتن والانتكاسات (ومنهم طلاب علم) إلا لأنهم لم يُرزَقوا الحكمة، أو أن الحكمة لديهم كانت قليلة فكان ذلك سببًا لوقوعهم في المعاصي؛ والسبب في ذلك أنه قد يكون تعلّم العلم لكن حدثت مشكلة بالعمل!

- فالحكمة تصل بالإنسان لكي يكون لديه علم نافع وعمل صالح فيرزقه الله الإصابة في القول والعمل وصحة الاعتقاد والبصيرة التي يستطيع أن يرى بها الحق والباطل.

{يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ} قيل: إن الحِكْمَةُ في كِتابِ اللَّهِ نَوْعانِ: تأتي مُفْرَدَةٌ، وتأتي مُقْتَرِنَةٌ بِالكِتابِ.

*فالمُفْرَدَةُ: هي التي فُسِّرَتْ بِالنُّبُوَّةِ، وفُسِّرَتْ بِعِلْمِ القُرْآنِ؛ أي فُسِّرَتْ بتفسيرات - كما وضحنا - ومثل ذلك أيضًا قول ابن الجوزي بأن الحكمة تأتي في القرآن على أكثر من معنى:

- فقد تأتي بمعنى (الموعظة) كما في قوله تعالى { حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ ۝٥} [القمر].

- وقد تأتي بمعنى (السُّنة) كما في قوله تعالى { وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ۝١٥١} [البقرة].

- وقد تأتي بمعنى (الفَهم) كما في قوله تعالى { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ۝١٢} [لقمان].

- وتأتي بمعنى (النبوة) { وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ۝٢٥١} [البقرة] في قصة جالوت وطالوت.

- وتأتي بمعنى (القرآن) { ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ۝١٢٥} [النحل]، وأيضًا الآية التي بين أيدينا {يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ} على مَن قال إن الحكمة هنا المقصود بها (القرآن).

* وأما المُقْتَرِنَة بِالكِتابِ: فَهي (السُّنَّةُ)، وَذَلِكَ قول الشّافِعِيّ وغَيْره مِنَ الأئِمَّةِ، ولكن ذلك أيضًا بحسب السياق؛ فإن كان السياق عن النبي ﷺ كانت بمعنى السُّنة كما في قوله تعالى {وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣} [النساء].

- لذلك قد يشكل على البعض في قوله تعالى عن عيسى عليه السلام {وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ} جاءت الحكمة مقترنة بالكتاب، فهل معنى هذا أن الله علّم عيسى سنة رسول الله؟!

قطعًا لا؛ المقصود هنا سُنة يوحيها الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه لم تأتِ في الكتاب الذي معه، وهذا تعريف الإمام ابن جرير الطبري قال: (الحكمة وهي السُّنة التي يُوحيها إليه في غير كتاب).

- ففي سياق الكلام عن عيسى عليه السلام فالمعنى أن الله أعطاه وأوحى له بأمور غير الإنجيل الذي كان معه (هذا معنى يوحي إليه في غير كتاب).

- لكن إذا كان سياق الكلام عن رسولنا تكون بمعنى سنة رسول الله ﷺ.

{وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا} عندما تكلّم ربنا تبارك وتعالى عن الدنيا في القرآن قال {قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ} لكن عندما تكلّم عن الحكمة (التي هي العلم من عند الله والتي وُفّق صاحبها للعمل مع العلم) قال {فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا} فدلّ ذلك على حقارة شأن الدنيا؛ كُلُّ متاع الدنيا على اختلاف أشكالها وأصنافها وألوانها قليل جدًّا إذا ما قورن بمتاع الآخرة ونعمة العطاء من الله تبارك وتعالى عندما يُعطي الإنسان الحكمة. فمتاع الدنيا فانٍ يتركه الإنسان، أما هذا الخير الكثير من العلم النافع والعمل الصالح وشرح الصدر وتيسير الأمور والإقبال على ما ينفع والبُعد عما يضر، هذا هو الخير كله، وأيضًا سيظل مع الإنسان لا يتركه؛ لأن كل ذلك يعد في ميزان الحسنات، فهذا هو الباقي.

- فالحكمة فيها البصيرة، وهي توفيق من الله؛ لأن معنى الحكمة وضع الشيء في موضعه؛ فتجعل الإنسان يدرك حقائق الإيمان فيحيط بالشيء ويضعه في موضعه، فنقول عنه: إنه شخص حكيم تصرفاته محسوبة محسومة منضبطة خالية من الشطط أو الخلل فيصبح حكيمًا بتعليم الله له الحكمة.

{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ} التَّذَكُّرُ والتَّفَكُّرُ مَنزِلانِ يُثْمِرانِ لصاحبهما أنْواعًا من المَعارِف وحَقائِق الإيمان والإحْسان وأشياء كثيرة تعود عليه بمنافع لا يعلمها إلا الله.

لكن ما الفرق بين التَّذَكُّر والتَّفَكُّرَ؟

التَّفَكُّرَ التِماسُ الغاياتِ والحقائق؛مثل إرادة الوصول للحق أو إرادة فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإرادة فهم الأحكام الشرعية وعلوم القرآن... كل هذا يجعل الإنسان يلتمس ويبذل الجهد للوصول إلى البصيرة.. وهذا هو التَّفَكُّر.

أما التَّذَكُّر يكُونُ فِيما قَدْ حَصَلَ بالتَّفَكُّر، ثُمَّ غابَ عَنْهُ بالنِّسْيان؛ فقد خلقنا الله بفطرة صحيحة على التوحيد وأرسل إلينا الرسل... فكل هذا يوجد بداخل الإنسان، وعندما يغفل وينسى الإنسان ويقع في الخطأ يعود التفكُّر ليرجعه إلى التذكُّر؛ فهذا تفكر يعود عليه بالتذكر.

*مثال للتوضيح: إذا ضعف الإنسان أمام شهوة، وأخذ يتتبع زلّات العلماء كي توافق هَوَاه فيأخذ برخصة العالم في هذا الأمر،

فتأتي نفسه كي تذكره وتجعله يتفكر: كيف أخذت بهذه الرخصة؟! ألم تدرس يا طالب العلم أن العالم يستدل له لا يستدل به!! وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردُّ!! ومن تتبع زلات العلماء فقد تزندق!! كيف غفلت عن هذا!! فهنا قد أعطاه الله الحكمة والبصيرة كي يعود ليتذكر، وبذلك يعود بالتذكر على التفكر، كما يعود التفكر... وهكذا بين تذكر وتفكر.. وما يتذكر إلا أولو الألباب.

{أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ} أي أولو العقول؛ وهناك فرق بين العقل وبين الذكاء؛ فكل ما لدى الغرب والمشركين من تقدُّم وتطور في مختلف المجالات فإن هذا يدلّ على الذكاء وليس العقل؛ فالعاقل هو الذي أعطاه الله الحكمة والبصيرة فيتذكر ويتفكر ويمتثل لأمر الله ويعلم ما ينفعه في دنياه وأُخراه.

فينبغي أن نفرِّق بين أولي الألباب أصحاب العقول وبين الأذكياء؛ فلن يفهم الخير الكثير الذي يوجد في الحكمة وينأى بنفسه عن المتاع القليل في الدنيا إلا أصحاب العقول.

فائدة:

لو تأملنا - ونحن على وشك الانتهاء من السورة - في الآيات السابقة سنجد أن الله ذكر أحكام الأموال، وكيف ذكر أحوال المنفقين وقسّمهم إلى ثلاثة أقسام:

١- **متصدق محسن:** كان يقرض الله قرضًا حسنًا وهو يعلم أن

الله هو الغني الكريم، همّه الآخرة.. فضاعف الله له الحسنات وأعطى له عطاء ما بعده عطاء.

٢- **متصدق محسن أيضًا:** لكن حاول الشيطان أن يوقعه في المن والأذى فبطل بذلك ثواب الصدقة، فحذّر الله عز وجل العباد من الوقوع في مثل هذا الأمر لأن النية كانت صادقة بالفعل في بداية الأمر لكن أفسد عليه الشيطان بعد ذلك ثواب الصدقة.

٣- **المرائي:** الذي ينفق ويبذل ولكنه أفسد ثواب الصدقة فخسر غاية الخسران؛ خسران مبين في الدنيا والآخرة.

ثم أمرنا الله عز وجل بأن نتقرب إليه بأطيب الأشياء ولا نتعمد إخراج الرديء والخبيث لأن هذا لا يليق بجلال الله وكماله وعظيم سلطانه، كما حذّر من الاستجابة لداعي البخل والشح والفحش؛ لأن هذا كله من الشيطان اللعين الذي يكره الإنسان ويريد له كل شر.

- والأمر بالاستجابة لله تبارك وتعالى ووعده، ومَن أصدق من الله قيلًا...كل ذلك في غاية الجمال والإبداع.. أسأل الله أن يمتعنا والمسلمين بحلاوة القرآن.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ
فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ
وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾
۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟
مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا
تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ
ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى
ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ
﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

تَذْيِيلٌ لِلْكَلامِ السّابِقِ للأمْرِ بِالإنْفاقِ وصِفاتِهِ المَقْبُولَةِ، والتَّحْذِيرِ مِنَ المُثَبِّطاتِ والمبطلات... والمَقْصُودُ مِن هَذا التَّذْيِيلِ التَّذْكِيرُ بِأنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ النَّفَقاتِ وصِفاتِها ومقدارها ونية المنفِق..كل ذلك يعلمه الله عز وجل، وأُدْمِجَ النَّذْرُ مَعَ الإنْفاقِ فَدلّ ذلك على أن تكون هذه الآية تَذْيِيلًا للكلام.

(النذر) قربة إلى الله، وهو عبارة عن شيء يفرضه الإنسان على نفسه لم يوجبه الله سبحانه وتعالى عليه.

*هذا النذر مشروع في الإسلام، وقَدْ عَرَفَتِ العَرَبُ النَّذْرَ مِنَ الجاهِلِيَّةِ: فَقَدْ نَذَرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ - جد النبي ﷺ - أنَّهُ إنْ رُزِقَ عَشَرَةُ أوْلادٍ لَيَذْبَحَنَّ عاشِرَهم قُرْبانًا لِلْكَعْبَةِ، وكانَ ابْنُهُ العاشِرُ هو عَبْدَ اللَّهِ - أبو النبي ﷺ- الذي وقع الذبح عليه ولكن الله فداه.

- وفي حَدِيثِ البُخارِيِّ أنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ قالَ: (يا رَسولَ اللَّهِ، إنِّي نَذَرْتُ في الجَاهِلِيَّةِ أنْ أعْتَكِفَ لَيْلَةً في المَسْجِدِ الحَرَامِ، فَقالَ له النَّبيُّ ﷺ: «**أَوْفِ نَذْرَكَ**» فَاعْتَكَفَ لَيْلَةً[(١)].

*وفِي الأُمَمِ السّابِقَةِ كانَ النَّذْرُ أيضًا: فقَدْ حَكى اللَّهُ عَنِ امْرَأةِ عِمْرانَ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران].

فالعلماء استدلوا بأن النذر كان موجودًا وممدوحًا قبل الإسلام،

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٤٢).

وهو إن كان مشروعًا في الإسلام لكن هناك نزاع من أهل العلم على حُكْمه:

١- فذهب فريق على أنه مكروه تمامًا.

٢- وذهب فريق آخر على أنه ممدوح تمامًا وأنه مستحب.

٣- وفريق قال على حسب النوع:

أ- إن كان نذرًا مطلقًا فهو ممدوح؛ و(النذر المطلق) هو أن يُلْزِم الناذر نفسه بطاعةٍ معينة يتقرب بها إلى الله تعالى دون التقيد بشرط كأن يقول مثلًا: لله عليّ كذا... فيُلْزِم نفسه مثلًا بصيام الإثنين والخميس، أو إنفاق مبلغ معين كل شهر...كل ذلك ينذره لله مطلقًا دون طلب شيء معين في المقابل.

والأدلة على أن (النذر المطلق) ممدوح:

- الآية التي بين أيدينا {وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ}.

- وقَدْ مَدَحَ اللَّهُ عِبادَهُ فَقالَ { يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ.. ﴿٧﴾} [الإنسان].

- وقال رسول الله ﷺ: «**مَن نَذَرَ أنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، ومَن نَذَرَ أنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ**»[1].

ب- أما إن كان نذرًا معلّقًا فهو مكروه؛ و(النذر المعلّق) هو الذي يُعلّق نذره على شرط كأن يقول مثلًا: لو أعطاني الله مالًا

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٩٦).

سأتصدق، أو لو شفاني الله سأصوم.

***والأدلة على أنه مكروه:**

- قال رسول الله ﷺ: «**النَّذْرُ لا يُقَدِّمُ شيئًا، وَلَا يُؤَخِّرُهُ، وإنَّما يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ**»(١).

- وقال رسول الله ﷺ: «**لا يَأْتِي ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بشَيءٍ لَمْ يَكُنْ قُدِّرَ له، ولَكِنْ يُلْقِيهِ النَّذْرُ إلَى القَدَرِ قدْ قُدِّرَ له، فَيَسْتَخْرِجُ اللَّهُ به مِنَ البَخِيلِ**»(٢).

فجاءت الروايات في البخاري ومسلم لتدل على كراهة (النذر المُعلّق).

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ﴾ من المفترض أن يكون شَأْنُ البيان أنْ يُفِيدَ مَعْنًى زائِدًا عَلى مَعْنى المبيّن، ولكن مَعْنى البيان هنا هو نفس مَعْنى المُبيّنِ فقوله تعالى ﴿مِن نَفَقةٍ﴾ بَيانٌ لِـ ﴿ما أَنْفَقْتُمْ﴾ و﴿مِن نَذْرٍ﴾ بيانٌ لِـ ﴿نَذَرْتُمْ﴾ فما المقصود بذلك؟ المقصود: بَيان أن كل المُنْفَقِ والمَنذُورِ يعلمه الله سبحانه وتعالى ولا يخفى عليه شيء من كل هذه الأمور، وأكّد هذا أيضًا تنكير المجرور ﴿مِن نَفقةٍ﴾ ﴿مِن نَذْرٍ﴾ مِن إرادَةِ جميع أنْواعِ النَّفَقاتِ والمَنذُوراتِ، فَأكَّدَ بذَلكَ العُمُوم ما أفادَتْه (ما) الشَّرْطِيَّة مِن العُمُوم مِن خَيْرٍ أوْ شَرٍّ في سَبِيلِ اللَّهِ أوْ

---

(١) صحيح مسلم (١٦٣٩).
(٢) صحيح البخاري (٦٦٩٤).

في سَبِيلِ الشيطان... وكل ذلك يعلمه الله عز وجل، فكان ذلك بيانًا أيضًا ولكن بصورة غير مباشرة.. فما أجمل كلام الله!!

{فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ} على الرغم من أن مرجع الضمير لشيئين:

{وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ} {نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ} إلا أن الله عز وجل وحّد الضمير في قوله (يعلمه) ولم يقل (يعلمهما).. فلماذا؟ للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال:

١- **القول الأول:** في ذكر واحد منهما الاستغناء عن الآخر.

٢- **القول الثاني:** يمكن عند العطف بـ (أو) توحيد الضمير أو تثنيته؛ ومثال ما جاء من توحيد الضمير قوله تعالى في سورة الجمعة {وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا} فلم يقل(إليهما)، ومثال ما جاء من تثنية الضمير قوله تعالى في سورة النساء {إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا} فثنّى الضمير مع الغني والفقير.

*إذًا العطف بـ (أو) قد يُوحّد معه الضمير أو يُثنى (وهذا هو الراجح لأنه يوافق ظاهر القرآن).

٣- **القول الثالث:** إذا توحّد الضمير بين شيئين أو عِدة أشياء فإن ذلك معناه أن الله يعلم المذكور كله.

{وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ} هذا من المقابلة؛ فهو وعِيدٌ قُوبِلَ بِهِ الوَعْدُ الَّذِي كَنى عَنْهُ بِقَوْلِهِ {فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ} فالمراد أن الله يعلم الذي ينفق ابتغاء مرضاة الله وعلى الوجه الذي يُرضي الله، ويعلم

أيضًا الذي يمتنع عن الإنفاق من المشركين والمنافقين ومَن تخلّق بخلقهم واقتدى بهم في البخل والامتناع عن الصدقات سواء الواجبة أو المستحبة، وإن لم يكن في الامتناع عن الصدقات المستحبة إثم إلا أنهم قدْ ظَلَمُوا أنْفُسَهم بِحِرْمانِها مِن فضائِل الصَّدَقاتِ وثَوابِها في الآخِرَةِ.

- إذًا فالمعنى أن الله يعلم أهل الخير الذين أنفقوا في سبيل الله وفي المقابل من ذلك يعلم أهل الشر الذين ينفقون في سبيل النفس والطاغوت والشيطان.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾.

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ التعريف للجنس، ومحمول على العُمُومِ فيشمل صدقة التطوع وصدقة الفرض.

وقد نقل الإمام ابن العربي المالكي إجماع العلماء بأن إظهار صدقة الفرض (الزكاة) أفضل من إخفائها، وذلك كسائر الفروض كإظهار الصلاة والحج؛ لما في ذلك من إظهار شعائر الدين.

- وأما صدقة النَّفل فالأفضل إخفاؤها في الغالب كما في ظاهر الآية، وأيضًا لقول النبي ﷺ أيضًا في الحديث المعروف: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ:...**» وذكر منهم «**ورَجُلٌ**

تَصدَّقَ بصَدَقَةٍ فأخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُه»[١].

- فعندنا نصوص تدل على أن الإخفاء أفضل، لكن قال بعض العلماء: إن هذا هو مخرج الغالب؛ أي أن الغالب في صدقة النَّفل أن تكون خفية لكن في بعض الأحوال قد تظهر صدقة النَّفل.

ولتوضيح الأمر ينبغي أن نعلم أن لصدقة النَّفل ثلاثة أطراف:

١- المنفِق. ٢- الآخِذ للصدقة. ٣- بعض الشهود الذين سيشهدون هذه الصدقة الظاهرة.

فأما المنفِق فإنه قد يصبح قدوة للناس كي يقتدوا به فيشجعهم ذلك على الإنفاق، هذه هي الميزة في إظهار صدقة النَّفل، لكن ينبغي الانتباه لما قد يطرأ على المنفِق من آفات الرياء والمَنّ والأذى، كما أن الآخذ للصدقة قد يتعرض لنظرات الاحتقار والأذى النفسي من الناس له بخلاف الصدقة إن كانت في السر، وكذلك أيضًا الذين يشهدون هذه الصدقة الظاهرة قد يسيئون الظن بالمنفِق ويتهمونه بالرياء ويسيئون الظن بالآخذ أيضًا.

{فَنِعِمَّا هِيَ} أصْلُهُ فَنِعْمَ ما، فَأُدْغِمَا وكُسِرَتْ عَيْنُ (نِعْمَ) لِأجْلِ التِقاءِ السّاكِنَيْنِ، وهذه قراءة بعض القراء منهم ابن كثير وحفص ويعقوب وغيرهم، وهناك بعض القراءات بفتح النون وكسر العين، وأيضًا هناك قراءات بكسر النون واختلاس حركة العين بين الكسر

---

(١) صحيح البخاري (١٤٢٣).

والسكون.

{وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ} بيّنا فضل الإخفاء، وينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين.

وقد يكون تقدير الكلام (وإن تخفوها فهو خير لكم)، فلماذا جاءت {وتؤتوها الفقراء} ومن المعلوم أنَّ الصَّدَقَةَ لا تَكُونُ إلّا لِلْفُقَراءِ؟

قال بعض أهل العلم: لأن بعض المواضع لن يُستطاع معها إخفاء الصدقة؛ كتجهيز الجيوش وبناء المساجد وإعادة بناء البيوت القديمة التي قد تقع على أصحابها من الفقراء وحفر الآبار لخدمة أهالي القرى.... فمثل هذه الصدقات ستظهر ولا بُد أمام الناس ولن يُستطاع إخفاؤها، ولكن إخفاء الصدقة للفقير خاصة فيها فوائد عظيمة تعود بالنفع على كلٍّ من الفقير والمتصدق؛ فالفقير لن يتعرض للحرج أمام الناس وعَدَم إظْهارِ اليَدِ العُلْيا عَلَيْهِ، وأما المنفِق فسيبتعد عن الرياء وطلب المحبة من الناس لأن النفس أمارة بالسوء وتحب أن تسمع كلمات المدح والثناء من الناس فتُضيّع عليه ثواب الصدقة.

{فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ} فإن تلك الصدقة خير لكم لأن الإنسان الذي تصدّق بهذه الصدقة ستعود عليه في وقت سيكون فيه أحوج ما يكون لحسنة مقبولة؛ فالحسنات والأعمال قد تكون كثيرة ولكن ما المقبول

منها! فينبغي على كلٍّ منا مراقبة نيته؛ لأن العمل يحتاج إلى الإخلاص لله كي يقبله الله عز وجل.

{وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ} (من) للتبعيض لأن الصدقة تكفر بعض الذنوب وليس كل الذنوب، ولا يمنع ذلك من كونها من الأعمال العظيمة جدًّا عند الله سبحانه وتعالى.

{وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} لو تأملنا سنجد أن الآيات عندما تذكر الأعمال التي تحتاج إلى نية وإخلاص والتي قد يدخل على العمل فيها حظ من حظوظ النفس من رياء وما يشبه هذا فإن ختام الآية يأتي باسم من أسماء الله الحسنى مثل (سميع عليم) (عليم خبير) والتي تدل على شدة المراقبة حتى ينتبه العبد ولا يغفل.

- وفي هذا الموضع {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي أن الله يعلم هل ما يفعله العبد من الإنفاق وأعمال الخير كان خالصًا لله أم لأجل حظٍّ من حظوظ النفس وحب المدح والثناء من الناس، وكأن الله عز وجل يقول للعبد انتبه فأنا العليم وأنا الخبير فلا يستزلّك الشيطان في باب الرياء أو طلب المحمدة والهروب من المذمة فتخسر كل شيء.

قوله تعالى: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾}.

{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ} خطاب للنبي ﷺ أي أنك لستَ مسئولًا

عن أن يكونوا هداة مهتدين، أو تهديهم للإتيان بما أُمروا به من المحاسن والانتهاء عما نُهوا عنه من القبائح والفواحش وكل الأمور التي تغضب الله، لكن الواجب عليك هو إرشادهم فقط للخير والحق والحث عليه، والنهي عن الشر....هذا هو الذي أمرك الله به بما أوحى إليك من الآيات والذِّكر الحكيم.

{وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ} يهدي الله سبحانه وتعالى هداية خاصة؛ هداية مُوصلة إلى المَطْلُوبِ والبعد عن المرهوب، ولكن مَن الذين اختصّهم الله بهذه الهداية الخاصة؟ هم المؤمنون أصحاب القلوب الصافية الذين إذا ذُكِّروا فإنهم يتذكرون، ويتبعون الحق ويختارون الخير ويبتعدون عن الشر.. فلا تروغ قلوبهم روغان الثعالب، فالله يعلم ما في القلوب وما تخفي الصدور.

فإذا علم من قلب العبد المؤمن أنه يريد مرضاة الله فإنه سيهديه لكل ما هو مطلوب وجميل.

وجملة {لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ} جملة معترضة؛ فقيل: إنها جاءت على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه لرسول الله ﷺ؛ فالخطاب كان عن الإنفاق في الآية السابقة، ثم أصبح الخطاب في هذه الآية عن الهداية، ثم سيأتي الخطاب عن الإنفاق مرة أخرى في الآية اللاحقة.

ـ أيضًا هناك التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ فالخطاب في الآية السابقة {إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ} ثم الالتفات إلى الغيبة في

هذه الآية {لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ} ثم العودة للخطاب بعد ذلك مرة أخرى للمُكَلَّفِينَ، لكن ما الفائدة من ذلك؟ قيل: للمبالغة في حَمْلِهِمْ على الامتثال لأوامر الله تبارك وتعالى وأن النبي ﷺ غير مسئول عن هدايتهم.

سبب نزول للآية:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: كانوا يَكرَهونَ أنْ يَرْضَخوا لأنسابِهِم وهم مُشرِكونَ؛ فنزلَتْ: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [البقرة: ٢٧٢][1].

*يَرْضَخوا: أي يُعْطوا.

*فقد كان الصحابة بعد انشراح صدورهم ودخولهم في الإسلام لا يعطون قَراباتِهم من المشركين بسبب شركهم ولكي يدخلوا في الإسلام، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ونهاهم عن فعل ذلك فالله يهدي مَن يشاء سواء أعطيتموهم أم لم تعطوهم.

{وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ} أي وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم، لذلك حاول أن تقدم لنفسك أجود ما يكون؛ لأن ذلك يعود لك أنت، وابتعد عن كل الآفات التي تفسد الأمر عليك.

ويوجد في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للمكلفين:

- للحث في حملهم على الامتثال لأمر الله.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠٩٨٦).

- نوع من أنواع التلوين في الخطاب؛ فوجَّه الخطاب للمكلفين وصرفه عن النبي ﷺ مما يشعر بالتماسك والانسجام بين الكلمات.

سؤال: هل تأتي كلمة (خير) في القرآن دائمًا بمعنى المال؟

الجواب: لا. قد تأتي كلمة (خير) بمعنى غير المال؛ قال تعالى: { فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧} [الزلزلة] هنا بمعنى (العمل)؛ فالعمل ما دام لله -وإن كان قليلًا- فمأجور عليه صاحبه.

- إذًا يتضح لنا معنى (خير) حسب سياق الآيات.

{وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ} المقصود بالاستثناء في الآية للعلماء فيه ثلاثة أقوال:

١- **قيل**: إنه ثناء من الله على أصحاب رسولنا ﷺ فقد كان لديهم إخلاص شديد فلا ينفقون يقينًا إلا ابتغاء وجه الله.

٢- **قيل**: المقصود به أن النفقة المعتمدة التي يقبلها الله عز وجل، ويُثاب عليها صاحبها هي التي كانت ابتغاء وجه الله فقط.

٣- خبر بمعنى الأمر؛ فقد يأتي الخبر بمعنى الأمر مثل قول الله تعالى {وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا..(٩٧)} [آل عمران] وجاء ذلك كثيرًا في القرآن.

{وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ} أيْ تُعْطُونَ جَزاءَهُ أضعافًا مضاعفة بحسب أحوال المنفِق ونواياه؛ فدرجات

العباد ونواياهم لا يعلمها إلا الله، فالله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب.

- ويُعْطَونَ ثوابه تامًّا غير منقوص، فإن الله لا يخلف وعده أبدًا ولا يظلم أحدًا بل هو الكريم المنَّان سبحانه.

والإنفاق لوجه الله ممدوح في القرآن وفي السنة: عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِن يومٍ يُصْبِحُ العِبادُ فيه إلَّا مَلَكانِ يَنْزِلانِ، فيَقولُ أحَدُهما: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويَقولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[١].

ففي الحديث ترغيب وترهيب؛ ففي كل يوم دعاء للمُنفِق في سبيل الله لا رياء ولا سمعة ولا طلب محمدة بأن يُخلِفَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، وأيضًا الدُّعاءُ بالتَّلَفِ على المُمسِك البَخيل الذي لا ينفق في سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾.

- بداية الآية استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال؛ فحين قال ربنا سبحانه في الآية السابقة {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} وكأن سائلًا يسأل: أين نصرف أو نوجِّه هذا الخير يا رب؟ فقال الحق سبحانه:

---

(١) متفق عليه.

{لِلْفُقَرَاءِ} (وهذا وجهٌ).

- وجهٌ آخر: قيل للفقراء: مُتعلق بمحذوف تقديره: النفقات أو الصدقات التي ستخرجونها اجعلوها للفقراء.

{لِلۡفُقَرَآءِ} جمع فقير وهو المعدوم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ**»[(١)].

وفي هذا بيان لحال المسكين على قول مَن جعل الفقير كالمسكين.

{ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ} (الإحصار) هو: المنع.

أي حَبَسَهم الجهاد في سبيل الله أو الجراح التي أصابتهم أثناء القتال.. وأيًّا كان فالمُهم أنهم منعوا أنفسهم وحبسوها لله سبحانه، وبالتالي فقد عجزوا عن السعي في الأرض لكسب أقواتهم.

{يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ} الحسبان: بمعنى الظن. والمقصود هو أن الجاهل بأحوالهم يمكن أن يتصور أنهم ليسوا

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٩).

محتاجين لأن ظاهرهم لا يدل على كونهم فقراء، وهذا يمكن أن يحدث؛ فالشخص قد يكون صاحب هيئة طيبة (مُهندم) فيما يبدو للناس ليس في حاجة إلى المساعدة ولكنه في حقيقة الأمر يُعدّ من الفقراء! فلديه ديون يعجز عن سدادها، أو أطفال لا يستطيع الإنفاق عليهم من شدة احتياجه، مظهره هذا قد يجعل البعض يمتنع عن إعطائه ظنًّا منهم أنه غير محتاج.

فيجب الانتباه لأمر هؤلاء: لا بُد من البحث عن هذه النوعية لإعطائها النفقات لأن ما يتصفون به من عفَّة تمنعهم من السؤال وبالتالي فإن الناس تغفل عن إعطائهم بينما هم أشد احتياجًا ممَّن يسيرون في الطرقات وهم يسألون الناس العطاء.

{ٱلتَّعَفُّفِ} كلمة ظاهرها التكلف أي تكلُّف العفة، فهناك فرق بين تعفف وعفَّ؛ فعفَّ عن الشيء: إذا كف عنه، أما تعفف: إذا تكلف في الإمساك، ولكن سياق الكلام يأبى هذا المعنى بالرغم من كونه صحيحًا! فإذا ما تأملنا في الآية نجد أنها تتضمن المدح لهؤلاء، إذن الصواب أنه بخلاف الظاهر من كلمة التعفف، فالتاء جاءت للمبالغة؛ فهم بالفعل لم يتكلفوا طلب العفة ولكنها صفةٌ فيهم بالفعل، ويكون المعنى أنهم: لا يسألون الناس لكمال عفتهم.

{تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ} فمَن كان يملك الفراسة والنظر والتدقيق والتأمل والبصيرة بأحوال العباد سوف يُدرك أن هذا الشخص فقير محتاج ولكنه لكمال عفته امتنع عن السؤال، وهذه الجزئية لن يصل

إليها أي شخص لأن غالب الناس يحكمون على الظاهر.

{لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافًا} والإلحاف: كما يقول صاحب الكشاف: هو الإلحاح بأن لا يفارق- السائل المسئول- إلا بشيء يعطاه.

قد يُفهم من السياق أن المقصود هو عدم سؤالهم الناس على وجه الإلحاح خجلًا وحياءً منهم من تكرار السؤال، وبالتالي يكون المعنى مُتضمن السؤال ولكن بغير إلحاف ولكن مقتضى السياق يأبى هذا فلماذا؟ لأن المقام مقام ثناء على هؤلاء؛ فالنفي في الآية ينصب على القيد والمقيد، لا يسألون الناس إلحافًا (وذاك هو القيد) كما أنهم لا يسألون أيضًا (وهو المقيد) والدليل قوله سبحانه: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ}.

{وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ} وأي شيء تنفقونه يعلم به الله سبحانه.

فائدة:

ذكر الحق سبحانه في هذه الآية ستة من الصفات الحميدة اتصف بها مَن ورد ذكرهم فيها (وهذا ثناء عليهم):

١- **لِلْفُقَرَاءِ:** أي الذين هم في حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضرورات الحياة.

٢- **الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ:** وبالرغم من ذلك حبسوا

أنفسهم في سبيل الله وجهاد الأعداء ونصر الدين، فلم يشغلوا أنفسهم بأمر الدنيا ولكنهم قصروا حياتهم على أن تكون لله عز وجل، باعوا أنفسهم لله فمنعهم ذلك حتى من التَّكسب كي يعيشوا.

هنا سؤال: هل يجوز وقف النفس بهذه الدرجة التي تؤدي للاحتياج؟

لا. ولكن هؤلاء كانوا بالكاد يجدون أقواتهم فرضوا بها من أجل أن يوقفوا أنفسهم على الجهاد.

٣- **لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ:** عجزوا عن السفر للتكسب؛ لأن الضرب في الأرض يعني السفر قال تعالى: { عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴿٢٠﴾} [المزمل] ومن المعلوم أن العرب كانوا يشتغلون بالتجارة، وبالتالي كانوا يتنقلون هنا وهناك لكسب الرزق.

٤- **أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ:** كان لديهم شدة تعفف وحسن صبر على الفقر، فقد صبروا ابتغاء مرضاة الله وأظهروا للناس الغنى وعدم الاحتياج لكمال عفتهم.

٥- **تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ:** السِّمَة هي العلامة، والمتوسمون هم خواص المؤمنين قال تعالى:{ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾} [الحجر] أي المتفرِّس الذي أعطاه الله البصيرة والفطنة التي تجعله يعلم أحوال الناس بغير كلام.

٦- **لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا:** هؤلاء تركوا مسألة الناس؛ فلم يسألوهم بإلحاح ولا غير إلحاح زُهدًا منهم فيما عند الناس، متوكلون على ربهم، راضون بما قُسِم لهم.

قوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾}.

- الآية تُفِيدُ تَعْمِيم أوقات وأحْوالِ فضائِل الإنْفاق.

{بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} قدَّم الله جلَّ جلاله (الليل) على النهار، وكذا (السر) على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار، ولا يخفى على أي أحد أن الله تبارك وتعالى قد حضّ العباد وحثّهم على الإنفاق، وضرب لهم الأمثال في الإحسان إلى خلقه ترغيبًا لهم في ذلك وترهيبًا من الشُّح والإمساك.

وهذا يدعو كل شخص عاقل إلى أداء الزكاة والإنفاق من ماله؛ لأنه إذا قرأ كتاب الله ونظر وتأمل فيه فمن المستحيل أن يُمسك بعد كل هذا، ولذلك قال بعض أهل العلم: إن الله تبارك وتعالى يمتحن عباده بالصدقة، ووجه الامتحان بالصدقة له ثلاثة معانٍ:

١- **المعنى الأول:** التلفظ بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) يعني إفراد المعبود بالحب والعبودية، وشرط الوفاء بهذه الكلمة هو إفراد الله الواحد الأحد بالحب؛ والمحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى.

- وإنما يُمتحن بهذه الكلمة درجة الحب بمفارقة أحب الأشياء إليه من أجل المعبود الواحد الأحد، فما هو أكثر شيء يُحبه الناس ويتقاتلون عليه؟ إنه المال؛ لأنهم يعتقدون أنهم بالمال سيحصلون على كل أنواع النعيم، وبه تتحقق الآمال...وهنا يأتي الامتحان من الله بأحب الأشياء إلى القلوب فيقول الرب: أَنفِق، ويكون الامتحان: فإذا صدقت محبة العبد لله أَنْفَقَ؛ قال تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴿١١١﴾} [التوبة] فقدّم النفس على المال لأن أحب المحبوبات إلى العبد نفسه ثم ماله، فهل ستبيعون أنفسكم أم لا؟ وقد انقسم الناس في هذا الأمر إلى ثلاثة أقسام:

أ- فريق تصدق بكل ماله أو معظمه (أبو بكر الصديق،عثمان بن عفان، وغيرهم).

ب- فريق أخرج جزءًا وأمسك بجزء.

ج- فريق أخرج الصدقة الواجبة فقط (زكاة المال).

٢- **المعنى الثاني:** أنه تطهير من صفة البخل؛ فالبخل صفة مذمومة قال الحق سبحانه: { وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾} [الحشر]

فالشح مشكلة كبيرة تحتاج إلى جهاد النفس؛ لأن الأصل في النفس الشُّح قال تعالى: { وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴿١٢٨﴾} [النساء].

وحتى يقي الإنسان نفسه من هذا الشح أو البخل فلا بُد له من قطع هذه الصفة، وهذا لا يكون إلا بقهر النفس.

هناك قاعدة أصلها العلماء: مَن أراد أن يقطع شيئًا عن نفسه وهو يحبه فلا بُد له من قهرها على ذلك ومفارقتها لهذا الشيء حتى تعتاد.

*فحب الشيء لا ينقطع عن القلوب أو يخرج منها إلا بقهر النفس، فتُقهر على عمل العكس أي الصواب حتى تعتاد فعله. واعلموا أن قهر الطبع وجهاد النفس ومخالفة الهوى أمور يحبها الله عز وجل؛ فكلها عبوديات يُجاهد فيها العبد من أجل الوصول لرضا الرب سبحانه وتعالى.

٣- **المعنى الثالث:** هو شكر النعمة؛ فلله عز وجل على عباده نعمة في أنفسهم وفي أموالهم؛ فأما العبادة البدنية فتكون لشكر نعمة البدن، وأما العبادة المالية فتكون شكرًا لنعمة المال.

.

قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ
وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ
فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ
أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ
ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ
فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو
عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا
كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

{ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ} هذا الذي يأكل الربا ويأكل أموال الناس بالباطل عندما يقوم يوم القيامة؛ فكما قال أهل العلم: لا يقومون من قبورهم إلا كما يقوم المتخبط المصروع المجنون حال صرعه، وقد استدل العلماء بهذا على أن الشيطان يمس جسد الإنسان.

- هذا حاله يوم القيامة، أما في القبر فإنه يُعذَّب في قبره قال سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا**» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا**» قَالَ: «**قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟....... قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟...وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**»(١).

{ذَٰلِكَ} اسم إشارة، ذُكر لبيان العلة التي أوصلتهم لهذا العذاب

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

وهو أنهم قالوا: {قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ} هذا القول شنيع فلماذا؟ لأن فيه تَحَدٍّ لملك الملوك سبحانه واعتراض على أحكام الشرع، وقد كان أهل الجاهلية وقتئذٍ يعرفون جيدًا أن هناك فرقًا بين (البيع) وبين (الربا).

- (البيع): يتحقق به التوازن الاقتصادي وإدارة المال على أحسن وجه، كما أنه لا يحدث فيه كساد ولا تضخم (علماء الاقتصاد يعرفون هذا)، والبيع يكون سببًا في انتفاع الجميع.

- أما (الربا): فلا يتحقق به إلا النفع الدنيوي لطرف دون الآخر بل إن هذا الآخر سيتحمل ديونًا هي في الأساس ضِعف ما اقترضه!!

- وشناعة هذا القول تتمثل في تحديهم بجعلهم الربا هو الأصل والبيع فرعٌ عليه؛ وذلك بتقديمهم الربا على البيع! ويُقال عن هذا إنه من قبيل التشبيه المقلوب، والقياس المقلوب.

{وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ} ما سبق من أقوالكم باطل مردود لأن الله سبحانه وتعالى أحل البيع لما فيه من منافع ومصالح كثيرة، وحرّم الربا لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، والله تعالى هو الحكيم العليم لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لأنه الحكيم العالم بحقائق الأمور، يعلم ما الذي يُصلح العباد من أمور فشرّعها لهم وما يُفسدهم من أمور فنهاهم عنها.

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَكَاتِبَهُ**»(١).

*فكل مَن يدخل في هذه المنظومة يناله نصيب من الحرام.

أنواع الربا:

١- **أن يُقرض المال مقابل الإمهال بعض الوقت للسداد**: ويأخذ نسبة زيادة عن هذا الوقت.

٢- **ربا الأصناف**: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ، فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**»(٢).

الحديث فيه بيان للأصناف الربوية؛ فلا يجوز بيع ذهب بذهب إلا بشروط (نفس عدد الجرامات، القبض في نفس المجلس).

*فإذا حدث اختلاف بين عدد الجرامات أثناء التبادل عُدَّ هذا ربا الزيادة (ربا الفَضْل) وهذا مما لا يجوز، والواجب هو بيع القديم وقبض الثمن أولًا ثم بعد ذلك شراء الجديد، وكذلك الأمر في سائر الأصناف الوارد ذكرها في الحديث.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٢٧٧)، سنن الترمذي (١٢٠٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٥٨٧).

*أما (ربا النسيئة) فهو تأجيل الثمن؛ شراء الذهب بالتقسيط وتأخير الدفع عن مجلس التقابض فهذا حرام؛ فالأصناف التي ورد ذكرها عند البيع أو الشراء لا بُد من الاستلام والبيع في نفس المجلس.

فإذا اختلفت الأصناف (ذهب بفضة) فلا إشكال، ولكن لا بُد أن يحدث القبض في نفس المجلس. وهذه الأصناف هي التي اجتمع عليها العلماء بالنص والإجماع أنها أصناف ربوية.

فهل يمكن أن يقع الربا في أصناف أخرى بالقياس؟ هناك خلاف بين أهل العلم.

هل يمكن تبديل شيء بشيء آخر غير هذه الأصناف؟ يمكن ولا إشكال.

{فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ} فمَن جاءه الحق وعرف أن ما يفعله حرام فتوقف ماذا يفعل فيما سبق؟ من سماحة الشريعة وفضل الله على العباد أن مَن فعل شيئًا من هذا وتوقف بمجرد عِلمه بالتحريم فلا حرج عليه.

{فَلَهُۥ مَا سَلَفَ} أي فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم، قال تعالى {عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ}، والدليل قول الحق {فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ}.

عَنْ أَبِي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ عَمِّهِ، قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِزِمَامِ نَاقَةِ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، أَذُودُ عَنْهُ النَّاسَ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ تَدْرُونَ فِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ؟ وفِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ؟ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: فِي يَوْمٍ حَرَامٍ، وَشَهْرٍ حَرَامٍ، وَبَلَدٍ حَرَامٍ، قَالَ:....وَإِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ اللهَ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِبًا يُوضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَكُمْ رُءوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**[1].

*لم يأمر النبي ﷺ برد الزيادة التي سبق وأخذها في الجاهلية.

{وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ} يُثبته الله على الحق لعلمه بصدق نواياه ويجعل الندم في قلبه فيدفعه هذا إلى ترك الربا بكل صوره.

{وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ} ومن عاد إلى الربا بعدما عرف الحق وعرف أن ما فعله حرام فقد استوجب العقوبة؛ لأن الأمر بَلَغه وقامت عليه الحُجة وبالرغم من ذلك استمر في تحديه لملك الملوك سبحانه.

{هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ} هل آكل الربا إذا مات وهو ما زال مستمرًّا في فعله هذا يُخلَّد في النار؟ مَن مات على الكبائر لا يُخلَّد في النار إذا مات على التوحيد ولم يكن مستحلًّا.

- وللعلماء في قوله تعالى {هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ} توجيهان:

---

(١) مسند أحمد (٢٠٦٩٥).

١- إذا كان مستحِلًّا؛ وهو الذي عرف الحق وبالرغم من ذلك استحل الربا، واستحلاله للربا أخرجه من الملة (شرط أن تُقام عليه الحجة) وخروجه من الملة جعله خالدًا في النار.

٢- **وقيل**: الخلود يعني طول المُكث.

*والرأي الأول أَولى لأنه من المعروف أن الخلود في النار المقصود به هم مَن ماتوا على غير التوحيد (والله تعالى أعلى وأعلم).

قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

الآية استئناف بياني: قد يسأل سائل عن حال هؤلاء الذين عرفوا الحق وجاءتهم الموعظة من الله ولكنهم لم ينتهوا عن أخذ الربا!! وكذا يسأل عن حال مَن تصدقوا كيف كانت عاقبتهم؟

﴿يَمْحَقُ﴾ المحق: النقصان والإزالة للشيء حالًا بعد حال، ومنه مُحاق القَمَرِ، أي انتقاصه في الرؤية شيئًا فشيئًا حتى لا يُرى، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شيء (زال نوره).

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ تعني: إزالة بركة المال، والمرابي دائمًا لديه خسائر، لقد سُلِّط على ماله أنواع التلف والهلاك.

﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أما الصدقات فإن لها ثوابًا عظيمًا في الآخرة، وفي الدنيا يُبارك الله في مال المتصدق، وبركة المال قد

تكون ظاهرة (زيادة الرزق) وقد تكون غير ظاهرة (بدفع أشياء عن العبد ربما كانت ستصيبه).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**»(١).

الآية فيها (احتباك): ومعنى الاحتباك: هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.

- وفي هذه الآية جعل الحق سبحانه وتعالى المَحق بالربا، وجعل الإرباء بالصدقة، لدينا متقابلين مذكورين وهما (المحق، الإرباء) كما أن لدينا متقابلين محذوفين على طريقة (الاحتباك)، فما هما؟

(الثواب) و(العقاب) فكأن القول هو: يمحق الله الربا ويُعاقب صاحبه، ويُربي الله الصدقات ويُثيب صاحبها. فحذفت عقوبة المرابي وثواب المتصدق (وهذا بدليل السياق).

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هذه الجملة معترضة بين أحكام الربا فلماذا أُوتي بها في هذا الموضع؟ إن الله تبارك وتعالى لا يُحب

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠).

الكفار في جميع الأوقات، أما مناسبتها في هذا الموضع: لكي يُبين الله عز وجل لعباده المسلمين أن كل مَن يستبيح الربا سيتمثّل ويتشبّه ويتّسم بخلال أهل الكفر وصفاتهم (قريش والعرب هم مَن كانوا يتعاملون بالربا في الجاهلية) فاحذر أيها المسلم أن تتشبّه بصفة من صفات أهل الشرك والكفر.

قاعدة شرعية مطَّردة في الدين كله: كل شخص يرتكب جريمة أو مخالفة شرعية ليصل إلى قصد معين يُعاقب بضد قصده وخلاف رغبته ونقيض ما أراد؛ فهذا الشخص الذي أخذ الربا فعل ذلك من أجل الحصول على المال الكثير، ولكن كانت معاقبته بمحق هذا المال، فكان ذلك خلاف ما أراد.

والأمثلة على هذه القاعدة كثيرة جدًّا:

*شخص يكذب فيُعاقبه الله عز وجل بأن يُعرف بين الناس بأنه كذاب فيسقُط من أعينهم.

*مَن يصطاد حال إحرامه وقد حرَّم الله سبحانه ذلك فيُعاقبه بحرمانه من أكل الصيد إلى جانب تغريمه نظير الصيد الذي اصطاده.

*مَن يتكبر عن قبول الحق والانقياد له فيأتيه الحق مرارًا وتكرارًا ويأبى إلا أن يتعالى ولا يستجيب لأوامر الله سبحانه، هذا يُعاقبه الله بالذل بحسب تكبره. فلماذا لا يريد الخضوع للتكليف؟!

يدّعي أنه ليست لديه القدرة على الاستيقاظ لصلاة الفجر (مثلًا)، أو الإنفاق، أو ارتداء الحجاب بالنسبة للمرأة، فالتكاليف ثقيلة ويريد أن يعيش دون الامتثال للأوامر والنواهي.. فيُعاقب هذا الشخص بضد هذه الراحة التي يبتغيها.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، قَالَ: «**ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ**»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**»(٢).

*أراد أن لا يستيقظ لصلاة الفجر فضيعها ونام عنها ولكنه بالرغم من استمراره في النوم طوال الليل إلا أنه عندما يستيقظ يقوم وهو خبيث النفس كسلان!

*مَن ينظر إلى ما عند الناس ويتجسس على بيوت المسلمين وعوراتهم فهذا في الإسلام ليس له دية إذا فُقِئَت عينه وهو يحاول

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤).
(٢) أخرجه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

كشف العورات عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اطَّلَعَ فِي دَارِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَؤُوا عَيْنَهُ فَلَا دِيَةَ وَلَا قِصَاصَ**»[١].

*الإنسان الخائن لغيره لا بُد أن يُعرف {وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾} [يوسف].

الخلاصة: إن كل مَن أعرض عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فلا بُد أن يضل.

يقول علي رضي الله عنه: «كتابُ اللهِ، فيه نبأُ ما قبلكم، وخبَرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزلِ، من تركه من جبَّارٍ قصمه اللهُ، ومن ابتغى الهدَى في غيرِه أضلَّه اللهُ، وهو حبلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تختلفُ به الآراءُ، ولا تلتبس به الألسُنُ، ولا يَخلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يَشبعُ منه العلماءُ، من قال به صدَق، ومن حكم به عدَل، ومن عمِل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم».

قوله تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾}.

لما بيّن الله ـتبارك اسمه- في الآية السابقة سبب عدم محبته

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨).

للكافرين، أثبت في هذه الآية للمؤمنين العاملين الصادقين المتصدقين الخير، وأنه سيجزيهم خير الجزاء.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} الإيمان قول وعمل.

{وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ} تصديقًا لإيمانهم، من باب عطف العام على الخاص؛ لأن العمل الصالح داخل في مسمى الإيمان كما هو معلوم عند أهل السنة والجماعة.

والعمل الصالح: امتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ لا سيما ترك الموبقات وعلى رأسها الربا؛ لأنه من أعظم الكبائر التي حرّمها الله ونهانا عنه رسوله ﷺ.

{وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} خصّ الصلاة بالذكر لأنها أعظم الشعائر، والركن الثاني من أركان الإسلام، وحق الله تبارك وتعالى.

والمقصود بإقامة الصلاة: إقامتها بجميع حدودها كما يحب الله ويرضى، وعلى مراد رسوله وهديه، فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالصلاة وبيّن لنا الرسول ﷺ كيفية أدائها؛ قال رسول الله ﷺ: «**صَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»(١).

فالعبد إذا أدّى الصلاة على وقتها بخشوع وعلى هدي رسول الله ﷺ، وباستحضار للقلب أنه بين يدي الله، وجاهد الشيطان داخل

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٠٨).

الصلاة لاستحضار المعاني والذكر؛ فإن ثمرة ذلك أن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ.. ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في مواضع كثيرة في القرآن قرن الله سبحانه الصلاة بالزكاة؛ فالإنسان جُبِل على حب المال بل هو أحب الأشياء إليه، فحينما يُخرِج من ماله مع شدة حبه له لا يكون ذلك إلا امتثالًا لأمر الله وابتغاء مرضاة الله؛ فهذا دلالة على إيمانه، فيمنع نفسه من الشح وعدم إخراج الزكاة.. وليس ذلك فحسب بل يمنعها أيضًا من الكسب الحرام كالربا وغيره.. كل ذلك دليل على صحة إيمانه.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومن فعل ذلك فقد بيّن الله أن له أجرًا عظيمًا، وأن هذا الأجر محفوظ عنده سبحانه؛ ملك الملوك الكريم المنان.

- فلو أن إنسانًا طلب منك مالًا وأنت لا تثق به ثم جاء شخصٌ آخر يقول لك: أنا ضامنٌ له فأعطِه وأنا أقضي عنه، وأنت تعلم أن هذا الضامن غنيّ كريم قادر صادق.. فإنك حتمًا ستعطيه ما يريد دون تخاذل منك. ولله المثل الأعلى عندما يحث الله عز وجل الإنسان على الصدقة ويقرن ذلك بقوله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فالعندية أن الله هو الذي يأجرهم ويعطيهم خير الجزاء، فيحصل للعبد الطمأنينة أن جزاء فعله هذا عند الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾}.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} تصدير الآية بالنداء للاعتناء؛ لأن النداء يفيد التنبيه على أن الخطاب يستدعي الاهتمام.

{ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ} صدّر الأمر في بداية الآية بتقوى الله - المضاد للربا - وقدّم الأمر بالتقوى على الأمر بترك الربا:

* لأن مَن لم يتلبّس بالتقوى فلن يستطيع أن يترك الربا.

* أو أن التقوى تستلزم ترك الربا.

{مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ} أي ترك جميع الأموال الربوية بعد معرفة الحكم بالتحريم، أما ما سَبَق فقد عفا الله عنه.

{إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} لماذا علّق الامتثال للأمر على وجود الإيمان منهم؟

لأن المعلق على شرط ينتفي عند انتفاء الشرط؛ فإن كنتَ مؤمنًا صادق الإيمان فيجب عليك امتثال الأمر بترك الربا، وإن اجتمعت الأسباب على شدة الحاجة إلى الربا.

قد يتبادر إلى العقل كيف يكون أول الآية نداء للمؤمنين {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}، وآخر الآية {إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ}؟!! هذا من باب

الإغراء لامتثال أمر الله؛ أي يستحيل لك أيُّها المؤمن أن تتمسك بما بقي من الربا إن كنت حقًّا صادقًا في إيمانك؛ فمعنى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في هذا الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ إن لم تنتهوا عن أخذ الأموال الربوية بعد علمكم بالتحريم لهذا الأمر العظيم والفعل الشنيع.

﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أكد حرمة الربا بالإخبار بأنه سيقع عليهم أشد العقوبة ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾ أي اعلموا أنه سيقع عليكم حرب لا قِبَل لكم بها.

- ولم يأتِ في الآية نوع الحرب على آكل الربا؛ فجاءت ﴿حَرْبٍ﴾ نكرة لتشمل كل أنواع البلايا من زلازل وبراكين وأوبئة ونزع البركة وكدر العيش إلى غير ذلك من أنواع البلايا.

- وتنكير لفظ ﴿حَرْبٍ﴾ أيضًا تعظيمًا لشأنها لأنها من الله.

حتى مَن لم يأكل الربا قد يصاب ببعض ذلك؛ قال تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال] وذلك بسبب انتشار الربا الآن في معظم المعاملات، والله يغضب من هذا الأمر.

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي

إن تبتم عن أكل الربا فخذوا رؤوس أموالكم فقط واتركوا بقية المال {لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ}، وهذا أصل في البيع الربوي أن يُنقَض العقد، ويتوب من هذا المال بالتخلص منه.. وليس له فيه أجر الصدقة، وإنما الأجر الذي يناله هو امتثال الأمر بالتخلص من مال الربا.

قوله تعالى: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾}.

{ذُو عُسْرَةٍ} الغريم الذي لا يجد المال.

{فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ} أي أخِّروا مطالبته بالدين إلى وقت يساره.

{فَنَظِرَةٌ} الفاء جوابُ الشرط، وإعراب (نظرة): **قيل**: مبتدأٌ خبرهُ محذوفٌ؛ فالمعنى: عليكم نظرةٌ؛ أي يجب عليكم أن تمهلوا هذا الغريم. **وقيل**: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فالأمرُ أو فالواجبُ أن تُنظروا وتمهلوا هذا الغريم. والمعنيان متقاربان.

فما دام يعلم أن هذا الغريم صادق وأمين فعليه ألا يعيّره أو يضغط عليه بأي وسيلة ليأخذ منه المال، بل الواجب إمهاله والصبر عليه، ثم أرشد إلى الأفضل والأكمل والأعلى في قوله تعالى {وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}؛ (تصدقوا) بحذف إحدى التائين؛ فأصل الكلمة (تتصدقوا) أي أن إسقاط الدين عن المعسر خير لكم من أن تنظروه أو تهددوه.

والأجر عظيم لمن ينظر المعسر؛ وقد جاء بصدد هذا الفضل أحاديث كثيرة وردت عن النبي ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضعَ عنْه، أَظَلَّهُ اللَّهُ في ظِلِّهِ**»[١].

- وأيضًا حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**تَلَقَّتِ المَلائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ، فَقالُوا: أعَمِلْتَ مِنَ الخَيْرِ شَيئًا؟ قالَ: لا، قالُوا: تَذَكَّرْ، قالَ: كُنْتُ أُدايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيانِي أنْ يُنْظِرُوا المُعْسِرَ، ويَتَجَوَّزُوا عَنِ المُوسِرِ، قالَ: قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: تَجَوَّزُوا عنْه**»[٢].

- وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فَلَمْ يُوجَدْ له مِنَ الخَيْرِ شيءٌ، إلَّا أنَّه كانَ يُخالِطُ النَّاسَ، وكانَ مُوسِرًا، فَكانَ يَأْمُرُ غِلْمانَهُ أنْ يَتَجاوَزُوا عَنِ المُعْسِرِ، قالَ: قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: نَحْنُ أحَقُّ بذلكَ منه، تَجاوَزُوا عنْه**»[٣].

- وما جاء في «صحيح مسلم» أنَّ أَبَا قَتَادَةَ طَلَبَ غَرِيمًا له، فَتَوَارَى عنْه، ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقالَ: إنِّي مُعْسِرٌ، فَقالَ: آللَّهِ؟ قالَ: آللَّهِ؟ قالَ: فإنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَن سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِن كُرَبِ**

(١) صحيح مسلم (٣٠٠٦).
(٢) صحيح مسلم (١٥٦٠).
(٣) صحيح مسلم (1561).

يَومِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عن مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عنْه»(١).

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ علَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»(٢).

إذًا فالتواد والتراحم وخدمة المسلمين من أعظم أبواب الخير، ومن أهم الأعمال التي حثّنا عليها الشرع؛ فالدين ليس مقصورًا فقط على الصلاة والصيام والقيام... وإنما هناك أبواب خير أيضًا كثيرة منها: السعي في قضاء حوائج المسلمين والتي تُعدّ من الأعمال العظيمة، وحري بالمسلم ألا يتقاعد عن مثل هذه العبادات العظيمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾.

كثير من أهل العلم قالوا: إن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هي آخر ما نزل من القرآن الكريم. وهناك أقوال أخرى بأن آخر ما نزل (آية الربا) ومن هذه الأقوال:

*حديث ابن عباس في صحيح البخاري أنه قال: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ علَى النبيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا.

---

(١) صحيح مسلم (١٥٦٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

*وهناك أثر أخرجه الطبري بإسناد صحيح عن عامر الشعبي أن عمر بن الخطاب ﷺ قام فحمد الله وأثنى عليه.. ثم قال: (وإنه كان من آخر القرآن تنزيلًا آيات الربا...). وهذا الأثر مرسل؛ لأن الشعبي لم يدرك عمر ﷺ، ولكن مراسيل الشعبي قوية كما قال أهل العلم.

ملحوظة: ليس هناك تعارض بين القولين لأن آية {وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ} هي خاتمة (آيات الربا).

وهناك قول آخر: إن آخر ما نزل (آية الكلالة) في آخر سورة النساء: عَنِ البَرَاءِ ﷺ قالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ، وآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} [النساء: ١٧٦][(١)].

فكيف نجمع بين كل هذه الأقوال لا سيما وإن كلها صحيحة؟!

قال العلماء: إن كل عالم يذكر ما انتهى إليه علمه. ومن العلماء مَن قال: إنهم نزلوا في توقيت واحد؛ فكلٌّ ذكر ما انتهى إليه علمه.

والراجح: أن آخر آية نزلت {وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ} لأن الكلام فيها عن الوفاة، وهي ختام الأحكام التي تحتوي على الأوامر والنواهي، والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) صحيح البخاري (٤٣٦٤).

{وَٱتَّقُواْ} التقوى نوعان: تقوى تضاف إلى العباد، وتقوى تضاف إلى الله.

- فأما التي تضاف إلى العباد فتعني الوقاية؛ قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فإنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وبيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**»[١] فنحن نتقي دعوة المظلوم؛ لأنها ليس بينها وبين الله حجاب، وفي كلامنا العامي (اتقِ شر فلان) فالتقوى ثابتة لبعض البشر؛ وتكون تقوى وقاية.

- أما التقوى المضافة إلى الله فهي تقوى عبادة وخضوع وتذلل وخوف ورجاء أن يثبتنا على الحق ويصرف وجوهنا عن النار ويقينا عذابه يوم يبعث عباده، وهذا معنى {وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ}.

{يَوۡمٗا} يوم القيامة.

وجاءت {يَوۡمٗا} نكرة للتفخيم والتهويل. وإضافة التقوى إلى اليوم للمبالغة في التحذير عما يقع في هذا اليوم من شدائد وأهوال عِظام لا يعلم مداها ولا قدرها ولا خطرها إلا الله.

- وعلى الرغم من ورود آيات وأحاديث تخبرنا بأهوال ذلك اليوم إلا أن العقول لا زالت قاصرة عن تصور هذه الأهوال! وعلى قدر عدم الإدراك وعدم التصور لهذه الأمور العِظَام التي سيقبل

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٤٨).

عليها العبد إلا أنه ومع ذلك يوجد تخاذل وركون إلى الدنيا!! فالإنسان إذا كان عنده بصيرة يستحيل أن يكون هذا حاله وهو يعلم خطر ما يقبل عليه.

{تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ} تسيرون فيه إلى الله لمحاسبتكم على الصغير والكبير، والفتيل والقطمير.. كل شيء فعله العبد سيُحاسب عليه، أحصاه الله ونسوه.

{ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ} (كل) من ألفاظ العموم، وجاءت (نفس) نكرة أيضًا للتعميم وذلك للمبالغة والتهويل لهذا اليوم وأن كل النفوس ستحاسب؛ كل النفوس ستُوفَّى ما عملت يوم القيامة ولن يُستثنى أحد.

{مَّا كَسَبَتْ} جزاء ما عملت من خير، وجزاء ما عملت من شر.

{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} لا يظلمون لأن مرجعهم إلى الله الذي من صفاته العدل، والرحمة التي سبقت عذابه فلا يظلم ربك أحدًا. {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} حال من (كل نفس) يفيد أن الذي يُعاقَب في هذا اليوم ويُقدَّر عليه التأبيد في النار غير مظلوم؛ لأنه عصى الجبار القهار خالق جميع المخلوقات وله من صفات الجلال والكمال، فكما يُجازي الإنسان على فعل الخير كذلك يجازيه على الشر.. ولا يظلم ربك أحدًا.

وفي الآية تنبيه على عدة أمور:

-إثبات قدرته سبحانه وتعالى على البعث ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فكلنا سنبعث ونقف على صعيد واحد للمحاسبة بين يدي الله.

-يبيّن الله أن مرجع جميع الخلائق إلى الله حكمًا وتقديرًا وجزاءً؛ فالجن والإنس كلهم سيرجعون إلى الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم].

- فيها رد على الجبرية: ففي الآية الأمر بالتقوى، والجبرية لديهم اعتقاد أن الإنسان مجبر على ما هو فيه، ولا حول للإنسان ولا قوة ولا مشيئة!! فهو مجبر على أعماله!! فلو كان كلامهم حقًّا لما أمرنا الله بالتقوى؛ لأنه بذلك يكلفنا ما لا نطيق، وهذا ينافي حكمة الله وعدله. فلو كنا مجبرين لما أُمرنا بالتكليف؛ فكيف له سبحانه أن يكلف عبدًا مجبرًا لا حول له ولا قوة ولا إرادة؟!

- بيّن الله أن كل نفس تُوفَّى عملها يوم القيامة؛ فكل إنسان سيجد عمله الذي عمله ولن يُستثنى من ذلك أحدٌ.

ولكن كيف سيُوفَّى الأطفال ما كسبوا وهم غير مكلفين؟

قال العلماء: إن الطفل الصغير يُكتَب له ثواب العمل الصالح، وأما الذنوب فلا تُكتَب له؛ لأنه لم يدخل في التكليف.. وذلك من كرم الله ومنّته أن يُكتب له الحسنات فقط.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن
يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ
رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا
أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن
رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ
ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ
إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ
أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً
حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ
إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ
بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢ ﴾

هذه آية الدَّيْن، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة المنفعة.

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ} لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى كلمة {دَيْنٍ} بعد {تَدَايَنتُم} على الرغم من أن المعنى قد يُفهم بقوله {تَدَايَنتُم}؟ للعلماء قولان:

القول الأول: لأن موضع كلمة (دَين، دِين) بالفتح أو الكسر تحمل معنى الجزاء، وليس هذا هو المراد، فذكر سبحانه كلمة (تداينتم بدين) حتى يُعلم منها أن المقصود هو المعنى المعروف للدين (دايَنَ بعضكم بعضًا إلى مدة محددة) وليس المجازاة، فلا يلتبس عليه الأمر.

القول الثاني: أنها جاءت للتأكيد؛ وذلك كقوله تعالى { وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴿٣٨﴾} [الأنعام] فمن المعلوم أن الطائر يطير بجناحين ولكنها جاءت للتأكيد.

{إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ فَٱكْتُبُوهُ} أي إذا تعاملتم بالدَّيْنِ، بأن دايَنَ بعضكم بعضًا إلى مدة محددة فاكتبوا ذلك الدَّيْنَ.

-ومن العلماء مَن يرى أن كتابة الدَّيْنَ على الوجوب (والأصل في الأمر الوجوب ما لم يصرفه صارف من الوجوب إلى الاستحباب) وهذا من قواعد أصول الفقه، وممن قال بهذا الرأي ابن

جرير الطبري (ولكنه قول مرجوح).

-وهناك رأي مخالف لجمهور العلماء (وهو القول الراجح) بأنه (مستحب) ودليلهم:

١- أن الله سبحانه وتعالى ذكر عقب هذه الآية ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ والرهن معلوم أنه لا يجب بالإجماع؛ والرهن يكون بدلًا من الكتابة لو تعذّرت الكتابة، فلو كانت الكتابة واجبة فيكون البديل عنها (وهو الرهن) واجبًا، فعدم وجوب الرهن دل على عدم وجوب الكتابة، وقد صرّح بعدم الوجوب بعدها في قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٢- وأيضًا الكتابة أمر يرجع لصاحب الدين؛ فمن الممكن أن يتنازل صاحب الدين عن الدين أو لا يتنازل... فله الحرية في ذلك لأنه صاحب المال، فله أن يكتب الدين أو لا يكتب.

فالراجح أن الكتابة ليست واجبة، وهي فقط للمحافظة على حقوق الناس.

ما حكم الاستدانة؛ هل هي واجبة أم مستحبة أم مكروهة؟

الجواب: الاستدانة مكروهة؛ فالنبي ﷺ كان يستعيذ بالله من المَغْرم والمأثم كما جاء في الصحيحين، وكان لا يصلي على أحد عليه دين، والشهيد يُغفر له كل شيء إلا الدَّيْن.

- وللأسف فإن كثيرًا من الناس الآن يستهين بالدين؛ فيسرع في الاستدانة من أجل أشياء ليست ضرورية ولا يستطيع السداد.

*وهذا بالطبع خلاف المضطر الذي يضطر للاستدانة وليس لديه بديل لذلك، خاصة إن كانت لديه نية السداد، فقد قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أخَذَ أمْوالَ النَّاسِ يُرِيدُ أداءَها أدَّى اللَّهُ عَنْه، ومَنْ أخَذَ يُرِيدُ إتْلافَها أتْلَفَهُ اللَّهُ»**[1].

{وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ} أي وليكتب بينكم كاتب؛ وهذا الكاتب لحفظ الحقوق.

سؤال: لماذا لا تتم الكتابة بين الدائن والمَدين مباشرة دون الإتيان بكاتب؟

الجواب: لأن الكتابة عند العرب كانت قليلة جدًّا، قال رسول الله ﷺ: **«إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ»**[2]. فكانوا يعتمدون على الذاكرة؛ لأن لديهم ذاكرة قوية جدًّا، أما أمور الكتابة فكانت قليلة.

هل (الكاتب) واجب عليه أن يكتب ذلك الدين؟ للعلماء قولان:

- منهم من قال (واجب): وهؤلاء الذين رأوا أن الكتابة واجبة.

- وجماهير العلماء على أن الكتابة مستحبة وبالتالي لا يجب على الكاتب ذلك ولكن (يستحب) أن يكون في خدمة المسلمين.

---

(١) صحيح البخاري (٢٣٨٧).

(٢) صحيح البخاري (١٩١٣).

{وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ} من العلماء من قال: أي لا يمتنع الكاتب إذا دُعي من الطرفين عن تلك الكتابة؛ لأن الله مَنّ عليه بهذا الفضل - وهو تعلّمه الكتابة - فليؤدِّ حق النعمة في خدمة المسلمين.

- ومنهم من قال: إن معنى قوله تعالى {أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ} أي كما علَّمه الله أن يكتب بالحق والعدل.

وكلا الأمرين مطلوبان من الكاتب؛ فلا يمتنع عن الكتابة، وأيضًا يكتب بالحق والعدل.

{وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ} الإملالُ أي الإلْقاء على الكاتب ما يَكْتُبُهُ، **لكن مَن هو الذي سيُملي على الكاتب؟**

- الذي يملي هو {الذي عليه الحق} وهو الذي أخذ المال أو الدين، فلا بُدَّ أنْ يَكُونَ هو المُقِرُّ لا غَيْرُهُ؛ فيُملي على الكاتب هذا الدين الذي أخذه.

*وقد فهمنا هذا الحَصْر للذي عليه الحق مِن تَعْلِيقِ الحُكْم بالوصف {وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ} فقد انحصر الحكم في وصف معين وهو الذي عليه الحق.

{وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـًٔا} أي على المَدين - الَّذِي عليه الحَقّ- أن يخاف ربه ويُمْلِي على الكاتب ما أخذه حقًّا؛ فلا ينقص منه ولا يغش فيه.

- وقد جمعَ بين الاسم الجليل والوصف الجميل {ٱللَّهَ رَبَّهُۥ} مُبالَغَةً في التحذير والحَثِّ على التَّقْوى.

{فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ} أي إن كان الذي عليه الحق سفيهًا، أو ضعيفًا في عقله، أو عنده عُجمة في لسانه، أو أخرس، إلى غير ذلك من الأمور التي يتعذر معها أن يُملي الكاتب... فليجعل له وليًّا أو وكيلًا يتولى عنه ما يريد أن يُمليه للكاتب.

*ولفظ (هو) في قوله {أَن يُمِلَّ هُوَ} توكيد للفاعل المضمر.

* {بِٱلْعَدْلِ} أي لا زيادة ولا نقصان.

{وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ} أمْرٌ بأن يوجد شاهدان مع الكتابة، ودلّ قوله تعالى {مِن رِّجَالِكُمْ} بعدم جواز شهادة الكافر أو الصبيّ أو المجنون أو المعتوه، بل الرجل البالغ العاقل المسلم.

{فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ} أي فإن لم يوجد رجلان بهذه الشروط فإنه يُقام مقام الرجل الواحد امرأتان؛ وهنا ذكرت العلة وهي {أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ} فالضلال هنا - كما بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية- المراد به: النسيان وعدم الضبط، وهذا يوجد لدى المرأة؛ فالعلة هنا لضعف عقلها لا لضعف دينها كما يتصور البعض!

قال ابن تيمية: فبيّن أن شطر شهادتهن إنما هو لضعف العقل لا

لضعف الدين، فعُلم بذلك أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال وإنما عقلها ينقص عنه، فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة لم تكن على نصف رجل، وما تقبل فيه شهادتهن منفردات إنما هي أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها من غير توقف على عقل؛ كالولادة والاستهلال والارتضاع والحيض والعيوب تحت الثياب، فإن مثل هذا لا يُنسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى إعمال عقل.

*إذًا في بعض الأحوال التي لا يخاف فيها الضلال أو لا تحتاج لذاكرة قوية تُقبل شهادة المرأة منفردة.

{وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ} فإذا طُلِب للشهادة أو الإقرار بها فليس من حقه أن يعتذر عن نفع المسلمين ما دام يستطيع ذلك.

{وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِ} لا تملّوا من كتابة الدين صغيرًا كان أو كبيرًا.

{ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ} أي أنه أعدل وأقوى وأبعد عن الشك؛ فقد ينسى أحد الطرفين أو ينكر شيئًا؛ أخذ أو أعطى.

{إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا} استثنى من الكتابة التجارة الحاضرة (الغير مؤجّلة)؛ لأن التجارة ناجِزَة أي حاضرة لا تَأْخِيرَ فِيها فهي بيع

وشراء يَدًا بِيَدٍ؛ فإنها بذلك لا تحتاج للكتابة، وذلك بخلاف البيوع المؤجلة فإنها لا تكون ناجزة (أي غير حاضرة في هذا الوقت).

سؤال: هل الإشهاد على البيوع واجب؟

الجواب: من العلماء من قال: إنه واجب لقوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، ولكن الراجح وهو قول جماهير العلماء أنه مستحب ككتابة الديون؛ ودليلهم: أنَّ النبي ﷺ ابتاعَ فَرسًا مِن أعرابيٍّ، فاستَتبعَهُ النبي ﷺ ليَقضيَهُ ثمنَ فرسِهِ، فأسرَعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المشيَ وأبطأَ الأعرابيُّ، فطفِقَ رجالٌ يعتَرِضونَ الأَعرابيَّ، فيُساومونَهُ بالفَرسِ ولا يشعُرونَ أنَّ النبي ﷺ ابتاعَهُ، فَنادى الأَعرابيُّ رسولَ اللَّهِ ﷺ فَقالَ: إن كُنتَ مُبتاعًا هذا الفَرسِ وإلَّا بعتُهُ؟ فقامَ النبي ﷺ حينَ سَمِعَ نداءَ الأعرابيِّ، فقالَ: «**أو لَيسَ قدِ ابتعتُهُ منكَ؟**» فقالَ الْأعرابيُّ: لا، واللَّهِ ما بعتُكَهُ، فَقالَ النبي ﷺ: بلَى، قدِ ابتعتُهُ مِنكَ فطفقَ الأعرابيُّ، يقولُ: هلُمَّ شَهيدًا، فَقالَ خُزَيْمةُ بنُ ثابتٍ: أَنا أشهدُ أنَّكَ قَد بايعتَهُ، فَأقبلَ النبي ﷺ على خُزَيْمةَ فقالَ: بِمَ تشهَدُ؟، فقالَ: بتَصديقِكَ يا رَسولَ اللَّهِ، فجَعلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ شَهادةَ خُزَيْمةَ بشَهادةِ رَجُلَيْنِ[١].

والشاهد: أن النبي ﷺ ابتاعَ الفَرس ولم يكتب أو يُشهِد؛ فدلّ ذلك على أن الكتابة والإشهاد في البيوع ليست واجبة.

---

(١) صحيح أبي داود (٣٦٠٧).

{وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ} أي لا يتسبب الكاتب أو الشهيد بإلحاق الضرر بالدائن أو المَدين؛ فالإضرار من الكاتب قد يكون بالامتناع عن الكتابة، أو إخفاء شيء مما أملاه عليه المَدين... أما إضرار الشهيد فقد يكون بالامتناع عن الشهادة أو أن يشهد بشيء غير حقيقي.

{وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ} أي أن كل مَن يفعل هذه الأشياء التي حذّر الله منها فإن هذا من الفسوق.

{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} لافتة هامة في هذه الآية وهي أن تحصيل العلم لا يأتي إلا بتقوى الله؛ فلا يأتي بذكاء، ولا قوة ذاكرة، ولا يأتي وهو عاصٍ لله سبحانه وتعالى، فالله وحده يُعلِّمنا من حيث لا نحتسب، وهو بكل شيء عليم فيعلم ما في قلوبنا وما في صدورنا.

هناك فوائد كثيرة جليلة لهذه الآية ذكرها الإمام السعدي نذكرها إجمالًا،

قال رحمه الله:

أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سَلَم وغيره؛ لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون؛ والسَّلَم هو تسليم المشتري الثمن للبائع في مجلس العقد، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَسْلَفَ في**

شيءٍ فليُسلِفْ في كَيلٍ معلومٍ ووَزْنٍ مَعْلومٍ إلى أجَلٍ معلومٍ»[(١)].

*والسَّلَف هو السَّلم.

*فلَمَّا هاجَرَ النبي ﷺ إلى المدينةِ وجَدَ الأنصارَ يَتَعامَلون بالسَّلم فكانوا يَبِيعون الثَّمَرَ مُؤجَّلًا بثَمَنٍ مُعجَّلٍ مَقبوضٍ في مَجلسِ العقدِ فأقَرَّهم ﷺ على ذلك ولكنْ ضبَطَه بشُروطٍ مُعيَّنةٍ؛ فيكون الشَّيءُ الَّذي اشتَراه شَيئًا مُعيَّنًا، مَعلومَ المِقدارِ، ومَحدودَ الكميَّة كَيلًا ووَزْنًا، ومَضبوطًا بمُدَّةٍ مُعيَّنةٍ مَعروفةٍ.

الثاني والثالث: أنه لا بد للسَّلَم من أجل وأنه لا بد أن يكون معينًا معلومًا، فلا يصح حالًّا ولا إلى أجل مجهول كما ذكرنا.

*وإن خالف البعض وأجاز أن يكون حالًّا، وهذه مسألة بها نزاع فقهي في فقه البيوع.

الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوبًا وإما استحبابًا لشدة الحاجة إلى كتابتها؛ لأنها بدون الكتابة يدخلها الغلط والنسيان، وإن كان الجمهور على استحباب الكتابة، ولكن ترجع أهمية الكتابة لتجنب المنازعة والمشاجرة خاصة في أمور الماديات فهي التي يكثر فيها النزاع في الغالب.

الخامس: أَمَرَ الكاتب أن يكتب؛ والأمر على الوجوب أو الاستحباب كما فصّلنا.

---

(١) متفق عليه.

السادس: أن يكون عدلًا في نفسه لأجل اعتبار كتابته؛ لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته؛ فيجب على الكاتب أن يكون عدلًا وليس بفاسق حتى لا تضيع معه الحقوق.

السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك.

الثامن: أن يكون الكاتب عارفًا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق؛ لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك؛ فيجب على الكاتب أن يكون عارفًا بكتابة الوثائق حتى لا يقع ضرر على أحدهما وهو لا يقصد، وذلك لقوله تعالى {وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ} فكيف سيتحقق العدل وهو لا يعلم وليست لديه خبرة!

التاسع: أنه إذا وُجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يُعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا؛ فما دامت الوثيقة مكتوبة فإنه يُعمل بها، وإن مات الكاتب العدل والشهود.

العاشر: قوله {وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ} أي: لا يمتنع مَن مَنَّ الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم؛ فلا يمتنع الكاتب عن الكتابة لما في ذلك من نفع المسلمين.

الحادي عشر: أَمَرَ الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه (مَن عليه الحق) وهو المَدين؛ وقد فصّلنا ذلك الحصر عند شرح الآية.

الثاني عشر: أن الذي يملي من المتعاقدَين من عليه الدين؛ وهو معنى مقارِب للنقطة السابقة.

الثالث عشر: أمره أن يبيّن جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئًا؛ فعلى المَدين أن يبيّن ما عليه وهو يُملي الكاتب، ولا ينقص منه، وليتق الله في ذلك.

الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول؛ لأن الله أمر مَن عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادّعى بعد ذلك غلطًا أو سهوًا؛ فإن إقرار الإنسان على نفسه هو أعلى أنواع الإقرار.

الخامس عشر: أن مَن عليه حقًّا من الحقوق التي البينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق؛ لأن الله سبحانه وتعالى عندما نهى عن بخس الحق نهى الذي عليه الحق دون غيره، فمَن عليه الحق هو الذي يكون قوله مقبولًا على ما يقوله من مقدار الحق وصفته.

السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئًا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير

ذلك من توابعه ولواحقه.

السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار.

الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم مَن عليه الحق من العدل؛ فطالما أن هذا الولي سيقوم مقام مَن عليه الحق فعليه أيضًا ما على مَن عليه الحق من العدل، فلا يراوغ ولا يبخس ولا يكذب.

التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي؛ لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق؛ فيشترط عدالة الولي أيضًا.

العشرون: ثبوت الولاية في الأموال؛ وذلك مثل زكاة الأموال التي يخرجها الولي عن الصبي.

الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم؛ لأن الوليّ مجرد واسطة لكتابة الحقوق، لكن الحق نفسه معلّق على الذي عليه الحق ولو كان صغيرًا أو سفيهًا أو ضعيفًا.

الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح؛ لأن الله جعل الإملاء لوليهم ولم يجعل لهم منه شيئًا لطفًا بهم ورحمة؛ فإقرار المجنون والمعتوه والصغير لا يجوز خوفًا من إتلاف أموالهم.

الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذُكِر.

الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه؛ لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع؛ والمقصود بـ (مشروعية) هنا أي في الشرع، فيشرع أن يتعلم الشخص كيفية توثيق هذه الأمور حتى لا يقع في أخطاء كثيرة أو يقع في محرمات بسبب جهله بأمور الفقه.. خاصة الأمور المتعلقة بالبيوع والمعاملات، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية؛ لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم.

السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين؛ فالإشهاد على العقود هام وإن كان مستحبًّا.

السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضًا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدَّعي؛ فكما جاء في الحديث: (عن عبد الله بن عباس أنَّ

النبيَّ ﷺ قَضَى باليَمِينِ علَى المُدَّعَى عليه[١].

*فإذا ادّعى شخص على شخص آخر بشيء فإن هذا المدّعي يلزمه دليل على صحة ادّعائه وإلا يسقط ادّعاؤه ويكفي المُدّعَى عليه اليمين لتبرئة ذمته؛ ويكفي اليمين منه؛ لأن الأصل براءة الذمة.

الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل في قوله تعالى {مِن رِّجَالِكُمْ} فدلّ ذلك على عدم قبول شهادة الصبيان والكفار.

التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل؛ لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها؛ وهي {أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ} وقد بيّنا معنى (تضل) أثناء الشرح.

الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله {وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ} ؛ فلا فرق هنا بين عبد وحر.

الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكورًا كانوا أو نساء غير مقبولة؛ لقول الله عز وجل {مِن رِّجَالِكُمْ} ولم يقل منهم (أي من الكفار).

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٦٨).

الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها.

ولكن هذه القاعدة ليست على الإطلاق؛ فأحيانًا قد تكون المرأة قوية الحفظ ذات علم، وظهر هذا الأمر على مدار التاريخ فكانت هناك نساء عابدات عالمات لديهن قوة في الحفظ والحُجة والبرهان بل كان يتعلم منهن الرجال؛ منهن على سبيل المثال: (فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح البغدادية) قال الإمام ابن كثير عنها في البداية والنهاية: «الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية بظاهر القاهرة، وشهدها خلق كثير، وكانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر... وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال، وقد كانت تحضر مجلس الشيخ ابن تيمية فاستفادت منه ذلك وغيره، وقد سمعت الشيخ تقي الدين يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم، ويُذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من المغني أو أكثره، وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها..» وكانت ترد وتنكر على أهل البدع، وتعطي إجازات في القرآن للنساء، كما كانت من آلاف المحدِّثات التي كانت تحدث بحديث رسول الله ﷺ.

الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذُكِّرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾.

الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دُعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله {وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ} ؛ فلا يصح للشاهد أن يمتنع بغير عذر.

السادس والثلاثون: أن مَن لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها؛ ولأنه ليس من الشهداء؛ فمن لا يتصف بالعدل في الشهادة أو لم تتوفر فيه الصفات المقبولة للشهادة فلا يُلَبِّ لعدم الفائدة.

السابع والثلاثون: النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود؛ وذلك لتجنب الكثير من المشاكل التي قد تنتج من عدم الكتابة.

الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود؛ وذلك لقوله تعالى {ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ} .

التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين؛ فمَن راوده شك في شهادته فلا يفعلها.. بل يجب عليه اليقين.

الأربعون: قوله ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر؛ إلا لشدة الحاجة.

الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾؛ وكلمة (يشرع) هنا لاتعني وجوب أو استحباب، ولكن تعني أنها موجودة في الدين.

الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يُدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه؛ فلا ينبغي أن نشق عليه.

الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضًا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ مبنيًّا للمجهول.وأما على جعلها مبنيًّا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون، والخامس والأربعون.

السادس والأربعون: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾؛ فهذه الأشياء من عدم التقوى والإضرار بالآخرين من صفات الفساق.

السابع والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق

والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: {فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ} ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسَّاق؛ وهذه مسألة عقدية هامة: فلو قيل (فاسقون) فإن ذلك يعني أن الفسق أحاط بصاحبه من كل مكان فأصبح فاسقًا بالكلية، ولكن لمَّا قيل {فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ} دلّ ذلك على أن الفسق والكفر يتجزأ؛ فقد يحمل المؤمن بعض صفات الفسق أو الكفر الأصغر، فيكون في قلبه إيمان وبالرغم من ذلك لديه نفاق عملي (وليس عقدي)؛ لذلك قال رب العالمين {فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ} ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسّاق.

الثامن والأربعون: وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله {مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ}.

التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العُرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيًّا معتبرًا عند الناس قبلت شهادته؛ أي أن كل من شهد له الناس بالعدالة يؤخذ بعدالته.

الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يُزكَّى.

ثم ختم الإمام بقوله (فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، ولله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده).

وهذا من تواضع الإمام؛ فقد أتى بخمسين فائدة عظيمة جليلة من آية واحدة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فجزاه الله خيرًا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا
فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ
وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ
قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن
تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ
غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا
كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ
رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ
مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾

{وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا} خطاب للمسافرين إذا حدث بينهم تداين إلى أجل مسمى ولم يجدوا مَن يكتب لهم وثيقة تُضمن بها الحقوق، هنا أرشدهم الحق تبارك وتعالى إلى أمر يحل محل الوثيقة وهو (الرهان).

- إذًا شرعية الرهان: أنه يقوم مقام التوثيق بالكتابة في حال السفر كما جاء في الآية.

سؤال: هل الرهان يكون مشروعًا فقط في السفر أم أنه يمكن أن يُعمل به في الحضر أيضًا؟

الجواب: نعم هو مشروع في الحضر (وهذا عند جمهور العلماء).

وهناك فريق آخر يقول: إن هذا لا يكون إلا في السفر (ولكنه قول مرجوح ضعيف)؛ والدليل على أن هذا القول ضعيف حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: «اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا، وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ»(١).

*وكان هذا في الحضر (المدينة)، فدلّ ذلك على أنه مشروع في السفر والحَضَر أيضًا.

{فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ} قال الحق سبحانه {مَقْبُوضَةٌ} ولم يقل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٣).

(تقبضها يا صاحب الدين) فلماذا؟ إيماء إلى الاكتفاء بقبض الوكيل ولا يتوقف على قبض المرتهن نفسه.

إذا أراد الراهن أن يقدم الشيء المرتهن للدائن ولكن الدائن غير موجود فيُمكن أن يستلم وكيل الدائن هذا الشيء المرتهن (فليس شرطًا أن يستلم الدائن بنفسه).

وتقديم الرهان يكون في حال عدم وجود الثقة بين الطرفين (الدائن، المدين).

{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا} فإذا أحسن الدائن الظن بالمدين وعرف أنه رجلٌ صالح ولن يأكل ماله أو يخدعه فإنه سيستغنى بالأمانة عن الارتهان.

{فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ} المَدين.

{أمانته} دينه.

*والجملة: فيها حمل وإرشاد للمَدين لأداء الأمانة، حيث ينبغي عليه أن يبذل كل الجهد والطاقة لأداء الأمانة.

-فحين عبر عن الدين بلفظة (الأمانة) كان في ذلك حمل للمَدين على أداء تلك الأمانة؛ لأن الدائن لم يكتفِ بإعطاء المال للمَدين فقط بل ترك الارتهان أيضًا.

ثم جاء ختام الجملة {وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ} فعليه أن يترك الخيانة

وإنكار الحق؛ وأمر الله بالتقوى عند الوفاء كما أمر بها عند الإقرار في الشهادة (الآية السابقة) وذلك تعظيمًا لحقوق العباد وتحذيرًا من الفساد الذي يمكن أن يقع بعدم أداء الأمانة والشهادة.

فأرشد الحق سبحانه عباده إلى الطريق الذي تستقيم به الحقوق المالية والشهادة فيحدث الأخذ والعطاء بين العباد ولكن بضوابط الشرع.

جمعت الآية بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وفي ذلك تأكيد لأداء الحقوق وتحذير من عدم الأداء؛ فأما التأكيد لأداء الحقوق لأن (الله) هو الذي أمر وبالتالي لا بُدَّ للعبد أن ينقاد ويُنفذ الأمر فلا خيانة ولا غش ولا معصية لأمر الله بالامتناع عن الأداء.

- و(الرب) أي صفات الربوبية؛ فيعلم أن له ربًّا محيطًا بالعباد يراهم ويسمعهم ويعلم خباياهم، ومَن يعي القرآن ويتدبره ويفهم معانيه من المستحيل أن يقوى قلبه على عصيان الله سبحانه، ولكن ما عصى العباد ربهم إلا بعدم الفهم لنصوص القرآن والشريعة.

{وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ} لا تكتموا أيها الشهود الشهادة.

{وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ} الذي يكتم الشهادة قلبه آثم فلماذا؟ أو بمعنى آخر: لماذا عمد إلى القلب ولم يقل يأثم الإنسان؟

الجواب:

أولًا: أبلغ في التأكيد وبيان للمعنى؛ لأن الذي يكتم الشهادة سوف

يُضمرها ولن يتكلم بها، وهذا الإضمار سيكون محله القلب (مقر الإضمار في القلب). وإسناد الفعل للجارحة أبلغ في التأكيد وبيان للمعنى، وذلك مثل مَن يقل (سمعت بأذني) أو (رأيت بعيني) وفي هذا تأكيد للمعنى.

ثانيًا: تعني أن الإثم قد تمكّن من القلب؛ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[١].

فإذا ما قيل ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فإن هذا يعني أن الأمر ليس فقط مجرد هفوة، ولكن هذا الشخص الذي وصل إلى خيانة الأمانة لا بُدَّ أن تكون الخيانة والإثم أشياء مُتأصلة في قلبه ثابتة فيه؛ لأن القلب الذي هو أشرف مكان في الجسد كالمَلِك والأعضاء جنود (كما قال السلف)، وبالتالي فإن كتمان الشهادة يعني تمكُّن الإثم من القلب، وهذه المضغة هي الحاوية لكل شيء (إيمان ونفاق، حسنات وسيئات).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ الله أعلم بما تعملون بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم فلا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾}.

{لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ} كل شيء لله تبارك وتعالى، كل ما في السماوات والأرض ملكًا وإيجادًا وتدبيرًا وإعدادًا وإمدادًا لله وحده، لا لأحدٍ غيره.

- والجملة (دليل اختصاص): فالجملة خبرية قُدِّم فيها الخبر، ومعلوم أنه إذا قُدم ما حقه التأخير فإنه يُفيد الحصر.

(مَا): تُستعمل للعاقل ولغير العاقل؛ ولذلك فهي تشمل الجميع (الجن، الإنس، الملائكة، الكواكب، البحار، الأشجار) الكل ملك لله تبارك وتعالى، والله سبحانه وتعالى يتصرف في ملكه كيف يشاء.

{وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} جملة شرطية.. {تُبْدُوا} أي وإن أظهرتم الأشياء التي في نفوسكم أو أخفيتموها.

{يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ} جواب الشرط.

لكن هل المحاسبة تستلزم العقوبة؟

الجواب: لا؛ فيمكن أن يُحاسب الله بعض الأشخاص ولا يُعذِّبهم، فليس كل مَن يُحاسب يُعذب.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى**

يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[١]. حَاسَبَه الحق سبحانه ولكنه لم يُعاقبه؛ إذًا ليس شرطًا أن يتبع الحساب عقوبة.

وقفة مع الآية:

كثيرًا ما يُقدم الحق سبحانه الإخفاء على الإبداء، وذلك كقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [آل عمران]، ولكن في الآية التي نحن بصددها قُدِّم الإبداء على الإخفاء فلماذا؟ حين يُقدم الله عز وجل الإخفاء على الإبداء يكون ذلك في مقام العِلم؛ ليُخبر العباد ويُعلمهم أنه سبحانه لا تخفى عليه أعمالهم وأن الكامن كالبارز في علم الله، فالظاهر والباطن بالنسبة لعلم الله سواء، أما في هذا الموضع فإنه يتكلم عن المحاسبة فقدم الإبداء على الإخفاء لأن هناك أشياء يُخفيها الإنسان ولا يُحاسبه الله عليها، ولكي يتضح الأمر فيجب أن نعلم أن: الإخفاء نوعان:

١ـ العزم بالنية والقلب على أمر؛ فحتى لو لم يقع فإن العبد يُحاسب عليه.

عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٠).

بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[(١)].

٢- وأما الهواجس والوساوس والأشياء التي تطرأ على عقول وقلوب بني آدم فلا يُؤاخَذ عليها العبد.

﴿فَيَغۡفِرُ﴾ المغفرة: هي ستر الذنب، والتجاوز عنه، مأخوذة من (المغفر) الذي يستر به المقاتل رأسه، ويتقي به السهام وغيرها، فالمغفر جامع للستر والوقاية.

وكذلك مغفرة الله تبارك وتعالى تتضمن أمرين: الستر والوقاية من أثر الذنب؛ فيستر العبد لأنه سبحانه هو الغفور السِّتِير الكريم المنان فيستر ذنب عبده عن أعين العباد، ولا يؤاخذ العبد بهذا الذنب بل يعفو ويُغفر له فلا يُحاسبه ولا يؤاخذه بالذنب، وهذا من سِعة كرم الله وعفوه.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سبق القول: أن أفعال الله سبحانه المتعلقة بالمشيئة تابعة لِحِكمة، فإن اقتضتها الحكمة وقعت وإن لم تقتضِها لم تقع، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ [الإنسان] وكثيرًا ما يأتي في كتاب الله اقتران اسمي (العليم، الحكيم)

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

وهذا الاقتران لحكمة؛ فقد يأتي شخص جاهل لا يُحسن التفكير فيقول عن قول الله {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} أن الله يغفر لمن أراد ويعذب من أراد فيحمل التصرف على أنه أمر عشوائي! (نعوذ بالله من الضلال) وهذا القول في حق العباد قد يكون جائزًا ولكن (العليم الحكيم) مستحيل أن يصدر عنه هذا، وهو بهذه الحكمة البالغة يغفر ويعذب.

{وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فلا يعجزه شيء كما لا يخفى عليه شيء، ولا يمنعه أحد من فعل ما يريد، ولو اجتمعت قوى السماوات والأرض على أن تمنع شيئًا أراده الله سبحانه فلن تستطيع منعه، كما أنها لو اجتمعت على أن تفعل شيئًا لم يرده الله فلن يقع، أما الرب سبحانه فإنه على كل شيء قدير.

قوله تعالى: {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾}.

بيَّن الله جلَّ ذكره في هذه السورة أحكامًا جليلة عظيمة منها (الصلاة، الزكاة ، الصيام، الحج، الجهاد، الطلاق، الزواج، الحيض، أحكام الدين، الربا، ...) كما ذكر بعضًا من قصص الأنبياء عليهم السلام.

أحكام عظيمة جليلة تضمنتها السورة ثم خُتمت بقوله سبحانه:

{ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ} وذلك تعظيمًا لشأن النبي ﷺ.

وهذه الجملة من الآية فيها تأكيد للأمور التي ذُكرت قبلها، كما أنها نوع من الفذلكة لجميع الأحكام التي ذُكرت من قبل؛ فالعباد المؤمنون يؤمنون بكل تلك الأحكام وكل ما أنزل وجاء من عند الله تبارك وتعالى، وذكر ذلك كله في جملة واحدة فقال {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ}.

{كُلٌّ} عائدة على الرسول والمؤمنين.

{ءَامَنَ بِٱللَّهِ} الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: (الإيمان بوجود الله، الإيمان بالربوبية، الإيمان بالألوهية، الإيمان بالأسماء والصفات) أربعة أمور لا بُد من الإيمان بها.

{ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ} وتلك من أركان الإيمان.

{لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ} هنا التفات من الغيبة إلى التكلم، وقد سبق القول أن للالتفات فوائد عظيمة منها (الانتباه): لأن الكلام لو سار على نسق واحد (نعم يمكن أن يكون هناك انسجام معه) ولكن هذا النسق الواحد يمكن أن يؤدي إلى غياب الذهن وشروده فيأتي الالتفات وكأنه يقرع الذهن ويقول: انتبه!

سؤال: هل النفي هنا (نفي تفريق) أم (نفي تفضيل)؟

الجواب: النفي يُقصد به نفي التفريق في الإيمان بهؤلاء الرسل عليهم السلام؛ فنحن مؤمنون بكل الرسل الذين جاءوا من عند الله

وبكل ما أبلغونا به، ولا نفرق بينهم، فهم جميعًا رسل الله، وهم معصومون من الكبائر.

ـ أما التفضيل في الدرجات فلا بُد من التفرقة بينهم كما قال ربنا سبحانه {تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} فالحق سبحانه وتعالى فضَّل بعض الرسل على بعض، وقد سبق إيضاح تلك المسألة في هذه السورة.

{وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أي سمعنا قولك يا ربنا ووصلت الرسالة عن طريق النبي ﷺ، وحين وصلت الرسالة بما تحمله من الأوامر والزواجر امتثلنا أمرك وقمنا بما تحب وترضى واستقمنا على مرادك، (ويحسن الوقف هنا)؛ لأنه جاء بعدها {غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} فلما قالوا سمعنا وأطعنا بما تتضمنه هذه الكلمة من الطاعة والانقياد سألوا ربهم المغفرة؛ لأن الأمر لن يخلو من التقصير فنحن بشر، ومهما حاول العبد السير على طريق الطاعة والبعد عن المعصية إلا أنه لا بُد أن يقع في التقصير على الأقل، لكن الرب الغفور الرحيم رب العباد نسأله أن يغفر الزلات والعثرات وأن لا يؤاخذنا بأعمالنا وتقصيرنا.

{غُفْرَانَكَ} مفعول لفعل محذوف تقديره: نَسْأَلُكَ غُفرانَكَ.

{وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} إليك المرجع والمآب. وتقديم السمع والطاعة على طلب الغفران لأن تقديم الوسيلة مهم جدًّا وأدعى للإجابة.

ولذلك قال بعض أهل العلم: إن من أسباب إجابة الدعاء التوسل إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة (مثل: الثلاثة الذين أَوَوا إلى الغار) فهذا أدعى أن يستجيب الله له، فيقدم الأعمال الصالحة ويُصلح الذي بينه وبين ربه.

- وهذا تَذْيِيلٌ لِما قبله مُقَرِّرٌ للحاجة إلى المغفرة، فيفهم الإنسان أن الرجوع إليه سبحانه للحساب والجزاء، وإذا كان المصير إلى الله فإن الجزاء سيكون من عند الله، فعلى العقلاء أن ينتبهوا.

قوله تعالى: { لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾}.

هذه الآية وسابقتها لهما آثار عظيمة منها:

١- عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[(١)]. **ما معنى كَفَتَاه؟** للعلماء توجيهات:

- **قيل**: كفتاه الشرور والأذى والمصائب التي يمكن أن تكون في هذه الليلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨).

- **وقيل**: كفتاه؛ أي كفتاه قيام الليل.

٢- ومن فضلهما أيضًا: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النبي ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»(١).

*كان رسول الله ﷺ جالسًا وعنده جبريل عليه السلام فسمع نقيضًا (أي صوتًا) فوق رأسه، فرَفَع جبريلُ - أو النبي ﷺ - رأسه وقال: هذا بابٌ مِن السَّماءِ فُتِح ولم يُسبَقْ أنْ فُتِحَ من قبل، فنَزَل منه مَلَكٌ لم يسبق له النزول إلى الأرض مِن قبْل.

فدل ذلك على أن للفاتحة وخواتيم سورة البقرة فضلًا عظيمًا جدًّا جدًّا:

- فأما الفاتحة فقد اشتملت على جميع معاني التوحيد (الألوهية، الربوبية، الأسماء والصفات) كما نصت على الاستعانة بالله، وتجريد التوحيد، والإقرار بالعبودية...ومعانٍ كثيرة يضيق المقام لذكرها.

- وأما خواتيم سورة البقرة فقد اشتملت على الثناء على الرسول

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٦).

ﷺ وعلى الصحابة ﭫ جميعًا، كما أن فيها استسلام الصحابة لأمر الله؛ فعلى الرغم من أن الأمر كان شاقًّا عليهم في البداية إلا أنهم بعد ذلك أعلنوا استسلامهم ورضاهم بما شرعه الله عز وجل، وحين استسلموا جبرهم ربهم وأكرمهم وخفَّف عنهم الحكم، وكان هذا التخفيف بركة للأمة كلها.

سبب نزول الآية المباركة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ { لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: { ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥] فَلَمَّا

فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ»(١). *(قَالَ: نَعَمْ) أي استجابَ اللهُ سُبحانَه لهُم أي: قد فعَلتُ.

*هذا الحديث لا بُدَّ له من وقفة؛ فقد اشتد على الصحابة ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فالمسألة عظيمة جدًّا على النفوس لأنَّها تُنذِرُ بالمُحاسَبةِ على ما في النَّفسِ، فذهبوا إلى النبي ﷺ حتى يشفع لهم عند ربهم كي يُخفف عنهم هذا التكليف الشاق، فنهاهم النبي ﷺ عن أن يصنعوا صنيع أهل الكتابَينِ من اليهودِ والنَّصارى حينَ قالوا بشأنِ تكاليفِهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وهنا لافتة لا بُد من الانتباه إليها: ما الذي حدث من الصحابة حين قال النبي ﷺ لهم ذلك؟ وكم من الوقت مضى حتى جاء رد الصحابة رضوان الله عليهم؟ سنجد أنه بمجرد أن قال لهم النبي ﷺ قولوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قالوا ذلك من غير جدال ولا نقاش ولا اعتراض بل سرعة إجابة ليس لها مثيل!

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٥).

(هؤلاء قوم عجزت العقول واحتارت في تقديرهم أو تقييمهم) فما كان منهم إلا الخضوع والانقياد!!

وإذا ما عقدنا مقارنة بين حال هؤلاء القوم وحال المسلمين اليوم فإننا سنجد فرقًا شاسعًا؛ فالمسلمون الآن: جاءتهم أوامر الله عز وجل منذ ألف وأربعمائة عام، كتاب الله بين أيديهم منذ أن خلقهم ربهم (يوم وُلِدوا)، عرفوا الحق كما عرفوا الباطل ولكن الكثير منهم اليوم يرفعون شعار: سمعنا وعصينا (إن لم يكن باللسان فبالأحوال)، فلسان حالهم يقول: نعلم ولكننا لن نعمل! سمعنا ولكننا لن نستجيب!! إلى جانب (سوف) التي يقولها الكثيرون! تلك هي أحوال المسلمين اليوم إلا مَن رحم الله.

ـ فلما كرر الصحابة هذا الجزء من الآية كثيرًا وذَلَّتْ ألسنتهم، فأنزل الله عز وجل في إثرها {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ}.

وهذه قاعدة يجب علينا أن نعلمها: أي شيء قدّره الله على العبد فتلقّاه وتقبّله برضا واستسلام فسينزل يقينًا التخفيف؛ فإما أن يرفع الله البلاء وإما أن يُنزِل السكينة على قلب العبد ويرزقه حسناتٍ وأجرًا عظيمًا في الدنيا والآخرة عن هذا الرضا، هذا في أمر الابتلاء، فماذا عن الأحكام؟

ـ الفئة البعيدة عن الدين والتي لا تريد أن تعبد الله أو تسمع الحق

وأيضًا لا تريد الانقياد، هذه الفئة لا تستطيع أن تفهم سنن الله -وهذه مصيبة كبيرة- وحجة هؤلاء أن الحياة مع هذه التكاليف صعبة ومستحيلة!! قاسوا الأمر بعقولهم ووجدوا أن تطبيق شرع الله صعب ومحال!! مع أنهم لو قبلوا الشرع وحاولوا تطبيقه على أنفسهم حتى لو كان فيه مشقة في بداية الأمر إلا أن السكينة والرحمة ستنزل بعد ذلك عليهم.

-عندما رَضِيَ الصحابة واستسلموا أنزل الله التخفيف عليهم بالاستجابة لهم؛ فقال: (نعم)... مَن الذي يقول (نعم)؟!! إنه الله سبحانه وتعالى قال: (نعم) أي: فعلت.

{لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا} التكاليف في وسع كل إنسان، وما شرع الله عز وجل التكاليف لشقاء العباد، وإنما التكاليف هي غذاء الروح، ودواء الأبدان، وشفاء لما في الصدور، ودفع لمكائد الشيطان.

- يأمر الله جلَّ جلاله العباد من أجل أنفسهم؛ فيختبرهم ليرى مدى حبهم واستجابتهم وطاعتهم له سبحانه، وكلها أمور تعود بالنفع على الإنسان نفسه، ولكن هل كل ما كلفنا به هو في وسعنا؟ نعم، كل ما كلفنا به هو في وسعنا.

والوُسْعُ هو الطّاقَةُ والِاسْتِطاعَةُ، والمُرادُ بِهِ هُنا ما يُطاقُ ويُسْتَطاعُ، فَهو مِن إطْلاقِ المَصْدَرِ وإرادَةِ المَفْعُولِ.

والمُسْتَطاعُ هو الذي اعتاد عليه البشر؛ فالناس لهم قدرة معينة معلومة ومعروفة، وكل إنسان له قدرة محدودة وذلك حال انتفاء الموانع وسلامة الأعضاء.

*وهَذا دَلِيلٌ عَلى عَدَمِ وُقُوعِ التَّكْلِيفِ بِما فَوْقَ الطّاقَةِ.

سؤال: عدم تكليف العبد فوق طاقته موجود في شريعة محمد ﷺ فقط أم أنه في الشرائع السابقة أيضًا؟

الجواب: في جميع الشرائع لم يكلف الله عز وجل العباد فوق وسعهم، والدليل قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، وقد دلّت كلمة نفسًا على العموم؛ لأنها نكرة في سياق النفي، وبالتالي فهي تعم كل النفوس (المسلمين، أتباع الشرائع السابقة).

وقد يأتي هنا اعتراض: فقد كلّف الله عزَّ وجل بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، وأيضًا مسخهم قردة وخنازير، وكتب عليهم التيه أربعين عامًا.. وردًّا على ذلك: هذه الأمور كلها جاءت كعقوبات لهؤلاء، وليس الأمر ابتداءً من الله.

- فلما عبدوا العجل وفعلوا ما فعلوه من أفعال أمرهم الله بقتل أنفسهم.

- وحين تحايلوا على أمر الله بصيد السبت مسخهم قردة وخنازير.

- ولما امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة تاهوا في الأرض.

*إذًا تلك كانت تكاليف في سياق العقوبات ولم تكن أمرًا من الله ابتداءً؛ لأن هذا يُنافي عدل الله عز وجل. وامْتازَتْ شَرِيعَةُ الإسْلامِ بِاليُسْرِ؛ فشريعتنا هي أيسر الشرائع، ولكن ليس معنى ذلك أن مَن كان قبلنا كُلّف فوق طاقته.

فلننتبه لهذه الجزئية لأن هناك فِرَقًا أخرى لا تُقر بها بل تُخالفها مثل (الأشاعرة): فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج] هذا تخفيف وتيسير، فلا يوجد شيء في دين الله عزَّ وجل فيه حرج أو مشقة على العباد.

- وقد خالف فكر الأشاعرة ذلك فقالوا: إن الرب سبحانه يمكن أن يُحمّل العباد فوق طاقتهم فيُكلفهم ما لا يطيقون!! وذلك بِناءً عَلَى قواعد لديهم واعتقادات ومنها:

١ـ قاعدة (نَفْي وُجُوبِ الصَّلاحِ عَلَى اللَّهِ) ومعناها عندهم: أنه ليس شرطًا أن يعمل الله الصالح والأصلح للعباد!! لأن كل ما يصدر عن الله عدل وهو ملك الملوك فيفعل ما يشاء!

الرد: نعم هو سبحانه يفعل ما يشاء ولكنه (الحكيم) (الرحيم)؛ و(الحكمة) تنافي تكليف العبد فوق طاقته؛ لأنه سيعجز عن التنفيذ، كما أن (الرحمة) تقتضي أن لا يُكلف العبد فوق طاقته ثم يأمره! فكيف لله وهو أرحم الراحمين أن يكلف العباد فوق طاقتهم؟!!

٢ـ يعتقدون أيضًا: أن التكليف ليس خاصًّا بامتثال الأمر، ولكن

التكليف من الله قد يكون بقصد العجز والابتلاء، ثم جعل الامْتثال علامة على السَّعادة!! واسْتَدَلُّوا عَلى ذَلِكَ بِحَدِيثِ تَكْلِيفِ المُصَوِّرِ في يوم الموقف العظيم بِنَفْخِ الرُّوحِ في الصُّورَةِ وما هو بِنافِخٍ، وتكليف الكاذِبِ في الرُّؤْيا بِالعَقْدِ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وما هو بِفاعل، فقالوا إن الحق سبحانه كلف هؤلاء بأمور فوق طاقتهم إذًا يمكن أن يكلف الله بما هو فوق طاقة العباد!!!

الرد: هذا الذي استدلوا به لا دليل فيه لِأَنَّ هذا في أُمُورِ الآخِرَةِ، أما نحن ففي دار تكليف، وهذا التكليف قائم على الحكمة والرحمة والعدل.

- أما في الآخرة فإن أَمْرَ المصور أن ينفخ الروح في الصورة، وأَمْرَ الكاذب أن يعقد بين شعيرتين فإن هذا من قبيل التبكيت والتنكيل بهم؛ لأنهم كذبوا على الله وعصوه وأتوا بأمور هي من الكبائر التي نُهينا عنها.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ قال بعض أهل العلم: أتى الله عز وجل بـ (كَسَبَ) في الخير فدل على أن أي عمل خير يعمله الإنسان حتى لو كان قليلًا جدًّا فإنه يُثاب عليه، فبمجرد أن يعقد القلب النية والعزم على فعل الخير والسعي وراء ذلك يؤجر الإنسان حتى لو لم يفعله مثل (قاتل المائة)، أما مجرد الخاطرة فلا يحاسب عليها.

- وأتى الله عز وجل بـ (اكْتَسَبَ) في عمل الشر: للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان إلا بعد عمله، وهو يُحاسب على عقد النية أيضًا، ودليل ذلك: عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[1].

وقد اُعترض على القول بأن (كَسَبَ) تأتي في الخَيْرِ، و(اكْتسب في الشَّرِّ؛ فبالاستقراء نجد أن هناك آيات في كتاب الله تدل على أن (كسب) جاءت في الخير والشر، وأن (اكتسب) جاءت في الشر فقط:

*قال الحق سبحانه:{وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا ١٦٤} [الأنعام] فدل على أن الكسب في الخير والشر.

*وقال سبحانه:{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٥٢} [يونس] جاءت في سياق الشر.

{لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ} تدل على أن كل شخص سيُحاسب على أعماله فقط، وذلك تبعًا لقاعدة {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١).

أُخۡرَىٰۚ} باستثناء إهداء ثواب الأعمال للإنسان؛ فإذا مات المسلم فدعاء المسلمين للميت ينفعه بالإجماع، كما أن الحج والعمرة والصدقة والصيام (الراجح من أقوال العلماء) أن ثوابهم يصل للميت.

{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا} (المؤاخذة) مشتقة من الأخذ بمعنى العقوبة؛ كما قال الحق سبحانه: {وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢} [هود].

وقفة: ما المقصود بالنسيان والخطأ؟ للعلماء في هذا الشأن توجيهات منها:

- قول الإمام ابن جرير الطبري شيخ المفسرين: النسيان والخطأ اللذان سأل الصحابة ﭫ ربهم ألا يؤاخذهم بهما؛ ليس النسيان المعهود ولا الخطأ المعروف؛ فالنسيان له وجهان وكذا الخطأ له وجهان:

فأما وجها النسيان فهما:

١- وجه التضييع من العبد والتفريط (الترك) فهو ترك منه لما أمر بفعله.

٢- ذهول القلب والعقل؛ أي نسيان الذهن. والنسيان المذكور في الآية المقصود به التضييع والتفريط وليس نسيان ذهول القلب، واستدل الطبري على هذا بما يلي:

عندما أُخرج آدم عليه السلام من الجنة أُخرج بالنسيان الذي كان بناءً على التضييع والتفريط ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه] فالنسيان هنا نسيان تضييع وتفريط؛ والدليل أنه عوقب عليه، ولو كان نسيانه ذهول القلب والعقل (الذهن) لما عُوقب.. لحديث النبي ﷺ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النبي ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»(١).

كما استدل الإمام بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف]، والنسيان في حق الله عز وجل المقصود به الترك والإهمال وعدم الاكتراث لشأنهم.

إذًا تجاوز الحق سبحانه للأمة عن الخطأ والنسيان، فلما طلب الصحابة رضي الله عنهم أن لا يؤاخذهم ربهم على النسيان لم يكن النسيان المقصود في الحديث (ذهول العقل) لأن هذا معفوٌّ عنه من الأصل، ولكنهم قصدوا النسيان الذي هو نتيجة التفريط والتضييع.

*ومثال ذلك النسيان المقصود: شخص نسي القرآن بعدما حفظه

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني. والحديث حسَّن إسناده الحافظ ابن حجر وابن كثير وعبد الحق الإشبيلي وغيرهم، وهناك من أهل العلم مَن ضعَّفه، ولكن الحديث تلقاه العلماء بالقبول، وهو معمولٌ به عند أهل العلم، وله شواهد تُصححه عند مَن قال إنه ضعيف.

فلماذا نَسِيَه؟ قد يكون أهمل في المراجعة.

*ومثله أيضًا: نسيان الصلاة (تضييع وتفريط) ولو كان حريصًا عليها لما نسيها بالتفريط في وقتها.

والصحابة رضي الله عنهم قالوا: إنما نحن بشر ومهما اجتهدنا في الطاعة ومهما حاولنا إرضاء الله تبارك وتعالى فلا بُدَّ من وقوع التقصير والتضييع، وفي هذا الحال نسألك يا ربنا إذا وقع منَّا نسيانٌ بالتفريط أو التضييع فلا تؤاخذنا به؛ لأننا بَشَرٌ نعجز عن أن نأتي بالكمال والتمام، نعجز عن أن نستقيم على الأمر والنهي على الدوام.

وأما وجها الخطأ فهما:

١- عمل نُهِيَ عنه العبد فيأتيه بقصد منه وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ.

وهذا هو مقصود الصحابة رضي الله عنهم في الآية، فسألوا الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنهم في هذه المسألة؛ أي يخطئ وهو يعلم أنه أخطأ وبالرغم من ذلك ارتكبه لضعف منه، وهذا وارد (مثل الصحابي الذي شرب الخمر في عهد النبي ﷺ).

٢- الخطأ بمعنى الجهل: أي ما وقع من العبد على وجه الجهل به.. ومثال ذلك: شخص أخطأ في تحديد القبلة في الصلاة بعد اجتهاد منه، شخص صلى في ثوب به نجاسة وهو لا يدري.

مثل هذه الأخطاء التي هي عن جهل ليست المقصودة في الآية؛

لأن الخطأ عن جهل مرفوع عن الأمة للحديث السابق ذكره.

{رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا} هنا تمَّ الفصل بين الجملتين المتعاطفتين بإعادة النداء (ربنا)، فلماذا أعاد النداء مرة أخرى مع إمكان الاستغناء عنه؟

*قال أهل العلم: إعادة النداء لإظهار التذلل وشدة الاحتياج إلى الله عز وجل وأن العبد فقير إلى ربه مُحتاج إلى توفيقه في كل نَفَس يتنفسه، كما أنه محتاج إلى أن يُسدده ويُرشده ويُكرمه، ولو أنه استغنى بقلبه أو بعقله عن عون الله فسيضل ويقع.

{وَلَا تَحْمِلْ} الحمل هو التكليف بأمر شديد يثقُل على النفس.

{إِصْرًا} الإصر له وجوه منها:

١- ما يؤصر به ويُشدّ.

٢- قد يأتي بمعنى العهود والمواثيق المؤكدة التي يصعُب الوفاء بها؛ قال الحق سبحانه: { قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا.. ﴿٨١﴾} [آل عمران].

٣- ويأتي أيضًا بمعنى: ما يُثقَل عمله والامتثال له.

وهذا المعنى الثالث هو المقصود في الآية وكأنهم قالوا: يا ربنا لا تحملنا أمورًا ثقيلة يصعُب علينا حملها أو يصعب علينا الامتثال لها والعمل بها.

{كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا} أي مَن كان قبلهم من الأمم السابقة؛ فكما سبق القول أن هذه الأمور الصعبة والتكاليف الشاقة للأمم السابقة جاءت في سياق العقوبة على ما سبق منهم من أفعال شنيعة، فلما أذنبوا عوقبوا بالتكاليف الشاقة.

فسأل الصحابة ربهم سبحانه أن لا يُنزل بهم عقوبات شديدة على أخطائهم ونسيانهم كما أنزلها على الأمم السابقة.

وقد قال الحق سبحانه في صفات النبي ﷺ: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ١٥٧} [الأعراف] فالتكاليف الشاقة ليست في ديننا.

{رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ} يا ربنا لا تُحملنا أشياء لا نستطيع حملها من العقوبات وتضعيف العذاب والأمور الشاقة.

***وقيل**: إنه دعاء لمعافاتهم من التكاليف الشديدة.

{طَاقَةَ} الطاقة من الإطاقة، مثل الطاعة من الإطاعة، فحذفت الهمزة للتخفيف.

{وَٱعْفُ عَنَّا} العفو: المحو، عفا الأثر: أي مُحِي الأثر.

{وَٱغْفِرْ لَنَا} المغفرة تتضمن الستر والوقاية من أثر الذنب.

{وَٱرْحَمْنَآ} سألوه سبحانه أن يرحمهم أيضًا.

*طلبوا من الله محو الذنب وستره بالمغفرة وعدم المؤاخذة به والرحمة.

هذه الدعوات الثلاث هنا لم تُسبق بكلمة (ربنا) أي لم تتكرر مرة أخرى؛ وذلك لِيُبين أنه ليس مقام تهويل؛ لأن العرب عندهم تكرار اللفظ أكثر من ثلاث مرات لا يكون إلا في مقام التهويل فقط، وهذا ليس مقام تهويل، ولكنه مقام لطلب العفو والمغفرة من الله جلَّ جلاله.

فالعفو يحصل به محو الذنب.

والمغفرة يحصل بها دفع المكاره والشرور.

والرحمة يحصل بها صلاح الأمور.

{أَنتَ مَوۡلَىٰنَا} بعد قول (ربنا.. ربنا) فَصَلَ بقول (أنت مولانا) فلماذا؟

يرجع ذلك لأمرين:

١- عِلَّة لِلدَّعَواتِ الماضِيَةِ: أي يا رب دَعَوْناكَ ورَجَوْنا مِنكَ ذَلِكَ لِأنَّكَ مَوْلانا، وشأن المولى أن يُعطي عبيده.. فأعطنا يا ربنا ما طلبناه.

٢- وقيل إنها: مقدمة للدعوات التالية فسيأتي بعد ذلك قوله تعالى {فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ}.

{فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} أي أنت يا ربنا مولانا؛ والمولى شأنه أن ينصر مواليه وعبيده على مَن عاداهم.

وأتى التفريع بالفاء {فَانْصُرْنَا} تأكيدًا لطلب إجابة الدعاء بالنصر لماذا؟ لأنهم جعلوه (أي هذا الدعاء) مرتبًا على وصف محقق (ولاية الله تعالى).

- قال سبحانه: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾} [الروم].

- وقال تعالى: { وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾} [آل عمران].

هذا الوصف المحقق يُبين أن الله سينصر عباده المؤمنين يقينًا قَالَ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ،..... قَالَ (أبو سفيان): يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟**»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**»(١).

*وبهذه الدعوات سوف يُعطيهم الله سبحانه خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩).

خاتمة

القرآن العظيم راحة للنفوس، وانشراح للصدور، واتصال بالله العلي القدير الكبير المتعال، وما أعظم الخسارة التي ستلحق بكل مسلم ترك تدبر كتاب الله وتفكره والتأمل فيه ومُعايشة (أحكامه، أوامره، قصصه، مواعظه)؛ نور ما بعده نور، وشفاءٌ لما في الصدور، وأنَّى لإنسانٍ عاقل أن يترك كتاب الله ويستبدله بالأدنى من سفاسف الأمور والتعلق بالدنيا والصراع عليها!! مَن فعل هذا أضاع على نفسه أعظم الخير، وجلب لها أكبر الشقاء في الدنيا قبل الآخرة.

نسأل الله العظيم أن يشرح الصدور، ويملأ القلوب بالنور، وأن يقبلنا ويتقبل منَّا، وأن يجعلنا من عباده الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

الفهرس

من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ .... ﴿٢١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ ٣

من قوله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ ....﴿٢٢٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ ١٧

من قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ....﴿٢٢٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ ٤١

من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ .... ﴿٢٣١﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ ٦٦

من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ .... ﴿٢٣٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ ٧٩

من قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ .... ﴿٢٣٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ ٩٨

من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .... ﴿٢٤٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ ١٢١

من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ .... ﴿٢٤٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ ١٣٦

من قوله تعالى: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ .... ﴿٢٥٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ ١٥٠

من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ .... ﴿٢٥٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ ١٧٦

من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ .... ﴿٢٦٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴿٢٦٤﴾﴾ ١٩٠

من قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ .... ﴿٢٦٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ ٢٠٦

من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ .... ﴿٢٧٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ ٢٢٩

من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ .... ﴿٢٧٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ ٢٤٩

من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ .... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ ٢٧١

من قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ .... ﴿٢٨٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ ٢٩٠

الفهرس ٣١٩